

مكاشفة القلوب

المقدم إلى حضرة علام الغيوب

لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

« مختصر من المكاشفة الكبرى »

حقق نصوصه وخرج أحاديثه

أبو عبد الرحمن صلاح محمد محمد عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

نسبه :

هو الإمام الكبير أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي .

مولده :

ولد في طوس ، ونشأ فيها ، وكان عاقلاً مقبلاً على طلب العلم وتحصيله ، وأخذ العلم عن جمع من المشايخ منهم إمام الحرمين ، ثم ولاه نظام الملك تدريس مدرسته ببغداد .

تصانيفه :

ألف الإمام الغزالي الكثير من المؤلفات نذكر منها :

(١) « البسيط » في الفروع على « نهاية المطلب » لإمام الحرمين .

(٢) « الوسيط » في الفقه الشافعي .

(٣) « الوجيز » في الفروع .

(٤) « تهافت الفلاسفة » .

(٥) « مقاصد الفلاسفة » .

(٦) « إحياء علوم الدين » .

(٧) « فضائح الباطنية » .

(٨) جواهر القرآن .

وفاته :

توفي - رضى الله عنه - فى سنة (٥٠٥ هـ) .

انظر ترجمته فى :

(١) العبر ٤ / ١٠ .

(٢) شذرات الذهب ٣ / ٢٩٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥ / ٧٥ .

كتبه :

أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحسن تدبير الكائنات وخلق الأرضين والسموات وأنزل الماء من المعصرات وأنشأ الحب والنبات وقدر الأرزاق والأنوات وأتاب على الأعمال الصالحات .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المعجزات الظاهرات الذى حصل من نوره وجود الكائنات .

وبعد فهذا كتاب اخترته من الكتاب البديع حسن لصنيع المسمى بمكاشفة القلوب المقرب إلى علام الغيوب المنسوب إلى الشيخ الغزالي وقد سميت كأصله بمكاشفة القلوب وأعوذ بالله من الشرك والذنوب واقتصرت فيه على مائة وأحد عشر بابا ليحفظ ما فيها أولو العلم والألباب .

باب الأول

فى بيان الخوف

جاء فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : « أن الله تعالى خلق ملكا له جناح فى المشرق وجناح فى المغرب ورأسه تحت العرش ورجلاه تحت الأرض السابعة ، وعليه بعدد خلق الله تعالى ريش ، فإذا صلى رجل أو امرأة من أمتى على » ، أمره الله تعالى بأن يتغمس فى بحر من نور تحت العرش فيغمس فيه ثم يخرج وينفض جناحيه فيقطر من كل ريشة قطرة . فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة »

قال بعض الحكماء : سلامة الجسد فى قلة الطعام ، وسلامة الروح فى قلة الأناام وسلامة الدين فى الصلاة على خير الأنام .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بمعنى اخشوا الله ﴿ وَتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ بمعنى ما عملت ليوم القيامة ومعناه تصدقوا واعملوا بالطاعة لتجدوا ثوابها يوم القيامة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) من الخير والشر ، فإن الملائكة والسماء والأرض والليل والنهار يوم القيامة يشهدون بما عمل ابن آدم من خير أو شر طاعة أو معصية حتى أن جوارحه تشهد عليه والأرض تشهد للمؤمن والزاهد فتقول : صلى على وصام وحج وجاهد فيفرح المؤمن والزاهد وتشهد على الكافر والمعاصى فتقول : أشرك على ظهري وشرب الخمر وأكل الحرام فباويله أن

(١) آية (١٨) سورة الخضر .

ناقشه في الحساب أرحم الراحمين .

المؤمن هو الذي يخاف الله تعالى بجميع جوارحه كما قال الفقيه أبو الليث : علامة خوف الله تظهر في سبعة أشياء :

أولها : لسانه فيمنعه من الكذب والغيبة والتمنيّة والبهتان وكلام الفضل ويجعله مشغولا بذكر الله تعالى ونلاوة القرآن ومذاكرة العلم .

والثاني : قلبه فيخرج منه العداوة والبهتان وحسد الإخوان ، لأن الحسد يمحو الحسنات كما قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) .

واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة في القلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل .

والثالث : نظره فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها ولا إلى الدنيا بالرغبة ، بل يكون نظره على وجه الاعتبار ولا ينظر إلى ما لا يحل له كما قال ﷺ : « من ملا عينه من الحرام ملا الله تعالى يوم القيامة عينه من النار » (٢) .

والرابع : بطنه فلا يدخل بطنه حراما فإنها أثم كبير كما قال ﷺ : « إذا وقعت لقمة من الحرام في بطن ابن آدم لعنه كل ملك في الأرض والسماء ما دامت تلك اللقمة في بطنه ، وإن مات على تلك الحالة فمأواه جهنم » .

والخامس : يده فلا يمد يده إلى الحرام بل يمدّها إلى ما فيه طاعة الله تعالى .

وروى عن كعب الأحبار أنه قال : أن الله تعالى خلق داراً من زبرجدة خضراء فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت لا يتزلها إلا رجل يعرض عليه الحرام فيتركه من مخافة الله تعالى .

والسادس : قدمه فلا يمشى في معصية الله بل يمشى في طاعته ورضاه وإلى صحبة العلماء والصلحاء .

والسابع : طاعته فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى ويخاف من الرياء والنفاق فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وقال في آية

(١) (ضعيف) أبو داود (٤٩٠٣) ، وضعيف الجامع (٢١٩٧) .

(٢) (موضوع) الفوائد المجموعة ص (٢٠٧) : حديث (٢٧) .

(٣) آية (٣٥) سورة الزخرف .

أخرى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ (٢) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ (٣) كأنه تعالى يقول : أنهم ينتجون يوم القيامة من النار .

وينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء فيرجو رحمة الله ولا ييأس منها كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ (٤) ويعبد الله ويرجع عن أفعاله السيئة ويتوب إلى الله .

حكاية : بينما داود - عليه السلام - جالس في صومعته يتلو الزبور إذ رأى دودة حمراء في التراب فقال في نفسه ما أراد الله في هذه الدودة ؟ فأذن الله للدودة حتى تكلمت فقالت : يا نبي الله أما نهاري فألهمني ربي أن أقول في كل يوم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ألف مرة ، وأما ليلي فألهمني ربي أن أقول في كل ليلة اللهم صل على محمد النبي الأبي وعلى آله وصحبه وسلم ألف مرة ، فأنت ما تقول حتى استغيد منك ، فندم داود - عليه السلام - على احتقار الدودة وخاف من الله تعالى وقاب إليه وتوكل عليه .

وكان إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه - إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فأرسل الله إليه جبريل فأناه فقال له الجبار يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خلبه فقال يا جبريل إذا ذكرت خطيئتي وفكرت في عقوبته نسيت خلتي .

فهذه أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين والزهادين فتأمل !

الباب الثاني

في الخوف من الله تعالى أيضا

قال أبو الليث - رحمه الله تعالى - : أن لله ملائكة في السماء السابعة سجدا منذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة ترعد فرانصهم من مخافة الله تعالى ، وإذا كانوا يوم القيامة رفعوا رؤوسهم فقالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك وذلك قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٥) يعني لا يعصون الله تعالى طرفة عين . وقال رسول الله ﷺ : « إذا افشع جسد العبد من خشية الله تعالى تحانت عنه ذنبه كما يتحات عن الشجرة ورقها » .

حكى أن رجلا تعلق قلبه بامرأة فخرجت تلك المرأة إلى حاجة لها فذهب الرجل معها فلما

(٢) آية (١٧) سورة الطور .

(٤) آية (٥٣) سورة الزمر .

(١) آية (٤٥) سورة الحجر .

(٣) آية (٥١) سورة الدخان .

(٥) آية (٥٠) سورة النحل .

خلا بها في البادية ونام الناس أفشى الرجل سره إليها فقالت له المرأة : انظر أنام الناس بأجمعهم ففرح الرجل بقولها وظن أنها قد أجابته فقام وطاف حول القافلة فإذا الناس نيام فرجع إليها وقال لها نعم هم نيام فقالت : ما تقول في الله تعالى أنأنم في هذه الساعة فقال الرجل إن الله تعالى لا ينام ولا تأخذه سنة ولا نوم فقالت المرأة : إن الذي لم ينم ولا ينام يرانا وأن كان الناس لا يروننا فذلك أولى أن يخاف منه ، فتركها الرجل خوفا من الخالق ، وتاب ورجع إلى وطنه ، فلما مات رآوه في المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال غفر لي بخوفي وتركى ذلك الذنب .

حكاية : كان في بني اسرائيل رجل عابد ذو عيال وأصابته المجاعة وصار مضطرا فبعث امرأته لتطلب شيئا لعيالها فجاءت إلى بيت رجل تاجر وطلبت منه ما تقوت به عيالها فقال الرجل : نعم ولكن مكينني من نفسك فسكنت المرأة وعادت إلى بيتها فنظرت إلى عيالها يصيحون ويقولون يا أمي نحن نموت من الجوع أعطنا ما نأكله فذهبت إلى الرجل وكلمته في أمر عيالها فقال لها : أنكون حاجتي مقضبة فقالت : نعم فلما خلا بها ارتعدت مفاصلها حتى كادت أعضاؤها تزول عن مواضعها فقال لها : مالك ؟ فقالت إني أخاف الله فقال الرجل إنك تخافين الله تعالى مع ما بك من الغفر فأنا أحق بالخوف منك ، وامتنع عنها وقضى حاجتها وانصرفت بنعمة كثيرة إلى أولادها ففرحوا فأوحى الله إلى - موسى عليه السلام - أن قل لفلان ابن فلان أني قد غفرت ذنوبه ، فجاء موسى - عليه السلام - فقال لملك قد فعلت خيرا بينك وبين الله ، فذكر القصة عليه ، فقال إن الله تعالى قد غفر لك ما كان من ذنوبك . . كذا في مجمع اللطائف .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « لا أجمع على عبيد خوفين ولا أمنين ، من خافني في الدنيا أمته في الآخرة ، ومن آمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة » ^(١) قال الله تعالى « فلا تخشوا الناس واخشون » ^(٢) وقال في آية أخرى « فلا تخافوهم وخالقوهم إن كنتم مؤمنين » ^(٣)

وكان عمر - رضي الله عنه - يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه وأخذ يوما تبتة فقال يا ليتني كنت تبتة ولم أك شيئا مذكورا ، يا ليتني لم تلدني أمي ، ويكي كثيرا حتى تجرى دموعه من عينيه ، فكان في وجهه خطان أسودان من الدموع ، وقال ﷺ « لا يبلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » .

وفي رقائق الأخبار : يؤتى بعد يوم القيامة فترجح سيئاته فيؤمر به إلى النار فتكلم شعرة من شعرات عينيه وتقول : يا رب رسولك محمد ﷺ قال : « من بكى من خشية الله حرم الله تلك العين على النار وإني بكبت من خشيتك فيغفر الله له ويستخلصه من النار ببركة شعرة واحدة

كنت تبكي من خشيتك فيغفر الله له ويستخلصه من النار ببركة شعرة واحدة كانت تبكي من خشية الله في الدنيا ، وينادي جبريل - عليه السلام - نجح فلان ابن فلان بشعرة واحدة » .

وفي بداية الهداية : إذا كان يوم القيامة جئ بهنهم تزر زفرة فتجثو كل أمة على ركبها من هولها كما قال الله تعالى : « وترى كل أمة جاثية » ^(١) أي على الركب « كل أمة ندعى إلى كتابها » فإذا أنوار النار سمعوا لها نغضا وزفيرا نسمع زفرها من مسيرة خمسمائة عام ، وكل واحد حتى الأنبياء يقول : نفسي نفسي إلا صفى الأنبياء ﷺ فإنه يقول : أمتي أمتي ، وتخرج من الجحيم نار مثل الجبال فتجهد أمة محمد ﷺ في دفعها ونقول يا نار بحق المصلين وبحق المصدقين وبحق الخاشعين وبحق الصائمين أن ترجعي فلا ترجعي وينادي جبريل - عليه السلام - أن النار قصدت أمة محمد ﷺ ثم بأني بقدر من ماء فيناوله رسول الله ﷺ ويقول : يا رسول الله خذ هذا فرشه عليها فيرشه عليها فتطفا في الحال فيقول ﷺ ما هذا فيقول : جبريل - عليه السلام - هذا ماء دموع عصاة أمتك الذين بكوا من خشية الله تعالى فالآن أمرت أن أعطيك لترشه على النار فتطفا النار باذن الله تعالى .

وكان ﷺ يقول : « اللهم ارزقني عينين تبكيان من خشيتك قبل أن لا يكون الدمع » ^(٢)

أعني هلا تبكيان على ذنبي تنائر عمري من يدي ولا أدري

حكى عن محمد بن المنذر - رحمه الله تعالى - أنه كان إذا بكى يمسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع ، فينبغي للمؤمن أن يخاف من عذاب الله وينهى نفسه عن الشهوات النفسانية كما قال الله تعالى : « فأما من طفئ » ^(٣) وأثر الحياة الدنيا « فإن الجحيم هي المأوى » ^(٤) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى « فإن الجنة هي المأوى » ^(٥) « ومن أراد أن ينجو من عذاب الله وينال ثوابه ورحمته فليصبر على شدائد الدنيا وطاعة الله ويجتنب المعاصي .

وفي زهر الرياض : روى عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة تنلقاهم الملائكة بكل خير ونعمة فنوضع لهم المناير وتفرش ويؤنى لهم بالوان الأطعمة والفواكه وتكون فيهم مع هذه النعمة حيرة فيقول الله : « يا عبادي ما هذه الحيرة وليست هذه دار حيرة » ؟ فيقولون : إن لنا موعدا قد جاء وقته . فيقول الله تعالى : « ارفعوا الحجب عن الوجوه » فتقول الملائكة : يا ربنا كيف يرونك وقد كانوا عصاة ؟ فيقول الله تعالى : « ارفعوا الحجب فانهم كانوا ذاكرين

(١) آية (٢٨) سورة الجاثية .

(٢) (ضعيف) حلية الأولياء ٢ / ١٩٦ - ١٩٧ ، وضعيف الجامع (١١٧٣) ، والضعيفة (٢٩٠٥) .

(٣) آية (٣٧ - ٤١) سورة النازعات .

(٢) آية (٤٤) سورة المائدة .

(١) إنحاف السادة المتقين ١٠ / ٢٧٧ .

(٣) آية (١٧٥) سورة آل عمران .

ساجدين باكين في الدنيا طمعا في لقائي « فترفع الحجب فينظرون فيخرون سجد لله - عز وجل - يقول الله تعالى : « ارفعوا رؤوسكم فإن هذه ليست بدار العمل بل دار الكرامة » فيتجلى لهم بلا كيف ويقول لهم انبساطا « سلام عليكم عبادي فقد رضيت عنكم فهل رضيتم عني » فيقولون وما لنا يا ربنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهو قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٢)

الباب الثالث

في الصبر والعرض

من أراد أن ينجو من عذاب الله ويثاب ثوابه ورحمته ويدخل جنته فلينه نفسه عن شهوات الدنيا وليصبر على شدائد ما ومصائبها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) والصبر على أوجه : صبر على طاعة الله ، وصبر عن محارمه ، وصبر على المصيبة وعند الصدمة الأولى

فمن صبر على طاعة الله تعالى أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثلاثمائة درجة في الجنة كل درجة ما بين السماء والأرض ، ومن صبر عن محارم الله أعطاه الله تعالى يوم القيامة ستمائة درجة كل درجة مثل ما بين السماء السابعة والأرض السابعة ، ومن صبر على المصيبة أعطاه الله تعالى يوم القيامة سبعمائة درجة في الجنة كل درجة ما بين العرش إلى الثرى .

روى عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « ما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بي إلا أعطيته قبل أن يسألني وأستجب له قبل أن يدعوني ، وما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بمخلوق دوني إلا أغلقت أبواب السماء عنه » فيجب على العاقل أن يصبر للبلاء ولا يشكو فينجو من عذاب الدنيا والآخرة ، لأن أشد البلاء على الأنبياء والأولياء .

قال الجنيد البغدادي - رحمه الله - : البلاء سراج العارفين ويظفة المريدين وصلاح المؤمنين وهلاك الغافلين ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء ويرضى ويصبر .

وقال ﷺ : « من مرض ليلة فصبر ورضى عن الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا مرضتم فلا تمنعوا العافية » (٤) .

قال الضحاك من لم يثقل بين كل أربعين ليلة ببلية أو هم أو مصيبة فليس له عند الله خير .

(١) آية (١١٩) - سورة المائدة -

(٢) آية (٥٨) - سورة يس -

(٣) آية (٤) - سورة الشريعة ٢/ ٣٠٦ بنحوه .

(٤) آية (١٤٦) - سورة آل عمران -

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : إذا ابتلى العبد المؤمن بالسقم قال لصاحب الشمال ارفع القلم عنه وقال لصاحب اليمين اكتب لعبدي أحسن ما كان يعمل .

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ : « إذ مرض العبد بعث الله إليه ملكا فقال انظرا ما يقول لعبدي فإن هو قال الحمد لله رفع ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول لعبدي على إن أنا توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شففته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن أكفر عنه سيئاته » (١) .

حكى أنه كان في بني اسرائيل رجل فاسق وكان لا يمتنع عن الفسق حتى ضج أهل بلده وعجزوا عن منعه عن فسقه فتضرعوا إلى الله تعالى فأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - أن في بني اسرائيل شيئا فاسقا ، فأخرجه من بلدهم حتى لا تقع عليهم النار بسبب فسقه ، فجاء موسى - عليه السلام - فأخرجه فذهب الشاب إلى قرية من القرى فأمر الله موسى أن يخرج من تلك القرية فأخرجه موسى - عليه السلام - فخرج إلى مفازة ليس فيها خلق ولا زرع ولا وحوش ولا طيور فمرض في تلك المفازة وليس عنده معين يعينه فوقع على التراب ووضع رأسه عليه وقال لو كانت والدتي عند رأسي لرحمتني ولبكت على مذلتى ، ولو كان والدي حاضرا لأعانتى وتولى أمرى ، ولو كانت زوجتى حاضرة لبكت على فراقى ، ولو كان أولادى حاضرين عندى لبكوا خلف جنزى ولقالوا اللهم اغفر لوالدنا الغريب الضعيف العاصى الفاسق المطرود من بلده إلى قرية ومن القرية إلى مفازة ومن المفازة يخرج من الدنيا إلى الآخرة آيسا من كل الأشياء .

اللهي قطعنى عن والدى وأولادى وزوجتى فلا تقطعننى من رحمتك فإنك أحرقت قلبى بفراقهم فلا تحرفنى ببارك لأجل معصيتى ، فأرسل الله تعالى له حوراء على صفة أمه وحوراء على صفة زوجته وغلما على صفة أولاده ، وملكا على صفة والده فجلسوا عنده وبكوا عليه فقال : إن هذا والدى ووالدتى وزوجتى وأولادى حضروا عندى وطاب قلبه ، ووصل إلى رحمة الله تعالى طاهرا مغفورا له ، فأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - إذهب إلى مفازة كذا وموضع كذا فإنه مات ولى من الأولياء فأحضره وتول أمره وواراه ، فلما حضر موسى - عليه السلام - ذلك الموضع رأى الشاب الذى كان أخرجه من البلد ومن القرية بأمر الله تعالى ورأى الحور العين حوالبه فقال موسى - عليه السلام - : يا رب أما هذا الشاب الذى أخرجته من البلد ومن القرية بأمرى ؟ فقال الله تعالى يا موسى إني رحمته وتجاوزت عنه بأنيته في موضعه وفراقه وطنه ووالدته ووالده وأولاده وزوجته أرسلت إليه حوراء على صفة والدته وملكا على صفة والده وحوراء على صفة زوجته بترحمون على مذلتى فإنه إذا مات الغريب بكى عليه أهل السموات وأهل الأرض رحمة له ، فكيف لا أرحمه وأنا أرحم الراحمين ؟ !

(١) الموطأ ص (٧١٧) : حديث (٥) .

إذا وقع الغريب في النزاع يقول الله تعالى : يا ملائكتي هذا غريب مسافر ترك أولاده وعياله ووالديه وإذا مات لا يبكي عليه أحد ولا يحزن ثم يجعل الله واحداً من الملائكة على صورة أبيه وواحداً على صورة أمه وواحداً على صورة ولده وواحداً على صورة واحد من أقاربه فيدخلون عليه فيفتح عينه فيرى والديه وعياله فيطيب قلبه وتخرج روحه مع الفرح والسرور .

ثم إذا خیرجت جنازته يشيعونها ويدعون له على قبره إلى يوم القيامة فذلك قوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ (١).

وفال ابن عطاء : يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات البلاء والرخاء فمن شكر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين ولو اجتمع في رجل علم الثقلين ثم هاجت عليه رياح البلاء فأظهر الشكوى لما نزل به لا ينفعه علمه ولا عمله كما جاء في الحديث القدسي يقول الله تعالى : « من لم يرضى بقضائي ولم يشكر لعطائي فليطلب ريا سوائي » (٢).

حكى وهب بن منبه أن نبيا عبد الله خمسين عاما فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك ، فقال يا رب لماذا تغفر لي ولم أذنّب قط ؟ فأمر الله عذقه فضرب عليه ولم ينم تلك الليلة فجاء ملك الصبح فشكا إليه ما لقي من ضربان العرق فقال إن ريك يقول لك عبادة خمسين عاما ما تعدل شكوى هذا العرق .

الباب الرابع

في الرياضة والشهوة النفسانية

أوحى الله إلى موسى - عليه السلام - : يا موسى إن أردت أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ومن وسوسة قلبك إلى قلبك ومن روحك إلى بدنك ومن نور بصرك إلى عينيك ومن سمعك إلى أذنتك فأكثر من الصلاة على محمد ﷺ . قال تعالى : « ولتنظر نفس ما قدمت لغد » يعني ما عملت في يوم القيامة .

اعلم أيها الإنسان أن النفس الأمارة بالسوء هي أعدى لك من إبليس وإنما يتفوق عليك الشيطان بهوى النفس ، وشهواتها فلا تغرنك نفسك بالأمانى والغرور ، لأن من طبع النفس الأمن والغفلة والراحة والفترة والكسل فدعواها باطل وكل شيء منها غرور وإن رضيت عنها واتبعت أمرها هلكت وإن غفلت عن محاسبتها غرقت وإن عجزت عن مخالفتها واتبعت هواها فادنك إلى النار .

(١) آية (١٩) سورة الشورى .

(٢) (ضعيف) تحاف السادة المتقين ٩ / ٦٥١ ، وضعيف الجامع (٥٨٤٢) .

وليس للنفس مرجوع إلى الخير هي رأس البلياء ومعدن الفضيحة وهي خزانة إبليس وماوى كل شر لا يعرفها إلا خالفها ﴿ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني من الخير والشر .

وإذا تفكر العبد فيما مضى من عمره في طلب آخرته كان هذا التفكير غسل القلب كما قال ﷺ « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » (١) كذا في تفسير أبي الليث .

فنبهني للعاقل أن يتوب من الذنوب الماضية ويتفكر فيما بقربه وينجوه في الدار الآخرة ، ويقتصر الأمل ويعجل التوبة ويذكر الله تعالى ، ويترك المناهى ويصبر نفسه ولا يتبع الشهوات النفسانية فالنفس صنم ، فمن عبد النفس يعبد الصنم ومن عبد الله بالإخلاص فهو الذى قهر نفسه .

وروى أن مالك بن دينار كان يمشى في سوق البصرة فرأى التين فاشتتهاء فخلع ثكله وأعطاه إلى البقال وقال أعطنى التين فرأى البقال النمل وقال لا يساوى شيئاً فمضى مالك ، فقيل للبقال أليس تعرف من هذا ؟ قال لا قيل هو مالك بن دينار فحمل البقال الطبق على رأس غلامه وقال له إقبل هذا منى فأبى فقال إقبل فإن فيه تحريرى فقال له مالك بن دينار : إن كان فيه تحريرك ففيه تعذيبى ، فألح الغلام عليه فقال مالك بن دينار حلفت أن لا أبيع الدين بالثين ولا أكل التين إلى يوم الدين .

حكى أن مالك بن دينار مرض مرضه الذى مات فيه فاشتتهى قدحا من العسل واللبن ليشرده فيه رغيفا حارا فمضى الخادم وحمله إليه فأخلده مالك بن دينار ونظر فيه ساعة وقال يا نفس قد صبرت ثلاثين سنة وقد بقى من عمرك ساعة ورمى القدرح من يديه وصبر نفسه ومات . . وهكذا أحوال الأنبياء والأولياء والصادقين والعاشقين والزاهدين .

قال سليمان بن داود - عليه السلام - أن القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة وحده .

وقال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - : ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم كلما ضمهما من جانب انتشرت من جانب آخر ، من أمات نفسه يلف في كفن الرحمة ، ويدفن في أرض الكرامة ، ومن أمات قلبه يلف في كفن اللعنة ويدفن في أرض العقوبة .

قال يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله تعالى - : جاهد نفسك بالطاعة والرياضة فالرياضة هجر المنام وقلة الكلام ، وحمل الأذى من الأنام والقلّة من الطعام ، فيتولد من قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الأفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغابات ، ومن قلة الطعام موت الشهوات لأن في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره ، نور الحكمة الجوع و

(١) (موضوع) تذكرة الموضوعات (١٨٨) ، وضعيف الجامع (٣٩٨٨) .

الشبع يبعد من الله كما قال ﷺ : « نوروا قلوبكم بالجوع وجاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش وأدبوا قلوبكم باب الجنة بالجوع فان الأجر في ذلك كاجر المجاهد في سبيل الله ، وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش ولن يبلغ ملكوت السماء من ملا بطنه وفقد حلاوة العبادات » .

قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - : ما شبت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربي ، وما رويت منذ أسلمت اشتيافا إلى لقاء ربي ، لأن في كثرة الأكل قلة العبادة ، لأنه إذا أكثر الإنسان الأكل ثقل بدنه وغلبته عيانه وفنرت أعضاؤه فلا يحى منه شيء وإن اجتهد إلا النوم فيكون كالجيفة الملقاة - كذا في منهاج العابدين .

عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه : لا تكثر النوم والأكل فان من أكثر منهما جاء يوم القيامة مفلسا من الأعمال الصالحة . . كذا في منية الفنى .

وقال ﷺ : « لا تمجنوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزروع اذا كثر عليه الماء » . (١)

ولقد شبه ذلك بعض الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلى والبخار يصل إليه فكثرة البخار تكدره وتسوده وفي كثرة الأكل قلة الفهم والعلم فإن البطنة تذهب الفطنة .

حكى عن يحيى بن زكريا - عليه السلام - أن إبليس بدا له وعليه معاليق فقال له يحيى ما هذه قال الشهوات التى أصيد بها بنى آدم قال يحيى : هل تجد لى فيها شيئا قال : لا إلا أنك شبت ذات ليلة فتقلت عن الصلاة ، قال يحيى - عليه السلام - : لا جرم أنى لا أشبع أبدا . فقال إبليس لا جرم أنى لا أنصح أحدا أبدا . فهذه فيمن لم يشبع فى عمره الا ليلة فكيف بمن لا يجوع فى عمره ليلة ثم يطعم فى العبادة .

حكى أيضا عن يحيى بن زكريا - عليه السلام - أنه شبع مرة من خبز شعير فنام تلك الليلة عن ورده فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى هل وجدت دارا هي خير لك من داوى أو وجدت جوارا هو خير لك من جوارى ، وعزنى وجلالى لو اطلعت على الفردوس واطلعت على جهنم لبكيت الصديد بدل الدموع وللبست الحديد بدل المروج .

(١) (الفسيفة (٧٢١) ، وتذكره الموضوعات (١٥١) .

الباب الخامس

فى غلبه النفس وعداوة الشيطان

ينبغى للعاقل أن يجمع شهوة النفس بالجوع إذا الجوع فهو لعدو الله ، قال ﷺ : الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقتوا مجاريه بالجوع ^(١) ، إن أقرب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه وعطشه ، وأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيها أخرج آدم وحواء من دار الفراو إلى دار اللذ والافتقار ، اذ نهاهما عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلتا نبتت لهما سواتهما . والبطن على التحيق ينبوع الشهوات .

وفال بعض الحكماء : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها محصورا فى سجن هفواتها ، ومنعت قلبه من الفوائد ، من سقى أرض الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجرة الندامة .

إن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضروب خلق الملائكة وركب فيهم العقل ولم يركب فيهم الشهوة ، وخلق البهائم وركب فيها الشهوة ولم يركب فيها العقل ، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة ، فمن غلبت شهوته غفله فالبهائم خير منه ، ومن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة .

حكاية : قال إبراهيم الخواص : كنت فى جبل للكام فرأيت وماتا فاشتبهت فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركت الرمان فرأيت وجلا مطروحا قد أجمعت عليه الزنابير فقلت : السلام عليك فقال لى : عليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : من أين عرفتى فقال : من عرف الله لا يخفى عليه شيء فقلت أرى لك مع الله حالا فهلا سأله أن ينجيك من هذه الزنابير ؟ فقال إنى أرى لك من الله حالا فهلا سأله أن ينجيك من شهوة الرمان فإن الرمان يجد الانسان ألمه فى الآخرة ولذع الزنابير يجد ألمه فى الدنيا ، ولذع الزنابير على النفوس ولذع الشهوات على القلوب . . فمضيت وتركت .

الشهوة تصير الملوك عبيدا ، والصبر يصير العبيد ملوكا ، ألا ترى إلى قصة يوسف - عليه السلام - وزليخا ، فقد صار يوسف سلطان مصر بصبره ، وصارت زليخا ذليلة حفيرة فقيرة عجوزا عماه لأجل شهوتها ، فإن زليخا لم تصبر عن محبة يوسف .

حكى : أبو الحسن الرازى أنه رأى والده فى منامه بعد موته يستبين وعليه ثياب من الفطران فقال يا أبى ما لى أرى عليك هيئة أهل النار فقال يا والذى جذبتنى نفسى إلى النار فاحذر يا ولدى من خديعة نفسك .

(١) (صحيح) أحمد ٣ / ٣٠٩ وصحيح الجامع (١٦٥٨) .

إني ابتليت بباربع : ما سلطو ** إلا لشدة شقوتي وعنائى :

إيلبس والدنيا ونفسى والهوى ** كيف الخلاص وكلهم أعدائى

وأرى الهوى تدعو إليه خواطرى ** فى ظلمة الشهوات والآراء

قال حاتم الأصم رحمه الله : نفسى رباطى ، وعلمى سلاحى ، وذنبى خبيتى والشیطان عدوى ، وأنا بنفسى غادر .

حكى عن بعض أهل المعرفة أنه قال : الجهاد على ثلاثة أصناف : جهاد مع الكفار وهو جهاد الظاهر كالذى فى قوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالِغٍ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذى فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٣) وقوله ﷺ : أفضل الجهاد جهاد النفس .

إن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا إذا رجعوا من جهاد الكفار يقولون رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . وإنما سمو الجهاد مع الهوى والنفس والشیطان أكبر لأن الجهاد معهما أدام وجهاد الكفار يكون فى وقت دون وقت ، لأن الغازى يرى العدو ولا يرى الشيطان ، والجهاد مع عدو يراه أسهل من الجهاد مع عدو لا يراه ، ولأن للشيطان معينا من نفسك وهو الهوى ، وليس للكافر من نفسك معين ، فلذلك كان أشد ، ولأنك إذا قتلت الكافر تجد النصر والغنيمة وإن قتلت الكافر تجد الشهادة والجنة . ولا تقدر أن تقتل الشيطان ، وأن تقتلك الشيطان فى عقوبة الرحمن . كما قيل من فر منه فرسه فى الحرب يقع فى أيدي الكفار ، ومن فر منه الإيمان يقع فى غضب الجبار نعوذ بالله منه ، ومن وقع فى أيدي الكفار لا تغل يده إلى عنقه ولا تقيد رجله ولا يجوع بطنه ولا يعرى بدنه ، ومن وقع فى غضب الجبار يسود وجهه وتغل يده إلى عنقه بالأغلال وتقيد رجله بقيود النار ، ويكون طعامه نارا وشرابه نارا ولباسه من نار .

الباب السادس

فى الغفلة

الغفلة تزيد الحسرة ، الغفلة تزيل النعمة ، وتحجب عن الخدمة ، الغفلة تزيد الجسد ، الغفلة تزيد الملامة والتندمة .

(١) آية (٥٤) سورة المائدة .

(٢) آية (١٢٥) سورة النحل .

(٣) آية (٦٩) سورة العنكبوت .

حكى أن بعض الصالحين رأى أستاذه فى المنام فسأله أى الحسرة أعظم عندكم فقال حسرة الغفلة . وروى أن بعضهم رأى ذا النون المصرى فى منامه فقال له ما فعل الله بك فقال أوقفنى بين يديه وقال لى يا مدع يا كذاب ادعيت محبتى ثم غفلت عنى .

أنت فى غفلة وقلبك ساهى ** ذهب العمر والذنوب كما هى

حكى أن رجلا من الصالحين رأى والده فى منامه فقال يا أبت كيف أنت وكيف حالك فقال له يا ولدى عشنا فى الدنيا غافلين ومتنا غافلين .

وفى زهر الرياض كان يعقوب - عليه السلام - مؤاخيا لملك الموت فزاره فقال له يعقوب يا ملك الموت أزارأ جئت أم قابضا روحى ، فقال بل زائرأ قال فإنى أسألك حاجه قال : وما هى قال : أن تعلمنى إذا دنا أجلى وأردت أن تقبض روحى فقال نعم أرسل إليك رسولين أو ثلاثة ، فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال أزارأ جئت أم لقبض روحى فقال لقبض روحك فقال أولست كنت أخبرتنى أنك ترسل إلى رسولين أو ثلاثة قال قد فعلت يياض شعرك بعد سواده . وضعف بدنك بعد قوته ، وانحناء جسمك بعد استقامته ، هذه رسلى يا يعقوب إلى بنى آدم قبل الموت .

مضى الدهر والأيام والذنب حاصل ** وجاء رسول الموت والقلب غافل

نعيمك فى الدنيا غرور وحسرة ** وعيشك فى الدنيا محال وباطل

قال أبو على الدقاق دخلت على رجل صالح أعوده وهو مريض وكان من المشايخ الكبار وحوله تلاميذه وهو يبكى وقد بلغ أرذل العمر فقلت له أيها الشيخ مم بكأوك أعلى الدنيا ؟ فقال : كلا بل أبكى على فوت صلاتى ، قلت : وكيف ذلك وقد كنت مصليا ؟ قال لأنى قد بقيت يومى هذا وما سجدت إلا فى غفلة ولا رفعت رأسى إلا فى غفلة وما أنا أموت على الغفلة ثم أنه تنفس الصعداء وأشد بقول :

تفكرت فى حشرى ويوم قيامتى ** واصباح خسدى فى المقابر ناويا

فريدا وحيدا بعد عز رفعة ** رهيبنا بجرمى والتراب وساديا

تفكرت فى طول الحساب وعرضه ** وذل مقامى حين أعطى كتابيا

ولكن رجائى فيك ربى وخالقى ** بأنك نعفر يا إلهى خطايا

وفى عيون الأخيار ذكر عن شقيق البلخى أنه قال : الناس يقولون ثلاثة أقوال وقد تألفوها فى أعمالهم : يقولون نحن عبيد الله وهم يعملون عمل الأحرار وهذا خلاف قولهم . ويقولون

أن الله كفيل بأرزقنا ولا تطمنن قلوبهم إلا بالدنيا ، وجمع حطامها : وهذا أيضا خلاف قولهم .
ويقولون لا بد لنا من الموت وهم يعملون أعمال من لا يموت وهذا أيضا خلاف قولهم .

فانظر لنفسك يا أخى بأي بدن تقف بين يدي الله تعالى وبأي لسان نجيبه ، وماذا تقول إذا سألك عن القليل والكثير ، فأعد للسؤال جوابا وللجواب صوابا ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون أى من الخير والشر ، ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره ويأتوا بحدوده فى السر والعلاية

جاء فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال : « مكتوب على ساق العرش أنا مطيع من أطاعنى ومحب من أحببنى ومجيب من دعائى وغافر لمن استغفرنى » (١) ، فينبغى للعاقل أن يطيع الله بالخوف والإخلاص فى طاعته والرضا بقضائه والصبر على بلائه وبالشكر على نعمائه والقناعة بإعطائه بقول الله تعالى : من لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر على نعمائى ولم يقنع ببعثائى فليطلب ربا سوانى (٢) .

وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله : إني لا أجد للطاعة لذة فقال له لعلك نظرت فى وجه من لا يخاف الله .

العبودية أن تترك الأشياء كلها لله .

وقال رجل لأبى يزيد رحمه الله إني لا أجد للطاعة لذة فقال لأنك تعبد الطاعة ولا تعبد الله أعبد الله حتى تجهد للطاعة لذة .

حكى أن رجلا دخل فى الصلاة فلما انتهى إلى قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ (٣) خطر بباله أنه عابد لله فى الخفية فنودى فى السر كذبت إنما تعبد الخلق فناب واعتزل الناس ، ثم شرع فى الصلاة فلما انتهى إلى قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ نودى كذبت إنما تعبد مالك فتصدق بماله كله ، ثم شرع فى الصلاة فلما انتهى إلى قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ نودى كذبت إنما تعبد ثيابك فتصدق بها إلا ما لا بد له منه ، ثم شرع فيها فلما انتهى إلى قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ نودى الآن صدقت إنما تعبد ربك .

وفى روتن المجالس : ضاع لرجل جوالق فلم بدر من أخذها منه فلما دخل فى الصلاة تذكره فلما سلم قال لغلامه اذهب إلى فلان ابن فلان واسترد منه الجوالق فقال له الغلام متى ذكرته فقال حين كنت فى الصلاة فقال با مولاى كنت طالب الجوالق لا طالب الخالق ، فأعنته مولا بركة اعتفاده .

وينبغى للعاقل أن يشرك الدنيا ويعبد الله وينفكر أمامه ويريد الآخرة ، كما قال الله

(٢) - سر سريجه

(١) - مسند أبى يعقوب : ١٥٥
١٥١٠ - أسد غنىة

تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ (١) أى ملاذها من لباسها وطعامها وشرابها ﴿ نؤتيه منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ بأن يتزع من قلبه حب الآخرة ، ولذلك أنفق أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - على النبى ﷺ أربعين ألف دينار فى السر وأربعين ألف دينار فى العلانية حتى لم يبق له شئ ، وكان ﷺ معرضا عن الدنيا وشهواتها ولذاتها هو وأهله ، ولذلك كان جهاز السيدة الزهراء - رضى الله عنها - لما زوجها النبى ﷺ من على جلد كبش مدبوغ ووسادة آدم حشوها ليف .

الباب السابع

فى نسيان الله تعالى ، والفسق والنفاق

جاءت امرأة إلى الحسن البصرى - رضى الله عنه - فقالت إنه كانت لى ابنة شابة فماتت وأحببت أن أراها فى المنام فجتتك كى تعلمنى ما أسئعن به على رؤيتها فعلمها فرأتها وعليها لباس من فطران وفى عنقها الغل وفى رجلها القيد فأخبرت الحسن بذلك فاعتم ، ومضت مدة ثم رآها الحسن فى الجنة وعليه رزسها تاج فقالت يا حسن بذلك أما تعرفنى أنا ابنة المرأة التى أمتك وقالت لك كذا فقال لها ما الذى صبرك إلى ما أرى ؟ قالت مر بنا رجل فصلى على النبى ﷺ مرة وكان فى المقبرة خمسمائة وخمسون إنسان فى العذاب فنودى إرفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل . بصلاة رجل على محمد ﷺ أصابتهم المغفرة فمن يصلى عليه منذ خمسين سنة أفلا يجد شفاعته يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تكونوا ﴾ أى فى المعصية ﴿ كالكافرين ﴾ يعنى المنافقين الذين ﴿ نَسُوا الله ﴾ (٢) يعنى تركوا أمر الله وفعلوا خلافه وتلذذوا بشهوات الدنيا وركنوا إلى غرورها .

وسئل رسول الله ﷺ عن المؤمن والمنافق فقال : « إن المؤمن همه فى الصلاة والصيام والمنافق همه فى الطعام والشراب كالبهيمة وترك العبادة والصلاة ، والمؤمن مشغول بالصدقة وطلب المغفرة ، والمنافق مشغول بالحرص والأمل ، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله ، والمنافق راج كل أحد إلا الله ، المؤمن يقدم ماله دون دينه ، والمنافق يقدم دينه دون ماله ، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله ، والمؤمن يحسن ويبيكى ، والمنافق يسئ ويضحك ، والمؤمن يحب الوحدة والخلو ، والمنافق يحب الخلطة والملا ، والمؤمن يزور ويخشى الفساد ، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد ، والمؤمن يأمر وينهى سياسة دينية ويصلح ،

(٢) آية (١٩) سورة الحشر

(١) آية (٢٠) سورة الشورى .

والمنافق يأمر وينهى ويأبى ويفسد ، بل يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف كما قال الله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٧) . وعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ نَسِيَهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (٢) الآية . . . يعني إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم فبدأ بالمنافقين لأنهم شر من الكفار وجعل لأوهم جميعا النار وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (٣) الآية . . . والمنافق اشتقاقه في اللغة نفاقه اليربوع ويقال إن لليربوع حجرين أحدهما النافق والآخرى القاصعاء فيظهر نفسه في أحدهما ويخرج من الأخرى ، ولهذا سمي المنافق منافقا ، لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم ويخرج من الإسلام إلى الكفر .

وفي الحديث : « مثل المنافق كمثل الشاة ترى بين قطيعين من الغنم تارة تسير إلى هذا لقطيع وتارة إلى هذا القطيع ولا تسكن لواحد منهما لأنها غريبة ليست منهما » (٤) وكذلك المنافقين لا يستقر مع المسلمين بالكلية ولا مع الكافرين .

إن الله خلق النار ولها سبعة أبواب كما قال الله تعالى : ﴿ نَهَا سَبْعَةَ أَبْوَابٍ ﴾ (٥) الآية . . . من حديد مطبقة باللغة وعليها ظهارة النحاس ويطانة الرصاص في أصلها العذاب وفوقها السخط وأرضها من نحاس وزجاج وحديد ورصاص ، النار من فوق أهلها والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم ، طبقتها بعضها فوق بعض أعد للمنافقين منها الدرك الأسفل .

وجاء في الخبر أن جبريل أنى النبي ﷺ فقال : « يا جبريل صف لى النار وحرها فقال : إن الله عز وجل خلق النار فأوقدها ألف عام حتى احمرت ثم أوقدها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة والذي يبعثك بالحق نبيا لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماثوا جميعا ولو أن دلو من شربها صب على ماء الأرض جميعه لقتل من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا تَأْتِيكُمُوهَا ﴾ (٦) الآية . . . كل ذراع طوله من المشرق إلى المغرب ولو وضع على جبال الدنيا للثابت ولو أن رجلا دخل النار ثم أخرج منها لمت أهل الأرض من نزع وجهه » (٧) .

« وسأل جبريل فقال يا جبريل صف لى أبواب جهنم أمى كأبوابنا هذه فقال يا رسول الله

(١) آية (٦٧-٦٨) سورة التوبة

(٣) آية (١٤٥) سورة النساء .

(٥) آية (٤٤) سورة الحجر .

(٧) (ضعيف) الصعيفة (٩١٠) .

(٢) آية (١٤٠) سورة النساء

(٤) (صحيح) مسلم بنحوه (٢٧٨٤) .

(٦) آية (٣٢) سورة الحاقة .

(١) آية (١٤٥) سورة النساء .

(٣) آية (٨) سورة التحريم .

(٢) آية (٧١) سورة مريم .

لا ولكنها طباق بعضها أسفل من بعض ، من الباب إلى الباب مسيرة سبعين سنة كل باب منها أشد حرا من الذى يليه بسبعين ضعفا . وسأله أيضا عن سكان هذه الأبواب فقال أما الأسفل ففيه المنافقون واسمه الهاوية كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) والباب الثانى فيه المشركون واسمه الجحيم ، والباب الثالث فيه الصابئون واسمه سفر ، والباب الرابع فيه إبليس - عليه اللعنة - ومن تبعه من المجوس واسمه لظى ، والباب الخامس فيه اليهود واسمه الخطمة والباب السادس فيه النصارى واسمه السعير ، ثم أمسك جبريل - عليه السلام - فقال له رسول الله ﷺ لم تخبرنى عن سكان الباب السابع فقال جبريل : يا محمد لا تسألنى عنه فقال له : أخبرنى عنه فقال فيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا »

روى أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (٢) اشتد خوفه ﷺ على أمته ويكى بكاء شديدا فالعارف بالله وبشدته سطوته وفهره بخافه خوفا شديدا ويكى على نفسه وتفرطه قبل أن يرى هذه الشدائد ويعاين هذه الدار المخوفة وقبل أن تنتهك الأسناد ويعرض على المتقم الجبار ويؤمر به إلى النار .

فكم من شيخ ينادى فى النار واشبيته ، وكم من شاب ينادى فى النار واشباباه ، وكم من امرأة فى النار تنادى وافضيحتاه واهتك ستره ، وقد سودت وجوههم وأجسادهم وانكسرت ظهورهم فلا يكرم كبيرهم ولا يرحم صغيرهم ولا تستر نساؤهم .

اللهم أجبرنا من النار ومن عذاب النار ومن كل عمل يقربنا إلى النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار برحمتك يا عزيز يا غفار ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا وأقلنا من عثراتنا ، ولا تفضحنا بين يديك يا أرحم الراحمين .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن

فى التوبة

التوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة ، قال الله تعالى : ﴿ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ (٣) والأمر للوجوب . وقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ يعنى عاهدوا الله ونبذوا كتابه

• ظهورهم « فأنساهم أنفسهم » يعنى أنساهم حالهم حتى لم ينهوا أنفسهم ولم يقدموا لها خيراً
 قال ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » (١) ﴿ وَأُوتِيتُ
 مِنَ الْغَنِيِّ ﴾ (٢) يعنى العاصون النافضون عهدهم ، أى الخارجون عن طريق الهداية والرحمة
 بمعفرة ، والفاسق على نوعين فاسق كافر وفاسق فاجر ، فالفاسق الكافر هو من لم يؤمن بالله
 يسئله وخرج عن الهداية ودخل فى الضلالة كما قال الله تعالى : ﴿ فَتَقَعُ عَنْ أُمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٣) يعنى
 حرج عن طاعة أمر ربه بالإيمان ، والفاسق الفاجر هو الذى يشرب الخمر ويأكل الحرام ويزنى
 يعصى الله تعالى ويخرج من طريق العبادة ويدخل فى المعصية ولا يأتى بالشرك .

والفرق بينهما أن الفاسق الكافر لا يرجى غفرانه إلا بالشهادة والتوبة قبل موته ، والفاسق
لتأخر يرجى غفرانه بالتوبة قبل الموت ، فإن كل معصية أصلها من الشهوة النفسانية يرجى
غفرانها وكل معصية أصلها من الكبر لا يرجى غفرانها .
ومعصية إبليس كان أصلها من الكبر .

فَينبغي لك أن تتوب من ذنوبك قبل الموت رجاءً أن يغفر الله لك ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٤) الآية .. . يعني يتجاوز عما عملوا بقبوله التوبة . وقال ﷺ : « النّاس من الذّنوب كمن لا ذنب له » (٥)

حكى أن رجلاً كان كلما أذنّب يكنّب ذنبه في ديوان فأذنّب يوماً فقتل ديوانه لبكتب فيه فلم يجدّه إلا قوله تعالى : ﴿ فَأَوْتَلِكُ يَذَلُ اللَّهُ سَجَاتِهِمْ حَقَاتٍ ﴾ (١) الآية . . . بمعنى يدل مكان الشرك الإيمان ، ومكان المعصية العصمة والطاعة .

وحكى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- مر وقتا من الأوقات فى سكك المدينة فاستقبله شاب وهو حامل فارووة تحت ثيابه فقال عمر أيها الشاب ما الذى تحمل تحت ثيابك وكان خمرًا ، مخجل الشاب أن يقول خمرًا وقال فى سره الهى لا نخجلنى عند عمر ولا نفضحنى واسترئى عنه فلا أشرب الخمر أبدا ، ثم قال يا أمير المؤمنين الذى أحمل هو خيل ، فقال أرئى حتى أراها تكشفها بين يديه فرأها عمر صارت خلا .

فانظر إلى مخلوق تاب من خوف مخلوق فبدل الله سبحانه وتعالى خمره بالخل لما علم منه

١ صحیح (البخاری) (٦٥٠٨) .

(٢) آية (١٩) سورة الحشر .

- آية (٢٠) سورة الكهف .

(١) آية (٢٥) سورة الشورى .

۴: حنین (این ماجرا) (۱۲۹۰) و صبح اجامع (۲۰۰۸)۔

• جزء (٧٠) سورة الفرقان .

إخلاص التوبة ، فلو ناب العاصي المفلس عن الأعمال الفاسدة نوبة نصوحا وندم على ذنبه بدل الله سبحانه وتعالى ، خمر ميثانه بخل الطاعة .

وذكر عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : خرجت ذات ليلة بعدما صليت العشاء الآخرة مع رسول الله ﷺ فإذا أنا بامرأة في الطريق فقالت يا أبا هريرة إني ارتكبت ذنبا فهل لي من توبة فقلت ما ذنبك ؟ قالت إني زنيته وفنلت ولدي من الزنا ، فقلت لها هلكت وأهلك ، والله مالك من توبة فخرت مغشبا عليها فمضيت ، فقلت في نفسي أفني ورسول الله ﷺ بين أظهرنا فرجعت إليه فأجبرته بذلك فقال هلكت وأهلك فأبين أنت من هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَوْفَتْكِ يُذِلُّ اللَّهُ سَبَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ^(١) الآية . . فخرجت وفلت من بدلتني على امرأة سألتني مسألة والصبيان يقولون جن أبو هريرة حتى أدركنها وأخبرنها بذلك فشبهت شهقة من السرور وقالت إن لي حديدة جعلتها صدقة لله ورسوله .

حكاية : عن عتبة الغلام - رحمه الله تعالى - وكان من أهل الفسق والفجور مشهوراً بالفساد وشرب الخمر فدخل يوماً في مجلس الحسن البصري وهو يقرأ في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١٦) يعنى ألم يجيء وقت نخاف قلوبهم ؟ فوعظ الشيخ في تفسيره هذه الآية وعظاً بليغاً حتى أبكى الناس ، فقام من بينهم شاب فقال ياتنى المؤمنين أيقبل الله الفاسق الفاجر مثلى إذا تاب ؟ فقال الشيخ نعم يقبل الله توبة نفسك وفجورك فلما سمع عتبة الغلام هذا الكلام اصفر وجهه واونعدت فرائضه فصاح صبيحة فخر مغشياً عليه فلما أفاق دنا منه الحسن وقال الأبيات :

أيا شأبا للرب العرض علفص * * أندري ما جزاء ذوى المعاصى

سَمِعَ لِلْعَصَاةِ لَهَا زَنْبُورٌ * * وَغِيْظٌ بِوَسْمٍ يُوْخَذُ بِالنَّوَاصِي

فان تصبر على النيران فاعصمه ** ولاكن عن العصيان قاصي

وفيما قد كسبت من الخطايا * * * رهنبت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح عتبة صيحة عظيمة وخر مغشيا عليه ، فلما أفاق قال يا شيخ هل يقبل الرب الرحيم نوبة مثلى التنبؤ ؟ فقال الشيخ هل يقبل نوبة العبد الجاني إلا الرب المعافي ؟ ثم رفع رأسه ودعا ثلاث دعوات : الأولى قال إلهي إن كنت قبلت نوبتي و غفرت ذنوبي فأكرمني بالفهم والحفظ حتى أحفظ كل ما سمعت من العلم والقرآن ، والثانية قال إلهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كل من سمع فرائدي يزداد رقة في قلبه وإن كان فاسي القلب ، والثالثة قال إلهي أكرمني بالرزق

(١) آية (٦٨ - ٧٠) سورة التفرقان .

(٢) آية (١٦) سورة الحديد .

حرون. واذقنى من حيث لا أحسب . فاستجاب الله جميع دعائه حتى زاد فهمه وحفظه وكان يقرأ القرآن ناب كل من سمع قراءته ، وكان يوضع فى بيته كل يوم فصعة من المرق ورغيفان ولا يبرى أحد من يعضها وكان على هذه الحال حتى فارق الدنيا .

وهذا حال من أناب إلى الله تعالى ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وسئل بعض العلماء هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت ؟ فقال لا حكم فى ذلك ولكن لذلك علامات أن يرى نفسه معصومة من المعصية ، ويرى الفرج عن قلبه غائبا والرب شاعدا ، ويقارب أهل الخير ويباعد أهل الفسق ، فيرى القليل من الدنيا كثيراً والكثير من عمل الآخرة قليلا ، ويرى قلبه مشغولا بما فرض الله تعالى عليه ، ويكون حافظا للسانه دائم الفكرة ملازم الغم والندامة على ما فرط من ذنوبه .

الباب التاسع

فى المحبة

ذكر أن رجلاً رأى صورة قبيحة فى البادية فقال : من أنت ؟ قالت : أنا عمك القبيح قال : قد أتتجاة منك قالت الصلاة على النبي ﷺ كما قال ﷺ « الصلاة على نوء على الصراط ومن صلى على يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين عاماً » (١) .

وحكى أن رجلاً كان غافلاً عن الصلاة على سيدنا محمد فرأى النبي ﷺ ليلة فى المنام ولم يمت إليه فقال يا رسول الله أنت على غضبان ؟ قال لا قال فلم لا تنظر إلى قال لأنى لا أعرفك . فقال كيف لا تعرفنى وأنا رجل من أمتك وقد روى العلماء أنك أعرف بأمتك من الوالدة بالولد . فذكر صدقوا ولكن إنك لا تذكرنى بالصلاة ، وأن معرفتى بأمتى يقدر صلاتهم على ثم اتبه الرجل وتوحد على نفسه أن يصلى على النبي ﷺ كل يوم مائة مرة ففعل ذلك ثم رآه بعد ذلك فى المنام فذكر أنك الآن واشفع لك ، أى لأنه صار محباً لرسول الله . انتهى .

ذكر الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ (٢) الآية . . سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما دعا من الأشراف وأصحابه إلى الإسلام قالوا نحن فى المنزلة أبناء الله ونحن أشد حبا لله . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ على دينى فأتى رسول الله ﷺ أودى رسالته إليكم .

صحيح جداً (ضعيف الجامع (٣٥٦٤) ، والضعيف (٣٨٠٤) .

سورة آل عمران .

وحبته عليكم ﴿ يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته وإبتغاء مرضاته ، وحب الله للمؤمنين شأؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته وعصمته وتوفيقه .

قال الإمام فى إحيائه من ادعى أربعاً من غير أربع فهو كذاب : من ادعى حب الجنة ولم يعمل بالطاعة فهو كذاب ، ومن ادعى حب النبي ﷺ ولم يحب العلماء والفقراء فهو كذاب ، ومن ادعى الخوف من النار ولم يترك المعاصى فهو كذاب ، ومن ادعى حب الله تعالى وشكا من البلوى فهو كذاب ، كما قالت وابعة :

تعصى الإله وأنت تظهر حبيب ** هذا لعمري فى القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعت ** إن المحب لمن يحب مطيع

وعلاوة المحبة موافقة المحبوب واجتناب خلافه .

حكى أن جماعة دخلوا على الشبلى رحمه الله تعالى فقال من أنتم قالوا نحن أحباؤك فأقبل ثم رماهم بالحجارة فهربوا منه فقال لهم تهربون منى لو كنتم أحبائى لما فررت من بلانى ، ثم قال الشبلى رحمه الله أهل المحبة شربوا بكأس الروداد فضاقت عليهم الأوض والبلاد وعرفوا الله حق معرفته وتاهوا فى عظمتهم وتحيروا فى قدرته وشربوا بكأس حبه وغرقوا فى بحر أنسه وتلذذوا بمناجاته ، ثم أنشد :

ذكر المحبة يا مولاي اسكرنى ** وهل رأيت محباً غير سكران

ويقال إن البعير إذا سكر لا يأكل العلف أربعين يوماً ولو حمل عليه أضعاف ما يحمله لحمله لأنه إذا هاج فى قلبه ذكر محبوبه لا يحب العلف ولا يعيا من الحمل الثقيل لاشتيائه الى محبوبه .

فإذا كان من شأن الأبل شهوتها وتحمل الحمل الثقيل لأجل محبوبها فهل أنتم تركتم شهوة محرمة لأجل الله تعالى وهل حملتم على أنفسكم حملاً ثقيلاً لأجل الله تعالى ، فإن لم تفعلوا شيئاً من الخبرات مما ذكرت فدعواكم اسم بلا معنى لا تنفع فى الدنيا ولا فى العقبى ، ولا عند الخلق ولا عند الخالق .

وعن على كرم الله وجهه قال : من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف النار نهى نفسه عن الشهوات ، ومن تبقي الموت هانت عليه اللذات .

وسئل إبراهيم الخواص عن المحبة فقال : محو الإرادات وإحراق جميع الصفات والحاجات وإغراق نفسه فى بحر الإشارات .

الباب العاشر

فى العشق

الحب عبارة عن : ميل الطبع إلى الشيء الملدّ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سعى عشقا ف تجاوز إلى أن يكون رقيقاً لمحبوته ويتفق ما يملك لأجله ألا ترى إلى زليخا بلغ بها من محبة يوسف - عليه السلام - أن ذهب مالها وجمالها وكان لها من الجواهر والفلاند وقر سبعين جملا وقد أنفقها كلها فى محبة يوسف وكل من قال رأى يوسف اليوم أعطته فلانة تغنيه حتى لم يبق لها شيء وكانت تسمى كل شيء باسم يوسف وقد نسبت كل شيء سواه من فرط العشق وإذا رفعت رأسها إلى السماء رأت اسم يوسف مكتوباً على الكواكب .

وروى أنها لما آمنت وتزوجت به - عليه السلام - انفردت عنه وتخلت للعبادة وانفطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل فإذا دعا ليلاً سوفت به إلى النهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفته فما أبقت محبته لمحبة لسواه وما أريد به تجذلاً ، حتى قال لها إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهم نبين فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقاً إليه فطاعتك لأمر الله تعالى فلهذهما سكتت إليه .

وحكى أن مجنون ليلى قبل له ما اسمك قال ليلى وفيل له يوماً أو ماتت ليلى قال إن ليلى فى قلبى لم تجت أنا ليلى ، ومر يوماً على دار ليلى فنظر إلى السماء فقيل له يامجنون لا تنظر إلى السماء ولكن انظر إلى جدار ليلى لعلك تراها قال أنا أكتفى بنجم يقع ظله على دار ليلى .

وحكى عن منصور الخلاج - رحمه الله تعالى - أنهم حبسوه ثمانية عشر يوماً فجاءه الشبل - رضى الله عنه - فقال يا منصور ما المحبة فقال لا تسألنى اليوم وأسألنى غدا فلما جاء الغد وأخرجوه من السجن ونصبوا النطع لأجل قتله ، مر الشبل بين يديه فتأدى ياشبل المحبة أولها حرق وأخرها قتل .

إشارة لما تحقق للحلاج - رضى الله عنه - فى نظره أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وعلم أن الله هو الحق نسي عند تحقق اسم الحق اسم نفسه فستل من أنت قال أنا الحق .

وروى أن صديق المحبة فى ثلاث خصال أن يختار كلام حبيب على كلام غيره ويختار مجالسة حبيب على مجالسة غيره ، ويختار رضا حبيب على رضا غيره . كذا فى المنتهى .

وقيل : العشق هنك الأسرار وكشف الأسرار ، وألوجد عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند حلاوة الذكر ، حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر .

وحكى أن رجلاً كان يغتسل فى الفرات فسمع رجلاً يقرأ ﴿ وَأَمَّا زُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١) فلم يزل بضرب حتى غرق ومات .

وعن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت فى البصرة شاباً على سطح مرتفع فد أشرف على الناس وهو يقول من مات عاشفا قلبت هكذا لا خير فى عشق بلا موت ثم رمى بنفسه فحمل ميتاً .

قال الجنيد - رحمه الله تعالى - : التصرف ترك الاختيار .

وحكى أن ذا النون المصري رحمه الله دخل المسجد الحرام فرأى شاباً عريانياً مطروحاً مريضاً تحت اسطوانة وله أنين من قلب حزين قال فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له من أنت يا غلام قال أنا غريب عاشق فعلمت ما يقول ، قلت وأما مثلك فبكى بأعلى صوته وصاح صيحة عظيمة عالية فخرجت روحه من ساعته فطرحته عليه ثوبى وخرجت من عنده لطلب الكفن فاشترت الكفن ورجعت إليه فلم أجده فى مكانه فقلت سبحان الله فسمعت هاتفا يقول : يا ذا النون إن هذا الغريب الذى طلبه الشيطان فى الدنيا فما وجده وطلبه مالك فلم يره وطلبه رضوان فى الجنة فما وجده ، قلت فأين هو قال فسمعت هاتفا يقول : ﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ (٢) بسبب محبته وكثرة طاعته ونعجيل نوبته . كذا فى زهر الرياض .

وسئل بعض المشايخ عن المحب فقال قليل الخلطة كثيرة الخلوة دائم الفكر ظاهر الصمت ، لا يبصر إذا نظر ولا يسمع إذا نودى ولا يفهم إذا كلم ولا يحزن إذا أصيب بمصيبة وإذا أصيب بجوع فلا درى ، ويعمرى ولا يشعر ويشتم ولا يخشى ، ينظر إلى الله تعالى فى خلوته ويأنس به ويناجيه ، وينازع أهل الدنيا فى دنياهم ، وقد قال أبو نواب النخشى فى علامات المحبة أبياتا :

لا نخدعن فللمحبيب دلائل *** ولذبه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمسر بلانه *** وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمتع منه عطفة مقبولة *** والفسر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه *** طوع الحبيب وإن الح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما *** والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى منفهما *** لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى منفسفا *** منحفضاً من كل ما هو فائل

(١) آية (٥٩) سورة يس . (٢) آية (٥٥) سورة القمر .

حكاية : مر عيسى - عليه السلام - بشاب يسقى يستانا فقال الشاب لعيسى سل ربك أن يرزقني من محبة مثقال ذرة فقال عيسى لا تطيق مقدار ذرة ، فقال نصف ذرة ، فقال عيسى - عليه السلام - يارب أرزقه نصف ذرة من محبتك ، فمضى عيسى - عليه السلام - فلما كان بعد مدة طويلاً ، يحمل ذلك الشاب فسأل عنه فقالوا جن وذهب إلى الجبال ، فدعا الله عيسى - عليه السلام - أن يرزقه إياه فأراه بين الجبال فوجده قائماً على صخرة شامخة طرفه إلى السماء فسلم عيسى - عليه السلام - فلم يرد عليه ، فقال أنا عيسى - وأوحى الله تعالى إلى عيسى كيف يسمع كلام آدميين من كان في قلبه مقدار نصف ذرة من محبتي ، فوعزتي وجلالي لو قطعته بالمنشار لما علم بذلك .

من ادعى ثلاثة ولم يتطهر من ثلاثة فهو مغرور أولها من ادعى حلالة ذكر الله وهو يحب الدنيا ، وثانيها من ادعى محبة الإخلاص في العمل ويحب تعظيم النفس له ، وثالثها من ادعى محبة خالفه من غير إسقاط نفسه .

قال رسول الله ﷺ : « سيأتي زمان على أمتي يحبون خمسا وينسون خمسا : يحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون الخلق وينسون الخالق ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة ، ويحبون القصور وينسون القبور » .

وقال منصور بن عمار لشاب يعظه يا شاب لا يفرحك شبابك فكم من شاب آخر التوبة وأطال الأمل ولم يذكر موته ، فقال إني أتوب غدا أو بعد غد فجاءه ملك للوت وهو غافل عن التوبة فصار في جوف القبر لا ينفعه مال ولا عبد ولا ولد ولا أب ولا أم ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ مَنِينٍ (٨٩) ﴾ .

اللهم أرزقنا التوبة قبل الموت ، ونبهنا عند الغفلة وانفعنا بشفاة نينا خير المرسلين ﷺ .

صفة المؤمن أن يتوب من يومه وساعته ، ويندم على ما فعل من ذنوبه ويرضى بالقوت من الدنيا ولا يشتغل بالدنيا ، بل يشتغل بعمل الآخرة ويعبد الله تعالى بالإخلاص .

حكاية : كان رجل بخيل منافق حلف على زوجته بالطلاق أن لا تصدق بصدقة فجاء سائل على باب داره وقال يا أهل الدار بحق الله ألا أعطيتموني شيئاً فأعطته المرأة ثلاثة أرغفة فاستقبله المنافق وقال من أعطاك هذه الأرغفة قال أعطوني من الدار أحداً شيئاً فقلت أعطيت لأجل الله عز وجل فذهب المنافق وأوقد التنور حتي حمي ، ثم قال قومي فألقي نفسك في التنور لأجل الله ، فقامت المرأة وأخذت حللها فقال المنافق دعي الحلل فقالت المرأة الحبيب يتزين لحبيبه ، وأنا زائرة لحبيبي ثم ألقت نفسها في التنور فأطبق المنافق عليها ومضى ، فلما تم لها ثلاثة أيام جاء المنافق

(١) آية (٨٨ - ٨٩) سورة الشعراء .

ففتح عليها رأس التنور ، فأرى المرأة سالمة بقدرة الله تعالى فتعجب الرجل من تلك الحال فهتف به هاتف يقول ما علمت أن النار لا تحرق أحبائنا .

وحكى أن آسية امرأة فرعون كانت تكتم إيمانها من فرعون فلما اطلع فرعون على إيمانها أمر بها أن تعذب فعذبوها بأنواع العذاب وقال إرتدى فلم ترتد . فأتى بأوتاد وضربوها على أعضائها ثم قال إرتدى ، فقالت إنك تعلم أن نفسي وقلبي في عصمة ربي لو قطعني إربا ما زددت إلا حبا ، فمر موسى - عليه السلام - بين يديها فنادت موسى : أخبرني أراض عني ربي أم ساخط قال موسى - عليه السلام - بأسية ملائكة السموات في انتظارك أي مشتاقة إليك والله يباهي بك فاسأليني حاجتك فإنها مقضية ، فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عَسْكَرًا مِّنَ الْجَنَّةِ وَتَجْنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَتَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وعن سلمان - رضي الله - عنه قال كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها أظلمت الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة .

وعن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وأحجمها وجعل على صدرها رحي واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عَسْكَرًا مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ (٢) الآية . . . قال الحسن فنجها الله أكرم نجاة ورفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب .

وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين ودليل المؤمنين .

الباب الحادي عشر

في طاعة الله ومحبة ومحبته ومحبته رسول الله ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) أعلم رحمك الله أن محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران .

قبل العبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يرى كمالاته من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله لم يكن حبه إلا لله وفي الله ، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحث على طاعته .

(٢) آية (١١) سورة التحريم .

(١) آية (١١) سورة التحريم .

(٣) آية (٣١) سورة آل عمران .

وعن الحسن قال أقوام : على عهد رسول الله ﷺ يا محمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية .

وعن بشر الحافي - رضى الله عنه - قال رأيت النبي ﷺ في المنام فقال بإبش أندرى بم رفعك الله من بين أفرانك قلت لا يا رسول الله قال بخدمتك للصالحين ونصيحتك لأخوانك ومحبتك لأصحابك وأهل ستي واتباعك لستي .

قال ﷺ : « من أحيا ستي فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى يوم القيامة فى الجنة » (١)

وجاء فى الآثار المشهورة أن المتمسك بسنة سيد الخلائق والمرسلين عند فساد الخلق واختلاف المذهب له أجر مائة شهيد كذا فى شرعة الإسلام . وقال « كل أمى يدخلون الجنة إلا من أبى فالوا من أبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى كل عمل ليس على ستي فهو معصية » (٢).

وقال بعضهم لو رأيت شيخا يطير فى الهواء أو يمشى على البحر أو يأكل النار أو غير ذلك وهو يترك فرضا من فرائض الله تعالى أو سنة من السنن عامدا فاعلم أنه كذاب فى دعواه وليس فعله كرامة بل هو استدراج ، نعوذ بالله منه .

قال الجنيد - رحمه الله - ما وصل أحد إلى الله إلا بالله والسبيل إلى الوصول إلى الله متابعة المصطفى ﷺ .

وقال أحمد الحواري - رحمه الله - كل عمل بغير اتباع السنة فباطل كما قال ﷺ من ضيع ستي حرمت عليه شفاعتى . . . كذا فى شرعة الإسلام .

حكى أن رجلا من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروف الكرخي - رحمه الله - فنبس ثم قال يا أخى له محبوبون صغار وكبار وعفلا ومجانين فهذا الذى زائنه من مجانينهم .

وحكى عن الجنيد أنه قال مرض استأذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعنه دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائة فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليها مليا ثم قال أراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووفعت القارورة من يدى ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فنبس ثم قال فائله الله ما أبصره قلت يا أساذ ونبين المحبة فى البول قال نعم .

قال الفضيل - رحمه الله - إذا قيل لك أنجب الله فاسكت فإنك إن قلت : لا كفرت وإن قلت نعم فليس وصفك المحبين فاحذر المقت .

(١) (حسن) الترمذي (٢٦٧٨) .

(٢) (صحيح) البخارى (٧٢٨٠) .

وقال سفيان من حب من يحب الله تعالى فائما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فائما يكرم الله تعالى .

وقال سهل علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى ﷺ ، وعلامة حبه ﷺ حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا ويلغة إلى الآخرة ، قال أبو الحسن الزنجاني أصل العبادة على ثلاثة أركان العين والقلب واللسان ، فالعين بالمعبرة والقلب بالفكرة واللسان بالصدق والتسبيح والذكر كما قال الله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (١) وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ (١) ، بمعنى غدوا وعشيا .

وحكى أن عبد الله وأحمد بن حرب حضرا موصفا فقطع أحمد بن حرب قطعة من خيش الأرض فقال له عبد الله حصل عليك خمسة أشباه شغل قلبك به عن تسبيح مولاك ، وعودت نفسك الاشتغال بغير ذكر الله تعالى ، وجعلت ذلك طريقا يقتدى بك فيه ، ومنعته عن تسبيح ربه وألزمت نفسك حجة الله عز وجل يوم القيامة - كذا فى ووتق المجالس .

وعن السرى - رضى الله عنه - قال : وأيت من الجرجاني سويقا يستف منه فقلت لماذا لا تأكل طعاما غيره ؟ قال إني حسبت ما بين المضغ والاستفاف تسعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة .

وكان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما فإذا دخل ومضان لم يأكل إلا أكلة واحدة ويصبر فى بعض الأوقات عن الطعام سبعين يوما ، وكان إذا أكل ضعف وإذا جاع قوى ، وجاور أبو حماد الأسود فى المسجد الحرام ثلاثين سنة وماروى أنه أكل وشرب ولا يخلو ساعة من ذكر الله .

وحكى أن عمرو بن عبيد كان لا يخرج من منزله إلا لثلاث : للصلاة مع الجماعة ولعبادة المريض ، ولحضور الجنائز . ويقول رأيت الناس سراقا وقطاعا للطريق .

العمر جوهر نفيس لا قيمة له فبئس أن تملا منه خزائن باقية فى الآخرة . واعلموا بأن طالب الآخرة لا بد له من الزهد فى الحياة الدنيا ليصير همه واحدا ، ولا يفترق باطنه من ظاهره ، ولا يمكن حفظ الحال لا بضبط الظاهر والباطن .

وحكى عن إبراهيم الحاكم أنه قال كان أبى إذا جاءه النوم دخل البحر فيسبح فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه .

(١) أية (٤١ - ٤٢) سورة الأحزاب .

وحكى أن وهب بن منبه دعا الله أن يرفع عنه النوم . قيل ففعل

وكن حسن العلاج فبد نفسه من كعبه إلى ركبتيه بثلاثة عشر يسر مع ذلك كل يوم وثنية ألف ركعة وكان الجنيذ يأتي إلى السوق في بداية أمره بفتح ويسر الستر فيصلي أربعمائة ركعة ثم يرجع إلى بيته . وصلى حبشي بن دود مائة يعين : على طهر انعماء .

فينبغي للمؤمن أن يكون دائما على الطهارة وكلما حدث بطله يتعتين ويحتهد أن يستقبل القبلة في كل مجلسه ، ويصور في نفسه أنه جالس بين يدي عسى قدر الحضور والمراقبة حتى يلزم السكينة والوقار في الفعل ويحتمل الأذى ولا يغيب شئ ويستغفر لكل مسيء ولا يعجب بنفسه ولا بعمله فإن العجب من صفة الشيطان وينظر إلى نفسه بعين الحقاوة ويرى الصالحين بعين الاحترام والتعظيم ، فمن ثم يعرف حرمة الصالحين حرمة الله تعالى صاحبهم ، ومن يعرف حرمة الطاعة نزاع من قلبه حلالاتها .

مثل الفضيل بن عياض فقبل له يا أبا علي متى يكون الرجل صالحا قال : يتكلم بالصيحة في بيته والخوف في قلبه والصدق في لسانه والعمل الصالح في جوارحه .

قال الله تعالى في معراج النبي ﷺ يا أحمد أن أحيت أن تكون أرواح النسي فترده في الدنيا وأوغب في الآخرة فقال الهى كيف أزهدي الدنيا فقال خذ من الدنيا بقدر لضعف والشراب واللباس ولا تدخر لحد ودم على ذكرى . فقال يارب كيف أدم على ذكرى . فقال بالخلوة عن الناس وأجعل نومك الصلاة وطعامك الجوع ، وقال ﷺ : « الزهد في شيء يريح القلب والبدن والرغبة فيها تكثر الهم وتخزن ، حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد به ريس كل خير وطاعة » (١) .

وحكى أن بعض الصالحين مر على جماعة فبذ يطيب بصفته الله مقلد معالج الأجسام هل تعالج نفوس : قدر نظيب نعم قدر صف لي داء فقال : ففقد فقسا وجفا ، فهل له من علاج ، فقال نصيب علاجه شفرع والابتهاال الاستعداد وشراف النهار ، والمبادرة إلى ضاعة التعرير مدر ولا عتة إلى الملك به مدرة لقلوب والشفاء من علامه نجيب مدح ترحر نصيب بمضى بالبراءة نصيب نصبت علاج قلبي فقال نصيب هذه مدرة فبذ من ذنب وجه بقلبه إلى الله

وحكى أن رجلا اشترى عذراء فقدر تعذبه يملأ إلى أن ثم سره لا

(١) (ضعيف حرمه شهر وضعيف حرمه (٢١٩٥))

فتمنى عن الصلاة المكتوبة إذا جاء وقتها ، والثاني أن تأمرني بالنهار ماشنت ولا تأمرني بالليل ، والثالث أن نجعل لي منزلا في بيتك لا يدخله غيري ، فقال له الرجل لك هذه الشروط ثم قال الرجل انظر في البيوت فطاف فوجد بيتا خرابا فقال الغلام يا مولاي أما علمت أن الخراب مع الله يسنان ، فكان يخدم مولاه بالنهار ويفترغ بالليل لعبادة ربه سبحانه وتعالى . فبينما هو كذلك إذ طاف مولاه ذات ليلة في الدار فبلغ حجرة الغلام فإذا هي منورة والغلام ساجد وعلى رأسه قنديل من النور معلق بين السماء والأرض والغلام يتأجى ربه وينضرع ويقول الهى أوجبت على حن مولاي وخدمته بالنهار ، ولولا ذلك ما شتغلت ليلي ولا نهاري إلا بخدمتك فاعذرني يا رب ومولاه ينظر إليه حتى انفجر الصبح وود القنديل وانضم سقف البيت فرجع وأخبر أمره بذلك .

فلما كانت الليلة الثانية أخذ بيد أمره وجاء إلى جانب الحجرة فإذا الغلام في السجود والقنديل على رأسه فوقفا إلى الباب ينظران إليه ويكيان حتى أصبحا فدعا الغلام فقال له أنت عتيق لوجه الله تعالى حتى تنفخ لعبادة من كنت نعتذو إليه لرفع يديه إلى السماء وقال :

يا صاحب السر إن السر قد ظهرا * * ولا أريد حباتي بعد ما اشتهرنا

ثم قال الهى أسألك الموت فخر الغلام ميتا .

هكذا أحوال الصالحين والعاشقين والطلابين .

وفي زهر الرياض أن موسى - عليه السلام - كان له صديق بأنس به فقال ذات يوم يا موسى أذع الله أن يعرفني أباه حق معرفته فدعا موسى - عليه السلام - فاستجيب له فلحق صاحبه بالجبال مع الوحوش وفقده موسى فقال يارب أخى ومؤنسى ففدته فضيل له يا موسى من عرفني حق معرفتي لا يصحب مخلوقا أبدا .

وجاء في الأخباو أن يحيى وعيسى - عليهما السلام - كانا بمشيان فصدتهما امرأة فقال يحيى والله ما شعرت بذلك فقال عيسى سبحانه الله سبحانه الله بدتك معى وقلبك أبى ، قال يا بن الخالة لو اطمأن قلبي إلى غير ربي طرفة عين لظننت أنى ما عرفت الله .

ويقال صدق المعرفة أن يطلق الدنيا والعنى ويشجر للمولى ، وأن يسكر من شراب المحبة فلا يصح إلا عند الرؤية فهو على نور من ربه .

الباب الثاني عشر

فى ذكر إبليس وعذابه

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ ^(١) أى أعرضوا عن طاعة الله ورسوله يعنى لا يغفر لهم ولا يقبل توبتهم كما يقبل توبة إبليس لكفره واستكباره . وتاب على آدم - عليه السلام - وقبل توبته لأنه أفر على نفسه بالذنوب وتدم عليه ولا م نفسه وهذا وإن لم يكن ذنبا حقيقة لأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معصومون لا تقع منهم المعصية أبدا لا قبل النبوة ولا بعدها على الصحيح لكنه على صورة الذنب ولذلك قال هو وحواء - عليهما السلام - : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) فندم عليه السلام وأسرع بالتوبة ولم يفتن من رحمة الله تعالى كما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَقْتَتُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

وإبليس لم يفر على نفسه بالذنوب ولم يندم عليها ولم يلم نفسه ولم يسرع بالتوبة وقنط من رحمة الله تعالى وتكبر . فمن كان حاله مثل حال إبليس لم تقبل توبته ، ومن كان مثل حال آدم قبل الله توبته ، لأن كل معصية أصلها من الشهوة فإنه يرجى غفرانها ، وكل معصية أصلها من الكبر فإنه لا يرجى غفرانها ، ومعصية آدم أصلها من الشهوة ، ومعصية إبليس أصلها من الكبر .

حكى أن إبليس جاء إلى موسى - عليه السلام - فقال له : أنت الذى اصطفاك الله برسالتك وكلمك تكليما ؟ فقال له موسى نعم فما الذى تريد يا هذا ومن أنت ؟ فقال إبليس يا موسى قل لربك خلق من خلقك قد سألك التوبة ، فأوحى الله إلى موسى قل له أنى قد استجبت لك فيما سألت ومرة يا موسى أن يسجد لقبر آدم فإذا سجد له قبلت توبته وغفرت له ذنوبه فأخبره موسى فغضب إبليس واستكبر وقال يا موسى أنا لم أسجد له فى الجنة فكيف أسجد له وهو ميت .

روى أن إبليس يشتد عليه العذاب فى النار فيقال له كيف وجدت عذاب الله ؟ فيقول أشد ما يكون فيقال له إن آدم فى رياض الجنة فأسجد له واعتذر حتى يغفر لك فيأبى فيشتد عليه العذاب بقدر عذاب أهل النار سبعين ضعفا .

وجاء فى الخبر أن الله تعالى يخرج إبليس من النار كل مائة ألف سنة ويخرج آدم ويأمره بالسجود له فيأبى ثم يرده إلى النار .

إخوانى أن أردتم النجاة من إبليس فاعتصموا بالموت واستعبدوا به .

إذا كان يوم القيامة يوضع كرسى من النار فيقع عليه إبليس عليه اللعنة فتجتمع الشياطين

(١) آية (٣٢) سورة آل عمران .

(٢) آية (٢٣) سورة الأعراف .

(٣) آية (٥٣) سورة الزمر .

والكفار عنده وله صوت كصوت الحمار ينهق ويقول يا أهل النار كيف وجدتم اليوم ما وعد ربكم قالوا حقا ثم يقول : هذا يوم أيسر فيه من الرحمة فيأمر الله تعالى الملائكة أن يضربوه ومن تبعه بمقامع من نار فيهبون فيها أربعين سنة فلا يسمعون الأمر بالخروج أبدا أبدا نعوذ بالله منها .

وورد أنه يؤتى بإبليس يوم القيامة فيؤمر به أن يجلس على كرسى من نار وعلى عنقه طوق اللعنة ويأمر الله - عز وجل - الزبانية أن يجروه عن الكرسى ويلقوه فى النار فيتعلفون به ليلقوه فلا يقدرون ثم يأمر الله تعالى جبريل مع ثمانين ألف ملك بذلك فلا يقدرون ثم يأمر إسرائيل ثم عزرائيل ومع كل واحد منهما ثمانون ألف ملك فلا يقدرون فيقول الله تعالى لهم لو اجتمع عليه أضعاف ما خلقت من الملائكة لما قدروا على أن ينقلوه وطوق اللعنة على عنقه .

وروى أن إبليس كان اسمه فى سماء الدنيا العابد وفى الثانية الزاهد وفى الثالثة العارف وفى الرابعة الولى وفى الخامسة التقى وفى السادسة الخازن وفى السابعة عز وجل وفى اللوح المحفوظ إبليس وهو غافل عاقبة أمره فأمره الله أن يسجد لآدم فقال أنفضله على وأنا خير منه خلقتنى من نأو وخلقته من طين فقال تعالى أنا أفعل ما أشاء فرأى لنفسه شرفا فولى آدم ظهره أنفة وكبرا وانتصب قائما إلى أن سجدت الملائكة المدة المارة فلما وقعوا رؤوسهم وأواه لم يسجد وهم قد وقفوا للسجود سجدوا ثانيا شكرا وهو قائم يرى معرضا عنهم غير عازم على الاتباع ولا نادم على الامتناع فسله الله من الصورة البهية فنكسه كالخنزير وجعل رأسه كرامس البعير وصدره كمنام الجمل الكبير ووجهه كوجه القرد وعينه مشقوقين فى طول وجهه ، ومنخره مفتوحتين ككوز الحجام ، وشفتيه كشفتى الثور ، وأنيابه خارجة كأنياب الخنزير وفى لحيته سبع شعرات وطرده من الجنة بل من السماء بل من الأرض إلى الجزائر فلا يدخل الأرض إلا خفية ولعنه إلى يوم الدين لأنه صار من الكفار .

وانظر كيف كان بهى الصورة رباعى الأجنحة كثير العلم كثير العبادة طاووس الملائكة وأعظمهم ، سيد الكرويين إلى غير ذلك فلم يخن ذلك عنه شيئا ، إن فى ذلك لذكرى .

وفى الأثر لما مكر بإبليس بكى جبرائيل وميكائيل فقال الله لهما : ما يبيكما ؟ قال : ربنا ، أمنا مكرك فقال الله تعالى : هكذا كوننا لا تأمنا مكرى .

وروى أن إبليس قال يارب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم وأنا لا أقدر عليه إلا تسليطك قال أنت مسلط عليه أى على أولاده لعصمة الأنبياء منه ، قال زدنى قال لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله ، قال زدنى قال صدورهم مساكن لك تجرى فيها مجرى الدم ، قال زدنى قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك ، أى استمن عليهم بأعوانك من راكب وماشى وشاركهم فى الأموال ، أى بحملهم على كسبها وصرفها فى الحرام والأولاد أى بالحث على التوسل إليهم بالسبب المحذور .

كالوطء في الحبض والإشراك فيهم بنسبتهم بنحو عبد العزى ، والتضليل بالحمل على الأديان الباطلة والحرف للذميمة والأفعال القبيحة ، واعددهم الواعبد الباطلة كشفاة الآلهة والانتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بطول الأمل وهذا على طريق التهديد كاعملوا ماشتم .

فقال آدم يارب فد سلطته على فلا امتنع منه إلا بك قال لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من الملائكة ، قال زدنى قال الحسنه بعشر أمثالها ، قال زدنى قال لا أنزع منهم التوبة مادامت أرواحهم في أبدانهم ، قال زدنى قال أغفر لهم ولا أبالي ، قال اكتفت .

فقال إبليس يارب جعلت في بنى آدم الرسل وأنزلت عليهم الكتب فما رسلى قال الكهان ، قال فما كتبى قال الوشم ، قال فما حديثى قال الكذب ، قال فما قرأتى قال الشعر ، قال فما مؤذنى قال المزمار ، قال فما مسجدى قال الأسواق ، قال فما بيتى قال الحمام ، قال فما طعمائى قال الذى لم يذكر عليه اسمى ، قال فما شرابى قال المسكر قال فما مصابدى قال النساء .

الباب الثالث عشر

فى الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا أَيْ أَمْتَنْنَ عَنْ قَبُولِهَا ﴾ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴿ (١) أى خفن من الأمانة أن لا يؤدینها فبلحقهن من العقاب أو خفن من الخيانة فيها . ومعنى الأمانة فى هذه الآية الطاعة والفرائض التى يتعلّق بأدائها الثواب والعقاب .

قال الفرطى : الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور ، واختلف فى تفاصيل بعضها .

فقال ابن مسعود : هى أمانة الأموال كالودائع وغيرها ، وروى عنه أنها فى كل الفرائض وأشدّها أمانة المال . . وقال أبو الدرداء غسل الجنابة أمانة . وقال ابن عمر أول ما خلق الله من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها فلا تلبسها إلا بحق فإن حفظتها حفظتك فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له .

قال الحسن إن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فأضطربت وما فيها فقال الله لها إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك فقالت لا . قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه وقال له ذلك فقال قد تحمّلنها .

(١) آية (٧٢) سورة الأحزاب .

ولا يخفى أن عرض هذه الأمانة على السموات والأرض والجبال عرض تخبير لا عرض إلزام ، ولو ألزمهم لم يمتنعن من حملها .

وقال الفقهاء العرض فى هذه الآية ضرب مثل أى أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها فقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أى أن التكليف أمر عظيم حقين أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال وقد كلفه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ أى التزم بحفظها آدم بعد عرضها عليه فى عالم الذر عند خروج ذريته من ظهره وأخذ الميثاق عليهم ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) أى هو فى ذلك الحمل ظلوم لنفسه جهول بقدر ما دخل فيه أو جهول بأمر ربه .

وعن ابن عباس قال عرضت الأمانة على آدم فقبل خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك قال قبلتها بما فيها ، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أكل من الشجرة لولا أن تداركه الله برحمته فتاب عليه وهدى .

والأمانة مشتقة من الإيمان فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه ، قال ﷺ : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له (٢) .

قال الشاعر :

تبالم رضى الخيانة مهيبا * * * وازور عن صون الأمانة جانبه

رفض الديانة والمروءة فاعشى * * * تنرى عليه من الزمان مصائبه

وقال آخر :

أخلق بمن رضى الخيانة شبيمة * * * أن لا يرى إلا صريع حوادث

مازالت الأرواء ينزل بؤسها * * * أبدا بغادر ذممة أو ناكث

وقال رسول الله ﷺ : « يطيع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب » (٣) وقال رسول الله ﷺ : « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما » وقال ﷺ : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » (٤) .

(١) آية (٧٢) سورة الأحزاب .

(٢) (صحيح) أحمد ٣ / ١٣٥ ، وصحيح الجامع (٧١٧٩) .

(٣) (ضعيف) أحمد ٥ / ٥٥٢ ، وضعيف الجامع (٦٤٣١) والضعيفة (٣٢١٥) .

(٤) (صحيح) أبو داود (٣٥٣٤) ، وصحيح الجامع (٢٤١٠) .

بري نصحيحين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث . إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان » (١) . أى إذا أئتمنه أحد بكلمة خافه بأفسانها للمدعي . لأنبياء والمرسلين وشيعة الأبرار المتقين . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا بَعْدَ بَعْدٍ أَنْ تَأْمِنُوا ﴾ (٢) قال المفسرون هذه الآية مشتملة على كثير من أمهات الشرع وإنحجب بها عموم المكلفين الولاية وغيرهم فيجب على الولاية إنصاف المظلوم وإظهار حقه . وثبت أمانة وحفظ أموال المسلمين لاسيما البتامة ، ويجب على العلماء تعليم العوام أحكام دينهم فهي أمانة اختار لحفظها العلماء . ويجب على الوالد رعاية ولده بحسن التأديب إذ هو أمانة عنده . وقال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣) .

وفى زهر الرياض يؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى : لرددت أمانة فيقول لا يارب فيما أمر الله تعالى ملكا فيأخذ بيده وينطلق به إلى جهنم ويريه الأمانة بعينها فى قعر جهنم فيهوى فيها سبعين عاما حتى يتتهى إلى قعرها ثم يصعد بالأمانة فإذا بلغ أعلى جهنم زلت قدمه فيهوى فيها ، كذلك ثم يصعد ثم يهبط وهكذا حتى يدركه لطف ربه بشفاعة الصطفى ﷺ فيرضى عنه صاحب الأمانة .

وزوى عن سلمة قال « بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ أتى بجنابة ليصلى عليها . فقال هل عليه دين قالوا لا فصلى عليها ثم أتى بجنابة أخرى فقال هل عليه دين قالوا نعم قال فهل ترك شيئا قتلوا ثلاث دنائير فصلى عليها ثم أتى بثالثة فقال هل عليه دين قالوا نعم فقال ﷺ هل ترك شيئا قتلوا : لا قال : صلوا على صاحبكم » وعن قتادة - رضى الله عنه - قال : « قال رجل يا رسول الله أرأيت إن قتل في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر يكفر الله عنى خطاياى قال نعم فلما أجزى الرجل ناداه فقال يغفر الله للشهيد كل ذنب إلا الدين » (٤) .

الباب الرابع عشر

فى إتمام الصلاة بالخضوع والخشوع

قد نه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ (٥) .

إعلم أن الخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث . وقد اختلفوا فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها على قولين . واستدل من قال بالأول بحدیث : « لبس للعبد من صلاته إلا ما عقل » ، ويقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (١) والغفلة تضاد الذكر ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢)

أخرج البيهقي عن محمد بن سيرين قال نبئت أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت الآية . وزاد عبد الرزاق عنه فأمره بالخشوع فرمى ببصره نحو مسجده . وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي هريرة كان ﷺ إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت هذه الآية فغطا رأسه .

وروى عن الحسن أن النبي ﷺ قال : « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جبار على باب أحدكم كثير الماء يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى بيده من الدرن شيئا » (٣) يعنى أن الصلوات تطهر من الذنوب ولا تبقى منها شيئا فيما دون الكبائر وهذا إذا صلى بخشوع وحضور قلب وإلا فهي مردودة عليه وقال ﷺ : « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى » فإذا لم يكن فى قلبك المذكور الذى هو المقصود والمبتغى غفلته ولا هيئته فما قيمة ذكرك . وقال ﷺ : « من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » (٤) .

وقال بكر بن عبد الله يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قبل وكيف ذلك قال تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه أشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال ﷺ : « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » .

وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحينه . ورأى رسول الله ﷺ رجلا يعبث بلحيته فى

(١) آية (١٤) سورة طه .

(٢) آية (٢٠٥) سورة الأعراف .

(٣) (صحيح) مسنم (٦٦٧ - ٦٦٨) .

(٤) (ضعيف) الطبراني ١١ / ٥٤ ، وضعيف الجامع (٥٨٣٤) .

(١) صحيح البخاري (٢٦٨٢ و ٢٧٤٩) . (٢) آية (٥٨) سورة النساء .

(٣) صحيح البخاري (٢٥٥٤) . (٤) (صحيح) أحمد ٢ / ٢٢٠ ، وصحيح الجامع (٨١١٩) .

(٥) سورة المؤمنون .

الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » (١).

وروى أن علياً كرم الله وجهه كان إذا حضرت الصلاة يتزلزل ويبتلون وجهه فيقال له مالك يا أمير المؤمنين فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . وروى عن علي بن الحسن أنه كان إذا توجساً أصفر لونه فيقول له أهله ما الذي يعتربك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أفوم .

ويروى عن حاتم الأصم أنه مثل عن صلاته فقال إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأنتم الموضوع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ثم أقوم إلى الصلاة وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي وأظنها آخر صلاتي أفوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمي وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها بالإخلاص ثم لا أدرك أقبلت مني أم لا .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وكعتان مقصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

وقال رحمه الله : « يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا مجالسهم فليس لله بهم حاجة » .

وعن الحسن أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأسوأ الناس سرقة قالوا من هو يا رسول الله قال الذي يسرق من صلاته ، قالوا كيف يسرق من صلاته قال لا يتم ركوعها ولا سجودها (٢) » وقال رحمه الله : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن قد أتمها هون عليه الحساب وإن كان قد انتقص منها شيئاً قال الله تعالى لللائكة هل لعبدي من تطوع فأتوا الفريضة منه (٣) » وقال رحمه الله : « ما أعطى عبد عطاء خيراً من أن يؤذن له في ركعتين يصليهما » .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذا أراد القيام إلى الصلاة ترتعد فرائضه وتصطك أسنانه فقليل ما ذلك قال حان وقت أداء الأمانة وفضاء الفريضة ولا أدري كيف أؤديها .

حكى : عن خلف بن أيوب أنه كان قائماً في الصلاة فلدهغ زنبور فسال منه الدم وهو لا يشعر حتى خرج ابن سعيد فأعلمه بذلك فغسل ثوبه فقليل له يلدغك زنبور ويسيل منك الدم ولم

(١) (موضوع) البيهقي ٢ / ٢٨٩ ، والضعيفة (١١٠) ، وضيف الجامع (٤٨٢١) .

(٢) (صحيح) أحمد ٥٦ / ٣ ، وصحيح الجامع (٩٨٦) .

(٣) (صحيح) أحمد ٦٥ / ٤ ، وابن ماجه (١٤٢٦) ، وصحيح الجامع (٢٥٧٤) .

نشعر به فقال أين شعر يمثل هذا من يكون واقفاً بين يدي الملك الجبار وملك الموت على قفاه والنار عن شماله والصراط تحت قدميه .

ووقعت الأكلة في يد عمرو بن ذر وكان جليلاً في الزهد والعبادة فقال له الأطباء لابد لك من قطع هذه اليد فقال اقطعوها فقالوا لا تقدر على قطعها إلا أن نشلك بالحبال فقال لا ولكن إذا شرعت في الصلاة فاقطعوها حيثنأ ، فلما دخل في الصلاة قطعت يده ولم يشعر بذلك .

الباب الخامس عشر

فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ من صلى على مرة خلق الله تعالى من نفس المصلي غمامة بيضاء ثم يأمرها الله تعالى أن تأخذ من بحر الرحمة فتأخذ ثم يأمرها الله تعالى أن تمطر فإذا أمطرت ، فأى قطرة قطرت على الجبال يخلق الله تعالى منها الفضة ، وأى قطرة قطرت على كافر رزقه الله تعالى الإيمان (١) .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) قال الكلبي هذه الآية تتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم ، وفيها دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق وأن هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة في ذاتها كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم . ومعنى أخرجت : أظهرت للناس أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الأعصا حتى تميزت وعرفت . وقوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) .

كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة ما بشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك ، فجعلهم الله خير الناس لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقاثلون الكفار ليسلموا فترجع منفعتهم على غيرهم كما قال رحمه الله : « خير الناس من ينفع الناس وسر الناس من يضر الناس » (٤) .

(١) لوائح الموضوع ظاهرة عليه . (٢) سورة آل عمران (٣ ، ١١٠) .

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء ١١ / ٤٧٢ ، وقال : لم أر من ذكر أنه حديث ، فيراجع ، لكن معناه صحيح .

وقد جاء بلفظ : « خير الناس أنفعهم للناس » . وهو حديث (حسن) انظر (صحيح الجامع) (٣٢٨٩) .

« نؤمن بالله » أى تصدقون بتوحيد الله وتثبتون على ذلك وتقررون أن محمداً نبي الله ، من كفر بمحمد ﷺ لم يؤمن بالله لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التى أتت بها من عند نفسه .
وقال ﷺ : « من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك سعة الإيمان » . معنى أضعف فعل أهل الإيمان .

قال بعضهم التغيير باليد للأمراء ، وباللسان للعلماء ، وبالقلب للعوام . قال بعضهم من يقدر على ذلك فالواجب عليه أن يغيره كما قال الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى فعاونوا على الإثم والعدوان » (١) الآية . . ومن التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير إليه وسد بيل الشر والعدوان بحسب الإمكان .

وقال ﷺ فى حديث آخر : « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ومن أمان صاحب بدعة أمناه الله يوم الفزع الأكبر ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله » (٢) .

عن حذيفة - رضى الله عنه - قال يأتى على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن بأمرهم ونهائهم .

قال موسى يارب ما جزاء من دعا أخاه وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، قال أكتب له بكل لمة عبادة سنة وأستحى أن أعذبه بنأوى .

وفى الحديث القدسى يقول الله تعالى : « يا ابن آدم لا تكن ممن يؤخر التوبة ويطول الأمل يرجع إلى الآخرة بغير عمل ، يقول قول العابدين ويعمل عمل المنافقين ، أن أعطى لم يفتح وأن نع لم يصبر ، ويحب الصالحين وليس منهم ، ويبغض المنافقين وهو منهم ، يأمر بالخير ولا فعله ، وينهى عن الشر ولم يتنه عنه » .

وعن على كرم الله وجهه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيأتى قوم فى آخر الزمان يحدث الأسنان نوافض العقل يقولون من قول خير البرية لا بجاوز حناجرهم ، بمرفقون من دين كما يعرف السهم من الرمية » (٣) .

وقال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى إلى السماء رجلاً لا تفرض شفاهم بمفاريض من النار قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم

(١) آية (٢) سورة المائدة .

(٢) (موضوع) كشف الحفاء ٢ / ٣٠٨ ، وقال : قال الفارائ : موضوع .

(٣) (صحيح) البخارى (٦٩٣٤) ، ومسلم (١٤٣-١٤٥) .

كما قال الله تعالى فى حقهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تقولون الكتاب آفلا تفعلون » (١) يعنى تلتون كتاب الله ولا تعملون بما فيه فكانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون .

فيجب على المؤمنين أن يأمروا وينهوا عن المنكر ولا ينسوا أنفسهم كما قال الله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة » (٢) الآية . . فقد نعت المؤمنين بأن يأمروا بالمعروف فالذى هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المتعولين فى هذه الآية . وقد ذم الله أفواماً بترك الأمر بالمعروف فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٣)

روى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أنه قال لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو لسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجعل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم ويستصرون فلا يتصرفون ويستغفرون فلا يغفر لهم .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قال رسول الله ﷺ : « عذب الله أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف ؟ قال لم يكونوا بغضبون لله ولا يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وقال أبو ذر الغفارى قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين فقال رسول الله ﷺ : « نعم يا أبا بكر إن لله مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهى الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر - رضى الله عنه - يا رسول الله ومن هم قال : الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون فى الله والمبغضون فى الله ثم قال والذى نفسى بيده إن العبد ليكون فى الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء لكل غرفة منها ثلثمائة باب منها الباقوت والزمرد الأخضر ، على كل باب نور وأن الرجل منهم ليتزوج بثلثمائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين ، كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له أتذكر يوم كنا وكذا أمرت فيه بالمعروف ونهيت عن المنكر ، وكلما التفت إلى واحدة منهن ذكرت له مقاما أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر » .

وفى الخبر أن الله تعالى قال : « يا موسى هل عملت لى عملاً فظ قال الهى صليت لك وصمت لك ونصدتك لأجلك وسجدت لك وحمدت لك وفراأت كتابك وذكرتك » . قال الله تعالى : « يا موسى أما الصلاة فلك برهان وأما الصوم فلك جنة وأما الصدقة فلك ظل وأما

(١) آية (٢) سورة البقرة .

(٢) آية (٢) سورة البقرة .

(٣) آية (٢) سورة المائدة .

النبي صلى الله عليه وسلم ، عمل عملت لي ، قال موسى دلني يارب على عمل أعمله لك قال يا موسى هل واليت لي ولبا قط وهل عادت لي عدوا قط . فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب لله ولأوليائه والبغض لله ولأعدائه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - قلت يا رسول الله : « أى الشهداء أكرم على الله عز وجل : قال رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ، فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش » (١) وقال الحسن البصري رحمه الله قال رسول الله ﷺ : « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلة في الجنة بين حمزة وجعفر » (٢).

وأوحى الله إلى يوشع بن نون - عليه السلام - أني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : « قلنا يا رسول الله ألا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ، ولا تنهى عن المنكر حتى نجتنبه كله ؟ فقال ﷺ بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله ، وانهاؤا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله » . وأوصى بعض السلف بنبيه فقال إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله ، فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى .

الباب السادس عشر

في عداوة الشيطان

يجب على المؤمن أن يحب العلماء والصلحاء ويلزم مجالستهم ويسأل ما لا بد له ويتعظ بنصحهم ، ويجتنب الأعمال الفبيحة ويتخذ الشيطان عدوا كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (٣) أى فعادوه بطاعة الله تعالى ولا تطيعوه فى معاصي الله تعالى وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم وأفعالكم وعفائدكم عن صميم قلوبكم ، وإذا فعلتم فعلا فتفطنوا له فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبايح واستعبروا عليه بربكم .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال : هذه سبيل الله

(١) (ضعيف) مجمع الزوائد ٧ / ٢٧٢ ، وعزاه إلى (البدار) وقال : فيه عن لم أعرفه اثنان .

(٢) انحاء السادة المتقين ٧ / ١٢ .

(٣) آية (٦) سورة فاطر .

ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبيل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا : ﴿ وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (١) فبين لنا ﷺ كثرة طرق الشيطان (٢) .

روى : عن النبي ﷺ أنه قال كان راهب فى بنى اسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقمها فحملت منه فوسوس إليه وقال الآن تفتضح بأتيك أهلها فاقتلها فإن سألك فقل ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم وألقى فى قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها هو ودفنها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذى خنقها وأنا الذى ألقى فى قلوب أهلها فاطعننى تنج وأخلصك منهم ، قال بماذا قال اسجد لى سجدتين ففعل فقال له اتى برىء منك . فهو الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ كَذَّبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْهَرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّ بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ (٣) .

وروى أن إبليس سأل الشافعى - رضى الله عنه - ما قولك فيمن خلقتنى كما اختار واستعملنى فيما اختار وبعد ذلك إن شاء أدخلنى الجنة وإن شاء أدخلنى النار أعدل فى ذلك أم جار ؟ فنظر فى كلامه ثم قال يا هذا أن كان خلقت لما تريد أنت فقد ظلمك وإن كان خلقت لما يريد هو فلا يستل عما يفعل ، فاضمحل إلى أن صار لاشيء ثم قال والله يا شافعى لقد أخرجت بمثلنى هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية .

واعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلجه ولا قدر على حراسة أبوابه من لا يدريها .

فحماية القلوب عن وسواس الشيطان واجب وهو فرض عين على كل مكلف وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضا واجب ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصار معرفة مداخله واجبة ، ومداخله وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة .

منها الغضب والشهوة : فإن الغضب غول العقل وإذا ضعف العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة . وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس أرنى كيف تغلب ابن آدم فقال أخذه عند الغضب وعند الهوى .

(١) (صحيح) البخاري (٦٤١٨) .

(٢) آية (١٥٣) سورة الأنعام .

(٣) آية (١٦) الحشر .

« منها الجد والحرص : فمهما كان العبد حريصا على كل شيء أعماه حرصه وأصمه فبحسب يحد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا فاحشا ، فقد روى أن نوحا - عليه السلام - لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى في السفينة شيئا لم يعرفه ، فقال له نوح ما أدخلك فقال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك ، فقال نوح أخرج منها يا عدو الله فإنك لعين فقال له إبليس خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك بآنتين فأوحى الله إلى نوح أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالآنتين فقال له نوح ما الاثنان فقال هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني بهما أهلك الناس الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت وجيما ، وأما الحرص فإنه أبيع لأدم الجنة كلها إلا الشجرة فأصبت حاجتي منه بالحرص .

ومنها الشبع من الطعام وإن كان حلالا صافيا : فإن الشبع يقوى الشهوات وهي أسلحة الشيطان .

لقد روى أن إبليس ظهر ليحيى - عليه السلام - فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له يا إبليس ما هذه المعاليق قال هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم فقال فهل لي فيها من شيء قال ربما شجعت فتقلبك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك قال لا قال لله على لا أملا بطنى من الطعام أبدا فقال له إبليس ولله على أن لا أنصح مسلما أبدا .

ومنها حب التزين من الأثاث والثياب والدار : فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالبا على قلب الإنسان باض فيه ، وفرخ فلا يزال يدعو به إلى عمارة الدار وتزيين سقفها وحيطانها ونوسيع أبنيتها ويدعو به إلى التزيين بالثياب والدواب ويستخسر فيها طول عمره فإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية فإن بعض ذلك بجره إلى البعض إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة تعود بالله .

ومنها الطمع في الناس : فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس مثل لعبد الله بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عني شيئا أعلمك به فقال له لا حاجة لي به قال انظر فإن كان خيرا أخذت وإن كان شرا رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة وانتظر كيف إذا غضبت فإني أملكك إذا غضبت .

ومنها العجلة وترك الثبوت في الأمور قال ﷺ : « العجلة من الشيطان والثبات من الله تعالى فعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري » (١)

(١) (حسن) البيهقي ١/ ١٠٤ و ١٠٤ / ١٠٤ ، وكشف الخفاء ١ / ٣٥٠ .

فقد روى أنه لما ولد عيسى ابن مريم - عليه السلام - أنت الشياطين إبليس فقالوا لو أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها ففلك هذا حدث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافقى الأرض فلم يجد شيئا فوجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا باللائكة حافين به فرجع إليهم فقال إن نبيا قد ولد الباوة ما حملت أنثى قط ولا وضعت الا وأنا حاضرها إلا هذا فابتسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن اتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة .

ومنها الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقل فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان . قال ثابت البناني لما بعث رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاءوه وقالوا ما ندري قال أنا أتيتكم بالخير فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا ﷺ قال فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبتنا يوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحق ذلك . فقال لهم إبليس ويذا عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا

ومنها البخل وخوف الفقر فإن ذلك هو الذي يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الإدخار والكثرة والمذاب الأليم . ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال وهي معيش الشياطين .

ومنها التعصب للمذاهب والأهواء والحق على الخصوم والنظر لهم بعين الاحترار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا . قال الحسن - رضى الله عنه - بلغنا أن إبليس قال سولت لأمة محمد ﷺ المعاصي فقصموا ظهوري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء وقد صدق الملعون فإنهم لا يعلمون أن في ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها .

ومنها سوء الظن بالمسلمين فيجب الاحتراز عنه وعن تهمة الأشرار فمهما رأيت إنسانا يسيء الظن بالناس طلبا للعبوب فاعلم أنه خبيث باطنا وأن ذلك خبيث يترشح منه فيجب على الإنسان قطع هذه الأتواب من القلب وبعينه عليها ذكر الله تعالى .

قال ابن اسحاق لما رأى كفار قريش هجرة الصحابة وعرفوا أنه صار له ﷺ أصحاب من غيرهم فحذروا خروجه وعرفوا أنه أجمع لحريهم فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب وصميت بذلك لا اجتماع الندى فيها بتشاورون ، وكانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ولا يدخلون فيها غير قريش إلى أن يبلغ أربعين سنة بخلاف القريش وقد أدخلوا أبا جهل واجتمعوا يوم السبت ولذا ورد يوم السبت يوم بكر وخديعة ومعهم إبليس في صورة شيخ مجدى وذلك أنه وقف على باب الدار في هيئة شيخ جليل عليه بت قبل كساء غليظ أو طيلسان من خز فقالوا من

الشيخ قال من نجد سمع بالذي أعددت له فحضر لسمع ماتقولون وعسى أن لا يعدمكم رأيا . نصحنا . قالوا ادخل فدخل فنشاوروا في أمر النبي ﷺ وكانوا مائة رجل وقيل كانوا خمسة عشر رجلا فقال أبو البحري المقتول كافرا ببدر أحبوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربعوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله ، فقال النجدي ما هذا برأى والله لو حبستوه في الحديد ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن يتيروا عليكم فيترعوه من أيديكم ثم يكتروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا برأى فانظروا في غيره فقال الأسود ابن ربيعة بن عمرو العامري نخرجه من بين أظهرنا فتنفيه من بلادنا فلا نبالي أين ذهب فقال النجدي لعنه الله والله ما هذا برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقته وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيقلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم اليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد أديروا فيه رأيا غير هذا فقال أبو جهل والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه ، أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة وجل واحد فيقتلوه فتستريح منه ويتفرق دمه في القبائل فلا تقدر ينو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فتمقله لهم . فقال النجدي لعنه الله القوم ما قال لا أرى غيره فاجمع رأيهم على قتله ﷺ تفرقوا على ذلك ثم أتى جبريل النبي ﷺ فقال لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فينبوا عليه فأمر - عليه السلام - عليا فنام مكانه وغطى ببرده ﷺ أخضر كان يشهد به الجمعة والعيدين بعد ذلك عند فعلهما فكان على أول شرى نفسه فى الله ووقى بهار رسول الله ﷺ وفى ذلك يقول على رضى الله عنه (شعر) :

وقيت بنفسى خبير من وطئ الثرى ** ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول الله خاف أن يمكروا به ** فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله فى الغار أمنا ** موقى وفى حفظ الإله وفى ستر
وبت أراعيهم وما يتهموننى ** وقد وطنت نفسى على القتل والأسر

ثم خرج ﷺ من الباب عليهم وقد أخذ الله على أنصارهم فلم يره أحد منهم ونثر على رؤسهم كلهم ترابا كان فى يده وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ يس ﴾ (١) إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) ثم انصرف حيث أراد فاتاهم أت من لم يكن معهم فقال ما تنتظرون هنا قالوا محمدا قال قد خيبكم الله والله خرج عليكم ثم ماترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته فما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل يده على رأسه فانافا عليه تراب ثم جعلوا

(١) سورة يس . (٢) آية (٩) سورة يس .

يطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا بردة رسول الله ﷺ فيقولون والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا فقام على من الفراش فقالوا لقد صدقنا الذى كان حديثنا . وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَتَّبِعُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ ﴾ (١)

لا تجزعن فبمعد تيسير ** وكل شئ له وقت وتقدر
وللمقدر فى أحوالنا نظير ** وفوق تدبيرنا لله تدبير

ثم أذن الله تعالى لنبيه ﷺ فى الهجرة . قال ابن عباس بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ (٢) وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر - رضى الله عنه - .

روي الحاكم عن علي - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال لجبريل من يهاجر معي قال أبو بكر الصديق وأخبر ﷺ عليا بمخرجه وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس .

وروي الطبراني فى حديث أسماء كان النبي ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشية فلما كان يوم من ذلك جاهنا فى الظهيرة فقلت يا أبت هذا رسول الله ﷺ متفمعا أي مغطيا رأسه فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر - رضى الله عنه - فدي له أبى وأمى والله ما جاء به فى هذه الساعة الا أمر .

قالت عائشة - رضى الله عنها - فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن له أبو بكر فدخل فتحتى أبو بكر إنما هم أهلك يعنى عائشة وأسماء . وفى رواية فقال أبو بكر لا عين عليك إنما هما ابتاي فقال ﷺ فإنه قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر الصحبة بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال نعم قالت عائشة - رضى الله عنها - فرأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحدا يبكي من الفرح فقال أبو بكر فخذ بأبى أنت وأمى يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين قال ﷺ لا بل بالشمن . وفى رواية فقال بشمتها إن شئت ، وإنما أخذها بالشمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله رغبة منه عليه فى استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى . قالت عائشة فجهرناهما أحت أي أسرع الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة أي زاد فى جراب ، زاد الواقدي أنه كان فى السفرة شاة مطبوخة قالت فقطعت أسماء قطعة من نظفها بكسر النون ما يشد به الوسط . قالت عائشة - رضى الله عنها - ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور فكعنا فيه ثلاث ليال وهر جبل بمكة نزله ثور بن عبد مناة فنسب له .

(١) آية (٣٠) سورة الأنفال . (٢) آية (٨٠) سورة الإسراء . .

وروي أنهما خرجا من خوفة أي باب صغير لأبي بكر في ظهر بيته ليلا إلى الغار

وروي أن أبا جهل لقبهما فأعصى الله بصره عنهما حتى مضيا ، قالت أسماء بنت أبي بكر خرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم ولما فقدت فريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا الغافة جمع فائف وهو الذي يعرف الأثر في كل وجه فوجد الذي ذهب جهة ثور أثره هناك فم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر لما انتهى إلى ثور وشنق علي فريش خروجه وجزعوا لذلك وجعلوا مائة ناقة لمن يرده .

وروي أنه لما دخلوا الغار وأبو بكر معه أنبت الله علي باب الرامة وهي شجرة معروفة بأم غيلان فحجبت عن الغار وأرسل حمامتين وحشيتين فوقنا علي وجهه فعششتا علي بابيه وأن ذلك مما صد المشركين عنه وأن حمام الحرم من نينك الحمامتين .

ثم أقبل فتيان فريش من كل بطن بعضهم وهرأويهم وسيوفهم فجعل بعضهم ينظر في الغار فرأي حمامتين وحشيتين بفم الغار فرجع إلي أصحابه فقالوا له ما لك فقال رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد فسمع النبي ﷺ ما قال فعلم أن الله قد درأ عنه وقال آخر ادخلوا الغار فقال أمية بن خلف وما أريكم أي حاجتكم إلي الغار إن فيه لعنكوتا أقدم من ميلاد محمد لو دخل لكسر البيض وتفسخ العنكبوت . وهذا أبلغ في الإعجاز من مقارمة القوم بالجناد ، فتأمل كيف أظلت الشجرة المطلوب وأضلت الطالب وجاءت عنكبوت فسدت باب الطلب وحاكمت وجه المكان فحاكت ثوب نسجها حتى عمي علي الغافة الطلب ولقد حصل لها بذلك الشرف وما أحسن قول ابن النقيب :

ودود الفز إن نسجت حريرا * بجمل لبسه في كل شيء

فلن العنكبوت أجل منها * بما نسجت علي رأس النبي

وروي الشيخان عن أنس قال حدثني أبو بكر قال قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن جدهم نظر إلي قدميه لرأنا فقال له رسول الله ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١) وذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال له ﷺ لو جاءنا من ههنا لذمينا من ههنا فنظر الصديق إلي الغار قد انفرج من الجانب الآخر وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلي جاتبه . وعن الحسن بعصري بلاغا أن أبا بكر ليلة انطلق معه ﷺ إلي الغار كان يمشي بين يديه ساعة ومن خلفه ساعة فسأله فقال أذكر الطلب فأمشي خلفك وأذكر الرصد فأمشي أمامك فقال لو كان شيء أحببت أن تمخل دوني ، قال أي والذي بعثك بالحق فلما انتهيا إلي الغار قال مكانك يا رسول الله حتى

(١) (صحيح البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨١) .

استبريء لك الغار فاستبرأ فجعل يلتبس بيده فكلما رأي جحرا أنقطع من ثوبه وألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع . فبقي جحر فوضع عقبه عليه لثلا بخروج ما يؤذي رسول الله ﷺ فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في جحر أبي بكر ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك لثلا يوظف المصطفى ﷺ فسقطت دموعه علي وجه رسول الله ﷺ فقال ما لك يا أبا بكر قال لدغت فذاك أبي وأمي فمسح رسول الله ﷺ بريقه مكان اللدغة فذهب ما بجده ، ولقد أحسن حسان بن ثابت - رضي الله عنه - حيث قال :

وثاني اثنين في الغار المتيف وفسد * طاف العدو به إذا صاعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علمو * من الخلائق لم يعدل به بدلا

وكان خروجه ﷺ من مكة يوم الخميس وخرج من الغار ليلة الإثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال وذلك من أول ربيع الأول ودخل المدينة يوم الجمعة لثني عشرة ليلة خلت منه .

حكى : أن زاهدا من الزهاد اسمه زكريا مرض مرضا شديدا ودنا وقت أجله فأناه صديقه في سكرات الموت ولقنه لا إله إلا الله محمد رسول الله فأعرض الزاهد بوجهه ولم يقل فقال ثانيا فأعرض ، فقال له ثالثا فقال لا أقول فغشي عليه صديقه فلما كان بعد ساعة وجد الزاهد خفة ففتح عينيه فقال هل قلتم لي شيئا فالوا نعم عرضنا عليك الشهادة فأعرضت في مرتين وقلت في الثانية لا أقول فقال أنا في إيليس عليه اللعنة ومعه قدح من الماء ووقف عن يميني وهو يحرك القدح فقال احتاج إلي الماء قلت بلي قال قل عيسى ابن الله فأعرضت عنه ثم أنا في من قبل رجلي فقال لي كذلك فأعرضت عنه وفي الثالثة قال لي كذلك فقلت لا أقول فضرب القدح علي الأرض وولي هاربا فأنا رددت علي إيليس لا عليكم فأنا أشهد لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله .

وروي عن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قال سألت بعضهم ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأي في النوم جسد رجل شبه البلور يري داخله من خارجه ورأي الشيطان في صورة ضفدع قاعد علي منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق أدخله من منكبه الأيسر إلي قلبه يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالى أخس .

اللهم لا تسلط علينا شيطانا مريدا ولا إنسانا حسودا وأعنا علي ذكرك وشكرك بجاه خاتم أنبيائك ورسلك .

الباب السابع عشر

في بيان الأمانة والتوبة

روى عن محمد بن المنكدر أنه قال سمعت أبي يقول بينما سفيان الثوري بطوف إذ رأي رجلا لا يرفع قدما ولا يضع قدما إلا وهو يصلي علي النبي ﷺ قال فقلت له يا هذا إنك قد تركت النسيح والتهلل وأقبلت بالصلاة علي النبي ﷺ هل عندك في هذا شيء قال من أنت عافاك الله؟ فقلت أنا سفيان الثوري قال لولا أنك زاهد أهل زمانك ما أخبرتك عن حالي ولا أطلعك علي سري ثم قال لي خرجت والدي حاجا إلي بيت الله الحرام حتي إذا كنت في بعض المنازل مرض والدي ففمت بشأنه حتي مات فاسود وجهه فقلت إنا لله وأنا اليه راجعون وغطيت وجهه فغلبتني عيتاي ففمت حزينا فرأيت رجلا لم أر أحسن منه وجهها ولا أنظف منه ثوبا ولا أطيب منه ريحا يرفع قدما ويضع أخرى حتي دنا من والدي من فكشف الإزوا عن وجهه فأمر بيده علي وجهه فأبيض ثم ولي واجعا فتملعت بثوبه فقلت يا عبد الله من أنت الذي من الله علي والدي بك في أوض الغربة قال : « أو ما تعرفني أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن أما إن واللك كان مسرفا علي نفسه ولكن كان بكثرة الصلاة علي فلما نزل به منازل استغاث بي وأنا غياث لمن أكثر الصلاة علي » فأتته فإذا وجه أبي قد ابيض .

وروي عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه قال : « من نسي الصلاة علي فقد أخطأ طريق الجنة » (١) .

إعلم أن الأمانة مأخوذة من الأمن لأنه يؤمن معها من منع الحق ، وضدها الخيانة من الخوف وهو النقص لأنك إذا خفت أحدا في شيء فقد أدخلت عليه النقصان . قال رسول الله ﷺ : « المكر والخديعة والخيانة في النار » (٢) . وقال ﷺ : « من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو من كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخونه » (٣) ومدح أعرابي قوما فقال شغفوا برعي الأمانة فلا يقدون بذمة ولا ينتهكون لمسلم حرمة ولم تعلق بهم ذمة فهم خير أمة أقرول وهؤلاء الذين مدحهم الأعرابي قد انقضوا فلم نر في هذه الأزمان إلا ذنابا في ثياب كما قال :

بمن يثق الإنسان فيما بنوبه * * * ومن أين للحر الكريم صحاب

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم * * * ذنابا علي أجمادهن ثياب

(١) (صحيح) ابن ماجه (٩٠٨) ، وصحيح الجامع (٦٥٦٨) .

(٢) (حسن) الحاكم ٤ / ٦٠٧ ، وصحيح الجامع (٦٧٢٦) .

(٣) تاريخ أصفهان ٢ / ٣٠٠ .

وكما قال آخر :

ذهب الذنب يقال عند فراقهم * * * ليت البلاد وما بها تنصدع

وعن حذيفة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن الأمانة سترفع ويصبح الناس بنيابعون وما يكاد أحد منهم أن يؤذي الأمانة حتي يقال أن في بني فلان أمينا »

واعلم أن التوبة واجبة بالأخبار والآيات ، قال الله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جُنُوعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) وهذا أمر علي العموم . وقال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا » (٢) ومعني النصوص الخالص لله تعالى خاليا من الشوائب مأخوذ من النصيح ويدل علي فضل التوبة قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (٣) . وقوله ﷺ : « النائب حبيب الله والنائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٤) وقال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض مهلكة معه راحلته عايتها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتي إذا أشد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله قال أوجع مكاني الذي كنت فيه فأنام حتي أموت فوضع رأسه علي ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٥) .

ويروي عن الحسن قال لما تاب الله علي آدم - عليه السلام - هنأه الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل - عليهما السلام - فقالا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم - عليه السلام - يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأبى مقامى فأوحى الله إلي با آدم ووثت ذريتك النعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعائي منهم ليبيته كما ليبتك ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأنني قريب محبب يا آدم وأحشر النابئين من القبور مسنبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب . وقال ﷺ : « إن الله عز وجل ييسر بده بالتوبة لمسيء الليل إلي النهار إلي الليل حتي تطلع الشمس من مغربها » (٦) وبسط اليد كتابة عن طلب التوبة والطالب وواء القابل قرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا هو قابل . وقال ﷺ : « لو عملتم الخطايا حتي تبلغ السماء ثم دتمتم لناب الله عليكم » (٧) وقال ﷺ : « إن العبد ليدنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك بارسل الله قال يكون نصب عينيه تائبا منه فإرا حتي يدخل الجنة » (٨) وقال ﷺ : « كفارة الذنب

(١) آية (٣١) سورة النور .

(٢) آية (٢٢٢) سورة البقرة .

(٣) (صحيح) مسلم (٢٧٤٦) .

(٤) (صحيح) مسلم (٢٧٥٩) .

(٥) (ضعيف) ابن المبارك (٥٢) ، وضعيف الجامع (١٥٠٣) ، والضعيف (٢٠٣١) .

(٦) (ضعيف) ابن المبارك (٥٢) ، وضعيف الجامع (١٥٠٣) ، والضعيف (٢٠٣١) .

(٧) (ضعيف) ابن المبارك (٥٢) ، وضعيف الجامع (١٥٠٣) ، والضعيف (٢٠٣١) .

(٨) (ضعيف) ابن المبارك (٥٢) ، وضعيف الجامع (١٥٠٣) ، والضعيف (٢٠٣١) .

الندامة . وقال ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويروي أن حبشبا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال : نعم فولي ثم رجع فقال يا رسول الله أكان الله يراني وأنا أعملها قال : نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه .

ويروي أن الله عز وجل لما لعن إبليس سيأله النظرة فأنظره إلي يوم القيامة فقال وعزتك لا أخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أحجبت عنه توبة سادام فيه الروح . وقال ﷺ : « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » (١) من سعيد بن المسيب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفْرًا ﴾ (٢) في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر المنافقين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبهم . وقال عبد الله بن عمر من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محبت عنه في أم الكتاب .

ويروي أن نبيا من الأنبياء أذنب كذا فأوحى الله إليه وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك أن لم تعصمني لأعودن فمصمه الله تعالى .

ويروي أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأي عينيه تذرفان فقال إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلًا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

ويروي أنه كان في بني اسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطعك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك تقبلني فسمع قائلا يقول ولا يري شخصه أحببتنا فأحببتك وتركتنا فتركتك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك .

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « إذا تاب العبد تاب الله عليه وأنسي الحفظه ما كانوا كتبوا من مساوئ عمله وأنسي جوارحه ما عملت من الخطايا وأنسي مكانه من الأرض ومقامه من السماء ليجمع يوم القيامة وليس شيء من الخلق يشهد عليه » (٣) .

وروي عن علي - كرم الله وجهه - عن النبي ﷺ أنه قال : « مكتوب حول العرش قبل أن

(١) الطبراني ٩ / ١٦٠ .

(٢) آية (٢٥) سورة الإسراء .

(٣) (ضعيف) ابن عساکر ٤ / ٢٨٦ ، وضعيف الجامع (٤٢١) .

يخلق الخلق بأربعة آلاف عام : وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدي » (١) .

واعلم أن التوبة فرض عين من الذنوب الكبائر والصغائر فوراً فإن الإصرار علي الصغائر يلحقها بالكبائر ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (٢) الآية . . . والتوبة النصوح أن يتوب العبد ظاهراً وباطناً نادماً غير عازم علي العود ومثل من تاب ظاهراً فقط كمثل مزيلة بسط عليها ديباج والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها فإذا كشف عنها الغطاء أعرضوا عنها فكذلك الخلق ينظرون الي أهل الطاعة الظاهرة فإذا كشفت الغطاء يوم القيامة يوم تبلي السرائر أعرضت الملائكة عنهم ولذا قال ﷺ : « إن الله لا ينظر إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم » (٣) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : كم من تائب يجيء يوم القيامة يظن أنه تائب وليس بتائب أي لأنه لم يحكم أبواب التوبة من الندم والعزم علي عدم العود ورد المظالم لأربابها إن أمكن واستحلالهم منها أن تيسر وإلا أكثر من الاستغفار له ولهم عسي الله أن يرضيهم عنه ونسيان الذنب من أفيح المصائب فعلي العاقل أن يحاسب نفسه ولا ينسي ذنبه كما قيل :

يا أيها المذنب المحصي جرائمه * لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا

وتب إلي الله قبل الموت واتزجرا * يا عاصيا واعترف أن كنت معترفا

وروي الفقيه أبو الليث بسنده قال دخل عمر - رضي الله عنه - علي رسول الله ﷺ باكيا فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا عمر » فقال يا رسول الله بالباب شاب قد أحرق فؤادي وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ « أدخله يا عمر » قال فدخل وهو يبكي فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا شاب » قال يا رسول الله أبكتني ذنوب كثيرة وخفت من جبار غضبان علي فقال رسول الله ﷺ « أشركت بالله شيئا قال لا قال أقتلت نفسا بغير حق قال لا قال فإن الله يغفر ذنبك ولو كان مثل السموات السبع والأرضين والجبال » قال ذنبي أعظم من ذلك قال ذنبك أعظم أم الكرسي قال ذنبي أعظم يا رسول الله قال ذنبك أعظم أم العرش قال ذنبي أعظم قال ذنبك أعظم أم إلهك يعني عفو الله قال بل الله أعظم وأجل قال فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم يعني عظيم التجاوز ثم قال له رسول الله ﷺ أخبرني عن ذنبك قال إني أستحي منك يا رسول الله قال بل أخبرني قال يا رسول الله إني كنت أنبش القبور منذ سبع سنين حتي ماتت جارية من بنات الأنصار فنبشت قبرها وأخذت كفنها ومضيت غير بعيد فغلب الشيطان علي فرجعت فجمعتها ثم مضيت غير بعيد وإذا بالجارية قامت وقالت ويا شاب أما تستحي من ديان يأخذ للمظلوم من الظالم تركنتني عريانة في عسكر الموتى وأوفقتني جنبا بين يدي الله عز وجل قال فوثب رسول الله

(٢) آية (١٣٥) سورة آل عمران .

(١) الانعامات (٢٧٣) .

(٣) (صحيح) مسلم (٣٣ - ٣٤) .

ﷺ وهو يدفع في قفاه ويقول يا فاسق ما أحوجك إلى النار أخرج عني فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى أربعين ليلة فلما تم له أربعون ليلة رفع رأسه إلى السماء وقال يا إله محمد وآدم وإبراهيم إن كنت غفرت لي فأعلم محمداً ﷺ وأصحابه والآن أرسل ناراً من السماء فأحرقني بها وأعجني من عذاب الآخرة فهبط جبريل علي النبي ﷺ وقال يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول لك أنت خلقت الخلق فقال بل هو خلقتني وخلقهم ورزقني ورزقهم قال جبريل - عليه السلام - يقول لك الله تعالى إني تبت علي الشاب فدعا النبي ﷺ الشاب وبشره بأن الله تعالى تاب عليه .

حكى أنه كان في زمن موسى - عليه السلام - رجل لا يستقيم علي التوبة كلما تاب أنسد فمكث علي ذلك عشرين سنة فأوحى الله تعالى إلي موسى قل لعبيدي فلان أني غضبت عليه فبلغ موسى - عليه السلام - الرسالة إلي ذلك الرجل فحزن وذهب إلي الصحراء قائلاً إلهي أنفدت رحمتك أم ضررتك معصيتي أم نفلت خزائن عفوك أم بخلت علي عبادك أي ذنب أعظم من عفوك والكرم من صفاتك القديمة واللوم من صفاتي الحادثة أفنخلب صفتي صفتك وإذ حجبت عبادك عن رحمتك فمن يرجون وإن طردتهم فإني من يقصدون إلهي إن كانت رحمتك قد نفلت وكان لابد من عذابي فأحمل علي جميع ذنوب عبادك فإني قد فديتهم بنفسي فقال الله تعالى يا موسى اذهب إليه وقل له لو كانت ذنوبك ملء الأرض لغفرتها لك بعد ما عرفتني بكمال القدرة والعفو والرحمة . وقال ﷺ : « ما من صوت أحب إلي الله من صوت عبد مذبذب تائب يقول يارب فيقول الرب لبيك يا عبيدي سل ما تريد أنت عبيدي كبعض ملائكتي أنا عن يمينك وعن شمالك وفوقك وقريب من ضمير قلبك . . إشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له » (١) .

قال ذو النون المصري - رحمه الله - إن الله عباداً نصبوا أشجاراً خطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير وعي ولا بكم وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا الصفاء فورثوا الصبر علي طول البلاء ثم تولت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتي وصلوا إلي علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلنوا خشونة المضجع حتي ظفروا بجبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في العلا حتي أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوي حتي نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا برياح النجاة في بحر السلامة حتي وصلوا إلي رياض الراحة ومعدن العز والكرامة .

الباب الثامن عشر

في فضل المترحم

قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة إلا رحيم قالوا يا رسول الله كلنا رحيم قال ليس الرحيم من يرحم نفسه خاصة ولكن الرحيم من يرحم نفسه وغيره » (١) . ومعني رحمة لنفسه أن يرحمها من عذاب الله تعالى بترك المعاصي والتوبة منها وفعل الطاعات والإخلاص فيها ومعني رحمة لغيره أن لا يسعى في أذية المسلم . قال ﷺ : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » (٢) ويرحم البهائم فلا يكلفها مالا تطيق . فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي في الطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فاشرب ثم طلع فإذا كلب يلث من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني فملا خفه ماء ثم أمسكه بفيه فسقي الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له قالوا يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً قال في كل ذات كبد رطبة أجر » (٣) .

وعن أنس بن مالك قال بينما عمر - رضي الله عنه - يعس ذات ليلة إذا مر برفقة قد نزلت فخشي عليهم السرقة فلقي عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - فقال ما الذي جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين قال مررت برفقة قد نزلت فحدثني نفسي أنهم إذا باتوا ناموا فخشيت عليهم السارق فانطلق بنا نحرسهم قال فانطلقنا فقمعد قريباً من الرفقة يحرسان حتي إذا طلع الفجر نادى عمر - رضي الله عنه - يا أهل الرفقة الصلاة حتي إذا رآهم تحركوا انصرف فعلينا أن نفتدي بالصحابة - رضي الله عنهم - فقد مدحهم الله تعالى بقوله رحماء بينهم وكانوا رحماء علي المسلمين وعلي جميع الخلق وكانوا يرحمون أهل الذمة .

فقد روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه رأي رجلاً من أهل الذمة يسأل علي أبواب الناس وهو شيخ كبير فقال له عمر - رضي الله عنه - ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك اليوم وأمر أن يجري عليه قوته من بيت مال المسلمين .

وعن الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بدلاء أمتي لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام ولكن يدخلونها بسلامة الصدور وسخاوة النفوس والرحمة لجميع المسلمين » (٤) . وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من

(١) كثر العمال (٥٩٧٤) .

(٢) صحيح البخاري (٦٤٨٤) .

(٣) صحيح البخاري (٦٠٠٩) .

(٤) كتاب الأروياء (٥٨) .

السماء^(١) وعنه ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له »^(٢) وقال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم وأن تستغفر لذنوبهم وأن تعود مريضهم وأن تحب تائبهم »^(٣).

وروي أن موسى عليه السلام قال يا رب بأي شيء اتخذتني صفيا قال برحمتك علي خلقي . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يتبع الصبيان فيشتري منهم العصافير فيرسلها ويقول اذهبي فبعي . وقال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسعي والهرم »^(٤).

حكاية : مر عابد من بني اسرائيل علي كتيب من رمل وقد أصابت بني اسرائيل مجاعة عظيمة فتمني في نفسه أن هذا لو كان دقيقا لا شبع به بني اسرائيل فأوحى الله إلي نبي بني اسرائيل أن قل لفلان أن الله تعالى قد أوجب لك من الأجر ما لو كان دقيقا واشبعت به الناس ولذلك قال رسول الله ﷺ : « نية المؤمن خير من عمله »^(٥).

حكى : أن عيسى - عليه السلام - خرج يوما فلقي إبليس ويده غسل وفي الآخري رماد فقال ما تفعل يا عدو الله بهذا العسل والرماد ؟ قال أما العسل فأجعله علي شفاه المغتابين حتي يبلغوا منها ، وأما الرماد فأضعه علي وجه اليتامي حتي يغضهم الناس . وقال ﷺ : « إن اليتيم إذا ضرب اهتر عرش الرحمن ليكافئه فيقول الله عز وجل يا ملائكتي من أبكي هذا الصبي الذي غيبت أباه في التراب »^(٦) وقال ﷺ : « من أوي يتيما إلي طعامه وشرابه أوجب الله له الجنة »^(٧) وفي روضة العلماء كان إبراهيم - عليه السلام - إذا أراد أن يأكل طعاما مشي الميل والميلين يطلب من يأكل معه ويكي علي كرم الله وجهه يوما فليل مايكيك قال لم يأتي ضيف منذ سبعة أيام فأخاف أن يكون الله قد أهانني . وقال رسول الله ﷺ : « من أطعم جائعا يريد به وجه الله وجبت له الجنة ومن منع الطعام عن الجائع منع الله عنه فضله يوم القيامة وعذبه في النار » . وقال رسول الله ﷺ : « السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار » . وقال ﷺ : « الجاهل والبخيل بعيد عن الله بعيد من الجنة بعيدا من الناس قريب من النار »^(٨) . وقال ﷺ : « الجاهل

(١) (صحيح) أبوداود (٤٩٤١) ، وصحيح الجامع (٣٥٢٢) .

(٢) (صحيح) البخاري (٦٠١٣) .

(٣) انحاء السادة المتقين ٦ / ٢٥٢ .

(٤) (صحيح مسلم (٢٥٨٦) .

(٥) (ضعيف) الطبراني ٦ / ٢٢٨ ، وضعيف الجامع (٥٩٧٦) .

(٦) (ضعيف) ابن عدي ٢ / ٧٢٢ .

(٧) شرح السنة ١٣ / ٤٤ .

(٨) (ضعيف جداً) الضعيفة (١٥٤) ، وضعيف الجامع (٣٣٤١) .

السخي أحب إلي الله من العابد البخيل^(١) وقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يدخل الجنة أربعة بغير حساب : العالم الذي يعمل بعلمه ، ومن حج ولم يرفث ولم يفسق حتي مات ، والشهيد الذي قتل في المعركة لإعلاء كلمة الإسلام ، والسخي الذي اكتسب مالا من الحلال وأنفق في سبيل الله بغير رياء فهو لا ينازع بعضهم بعضا أبهم يدخل الجنة أولا » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع علي العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها إلي غيره »^(٢) وقال ﷺ : « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلي الأرض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلي الجنة »^(٣) وعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل : « قال : الصبر والسماحة »^(٤) وروي المقدم بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دلني علي عمل يدخلني الجنة قال : « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام ، وإنشاء السلام ، وحسن الكلام »^(٥) .

الباب التاسع عشر

في بيان الخشوع في الصلاة

جاء في الخبر أن جبريل - عليه السلام - جاء يوما إلي النبي ﷺ وقال : يا رسول الله كنت رأيت ملكا في السماء علي سرير وحوله سبعون ألف ملك صفوفا يخدمون وكل نفس يتنفس ذلك الملك يخلق الله من نفسه ملكا والآن وأيت ذلك الملك علي جبل قاف منكسر الجناح وهو يبكي فلما رأيته قال أتشفع لي قلت ما جرمك قال كنت علي السرير ليلة المعراج فمر بي محمد ﷺ فما قمت له فعاقبني الله بهذه العقوبة وجعلني في هذا المكان كما تري قال فتضرعت إلي الله فشفعت له فقال الله تعالى يا جبريل قل له حتي يصلي علي محمد فصلي ذلك الملك عليك فعفا الله عنه وأبنت جناحيه .

إعلم : أنه ورد أن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله ، وإن وجدت ناقصة ردت إليه وسائر عمله وقال ﷺ : « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفي أستوفي » . وقال يزيد الرقاشي كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها

(١) التخريج السابق .

(٢) تاريخ أصفهان ٢ / ٢٧٦ ، وتذكرة الموضوعات (٦٤) .

(٣) (ضعيف) الموضوعات ٢ / ١٨٢ ، وتنزيه الشريعة ٢ / ١٣٩ ، وضعيف الجامع (٣٣٤٠) .

(٤) أحمد ٤ / ٦٨٥ .

(٥) (صحيح) تاريخ أصفهان ١ / ٢٠٧ ، وصحيح الجامع (٢٢٣٢) ، والصحيحة (١٠٣٥) .

...ورونه ، وقال ﷺ : « إن الرجلين من أمتي ليقرمان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد
 ومن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض وأشار إلى الخشوع » قال ﷺ : « لا ينظر الله يوم
 القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده » (١) وقال ﷺ : « من صلى صلاة لوقتها
 وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله
 كما أحفظني ومن صلى صلاة لغبر وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها
 ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعني حتى إذا كانت حيث شاء
 الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه » (٢) . وقال ﷺ : « أسوأ الناس سرفة الذي
 يسرق من صلاته » (٣) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن
 طفف فقد علم ما قال الله ﴿ وَيَلْ لَمَطُفِينَ ﴾ (٤) وقال بعض العلماء مثل المصلي مثل التاجر الذي
 لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي
 الفريضة . وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يقول إذا حضرت الصلاة فوموا إلى نار ويكم التي
 أوقدتموها فأطفئوها . وقال ﷺ : « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » . وقال ﷺ : « من لم تنه
 صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا وصلاة الغافل لا تمتع من الفحشاء والمنكر »
 (٥) . وقال ﷺ : « كم من فائمه وليس له من قيامه إلا التعب والتصب » . وما أراد به إلا الغافل ،
 وقال ﷺ : « ليس للعبد من صلاته إلا ما عفل منها » وقال أهل المعرفة الصلاة أربعة أشياء ،
 الشروع مع العلم والقيام مع الحياء والأداء مع التعظيم والخروج مع الخوف . وقال بعض المشايخ
 من لم يجمع قلبه على الحقيقة فسدت صلاته . وقال رسول الله ﷺ : « في الجنة نهر يقال له
 الأنبيح فيه حوارى خلقهن الله من الزعفران يلعبن بالدر والياقوت يسبحن الله بسبعين ألف لغة
 أصواتهن أطيب من صوت داود - عليه السلام - ويقلن نحن لمن صلى صلاته بالخشوع والحضور
 فيقول الله تعالى لأسكنته دارى ولأجعلنه من زوارى » (٦) .

وروى أن الله تعالى أوحى إليه قل لعصاة أمتك لا يذكروني فإن ذكرتني فاذكرني وأنت
 تتفصض أعضاؤك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا
 قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجى بقلب وجل ولسان صادق .

وروى أن الله تعالى أوحى إليه قل لعصاة أمتك لا يذكروني فإنى ألبت على نفسي أن من
 ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة هذا في عاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت
 الغفلة والعصيان . قال بعض الصحابة - رضي الله عنهم - يحشر الناس يوم القيامة على مثال

(١) أحمد ٢٢ / ٤ .

(٢) انحاء السادة المتقين ١٢ / ٣ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) آية (١) سورة المطففين .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) إن لم يكن موضوعاً ، فهو ضعيف .

هبتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة . ورأى النبي ﷺ رجلا
 يعبث بلحيته في صلاته فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه وقال من لم يخشع قلبه ردت
 صلاته . وأعلم أن الله مدح الخاشعين المتواضعين في الصلاة في غير آية فقال : ﴿ فِي صَلَاتِهِمْ
 خَاشِعُونَ ﴾ (١) ﴿ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٣) فيل أن المصلين كثير
 والخاشعين في الصلاة قليل ، والحاج كثير والبار قليل والطير كثير والعنديل قليل والعالم كثير
 والعامل قليل والصلاة محل الخشوع ومعدن التواضع وهذا علامة القبول فإن للجواز
 شرط وللقبول شرط فشرط الجواز أداء فرضها وشرط القبول الخشوع . قال تعالى : ﴿ فَذُفِّحْ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿ (٤) آية . . والتقوى قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ
 مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) وقال ﷺ : « من صلى ركعتين مقبلا فيهما على الله بقلبه خرج من ذنوبه كيوم
 ولدته أمه » .

وأعلم أنه لا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة فلا بد من دفعها ودفعها فديكون
 بالصلاة في مكان مظلم أو خال عن الشواغل من الأصوات والقرش المنقوشة والتجرد عن
 الملابس المزينة بحيث تلهي إذا نظر إليها في الصلاة كما روى أنه ﷺ لما لبس الخميصة التي أناه بها
 أبو جهم وعليها علم وصلى بها تزعا بعد صلاته وقال اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها الهنتى أنفا
 عن صلاتي وأمر ﷺ بتجديد شرك نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها
 ويرد الشرك الخلق وكان ﷺ في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال ،
 شغلنى هذا نظرة إليه ونظرة البكم .

وعن وجل آخر أنه صلى في حائط له والنخيل مطوفة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم بدر كم
 صلى فذكر ذلك لعثمان - رضي الله عنه - وقال هو صدقة فاجعله في سبيل الله عز وجل فباعه
 بخمسين ألفا ، وقال بعض السلف : أربعة في الصلاة من الجفاء الالتفات ، ومسح الوجه ،
 وتسوية الخصا وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك . قال ﷺ : إن الله عز وجل مقبل على المصلي
 ما لم يلتفت . وكان الصديق - رضي الله عنه - في صلاته كأنه وتد وبعضهم كان يسكن في
 ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء
 الدنيا ، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك .

وفى النوازة مكتوب يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكباً فأنا الله الذي افتربت

(١) آية (٢) سورة المؤمنون .

(٢) آية (٢٣) سورة المعارج .

(٣) آية (٩٢) سورة الأنعام .

(٤) آية (٢٧) سورة المائدة .

(٥) آية (٢ - ١) سورة المؤمنون .

من قلبك وبالعجب رأيت نوري .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال على المنبر : أن الرجل لبشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة ، وقيل وكيف ذلك ؟ قال لا يتم خشوعها ونواضعها وإقباله على الله - عز وجل - فيها . وسئل أبو العالبة عن قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ^(١) قال هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر . وقال الحسن هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج . وقال عليه السلام : قال الله تعالى : لا بنجو مني عبدى إلا بأداء ما افترضته عليه .

الباب العشرون

في بيان الغيبة والنميمة

إعلم أن الله سبحانه وتعالى نص على ذم الغيبة في كتابه وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة قال تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ^(٢) وقال عليه السلام : « كل المسلم على المسلم حرام ! دمه وماله وعرضه » ^(٣) وقال عليه السلام : « أياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد بزى فيتوب ، فيتوب الله عليه وأن صاحب الغيبة لا يذنب له حتى يغفر له صاحبها » ^(٤) وقالوا مثل من يغتاب للناس كمثل من نصب منجنيقا فهو يرمى بها يمينا وشمالا فهو يرمى بحسانته كذلك . وقال عليه السلام : « من رمى أخاه بعبية يبردها شبيهة أوقفه الله تعالى على حسر جهنم يوم القيامة حتى يخرج مما قال » وقال رسول الله عليه السلام : « الغيبة ذكر ك أخاك بما يكره » ^(٥) أي سواء ذكرته بنقصان بدنه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه في ثوبه وردائه ودابته ، حتى ذكر بعض المتقدمين لو قلت أن فلانا ثوبه طويل أو قصير يكون ذلك غيبة فكيف ما يكره من نفسه .

وروى أن امرأة فصيحة دخلت على النبي عليه السلام في بعض حاجاتها فلما خرجت قالت عائشة - رضي الله عنها - ما أفصرها فقال النبي عليه السلام : « إغتبني يا عائشة » . وقال عليه السلام في ذم النميمة « شر الناس يوم القيامة ذو الرجحين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » ^(٦) . وعن النبي عليه السلام أنه

(١) آية (٥) سورة الماعون .

(٢) آية (١٢) سورة الحجرات .

(٣) (صحيح) مسلم (٢٥٦٤) ، وأحمد ٢ / ٢٧٧ .

(٤) (ضعيف) الخفاف الساحة المتقين ٧ / ٥٣٣ ، وضعيف الجامع (٢٢٠٤) ، والضعيفة (١٨٤٦) .

(٥) (صحيح) الترمذي (١٩٣٤) .

(٦) (صحيح) البخاري (٦٠٥٨) ، ومسلم (٢٥٢٦) .

قال : « لا بدخل الجنة غمام » ^(١) فإن قيل ما الحكمة في أن الله تعالى خلق كل مخلوق ذالسان ناطق وغير ناطق وليس للسماك لسان أصلا فقيل لأن الله تعالى لما خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم إلا إبليس فلعنه الله وأخرجه من الجنة ومسحه فأهبط إلى الأرض نجاة إلى البحار فأول ما رآه السمك فأخبره بخلق آدم وقال إنه يصطاد ويأخذ دواب البحر والبر فبلغ السمك دواب البحر بخبر آدم فأذهب الله لسانه .

حكى : عن عمرو بن دينار أنه قال كان رجل من أهل المدينة له أخت في ناحية المدينة فاشتكت فكان يأتيها يمودها ثم ماتت وجهازها وحملها إلى القبر فلما دفنت رجع إلى أهلها ثم ذكر أن له كيسا كان معه فضبعه في القبر فاستعان برجل من أصحابه فأبنا القبر فنبشاه فوجدا الكيس فقال الرجل تنح عني حتى أنظر على أي حال هي فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر يشتعل نارا فرجع إلى أمه فقال أخبريني علام كانت أختي فقالت كانت أختك تأتي أبواب الجيران فتلنى أذننا إلى أبوابهم حتى تستمع الحديث لكي تمشي بالنميمة . فعلم أن هذا سبب عذاب القبر فمن أراد أن ينجو من عذاب القبر فليحذر من النميمة والغيبة .

وحكى : عن أبي الليث البخاري أنه خرج حاجا فجعل في جيبه درهمين وحلف إن أغتبت أحدا في طريق مكة ذاهبا أو آييا فلله على أن أنصدق بهما فذهب إلى مكة ورجع إلى منزله والدرهمان في جيبه فقيل له في ذلك قال لأن أذن مائة مرة أحب إلى أن اغتاب مرة واحدة . قال أبو حفص الكبير لو لم أصم رمضان أحب إلى من أن اغتاب إنسانا ثم قال من اغتاب فقيها جاء يوم القيامة مكتوبا على وجهه هذا آيس من رحمة الله وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال قال رسول الله عليه السلام : « مررت ليلة أسري بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم ويأكلون الجيفة فقلت من هؤلاء باجبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس في الدنيا » . وقال الحسن - رضي الله عنه - والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه .

وروى أن سلمان كان في سفر مع أبي بكر وعمر وكان يطبخ لهما فنزلوا منزلا فلم يتهيا أن يصلح لهم من الطعام فبعثاه إلى النبي عليه السلام لينظر عنده شيئا من الطعام فلم يجد فرجع إليهما فقالا أنه لو ذهب إلى بشر كذا ليس ماؤها فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ^(٢)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال . . قال رسول الله عليه السلام : « من أكل لحم أخيه في الدنيا

(١) (صحيح) مسلم (١٠٥) ، وأحمد ٥ / ٣٩١ .

(٢) آية (١٢) سورة الحجرات .

قدم إليه حمه يوم القيامة ويقال كله مبنا فإنك أكلته حيا فأكله . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَهْبِأْ أَعْدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ (١).

وروى عن جابر بن عبد الله الأنصاري - رضى الله عنه - إن ربح الغيبة كانت تبين في عهد رسول الله ﷺ وذلك لفلتنها ، وأما في هذه الأزمان فقد كثرت الغيبة وامتلات الأنوف منها فلا تتميز رائحتها ، ومثل ذلك كمثل رجل دخل دار الدباغين فلم يقدر على الفرار فيها من شدة الرائحة ونشئها وأهلها المقيمون فيها يأكلون الطعام ويشربون فيها ولا تبين لهم تلك الرائحة الممتنة لأنها ملأت أنوفهم فكذلك أمر الغيبة في أيامنا هذه .

قال كعب - رضى الله عنه - : فرأت في بعض الكتب أن من مات تابيا من الغيبة كان آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها كان أول من يدخل النار . قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ لَئِذَا هُمُزَةٌ لَئِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ ﴾ (٢) أى أشد العذاب للهمزة الذى يعيبك فى الغيب واللمزة الذى يعيبك فى وجهك . والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وكان يفتاب النبى ﷺ والمسلمين فى وجوههم ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعد عاما . وقال رسول الله ﷺ : إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنا ، قالوا كيف تكون الغيبة أشد من الزنا قال أن الرجل يزنى ثم يتوب فيتوب الله عليه وأن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يعفو عنه صاحبه (٣) فالواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ليخرج من حق الله ثم يستحل المغتاب لبحله قبخرج من مظلمته .

وقال ﷺ : « من اغتاب أخاه المسلم حول الله وجهه إلى دبره يوم القيامة » . وينبغي لصاحب الغيبة أن يستغفر الله تعالى قبل القيام من المجلس وقبل أن تصل إلى المغتاب لأنه إذا تاب صاحب الغيبة قبل وصولها إلى المغتاب تقبل نوبته أما إذا بلغته فلا يرفع عنه الإثم بالتوبة ما لم يجعله فى حل ، وذلك إذا زنى بامرأة لها زوج قبله الخبر لا يرفع بالتوبة ما لم يجعله فى حل وأما ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج فلا يرفع بالتوبة بل بقضاء الفائت من ذلك والله أعلم .

الباب الحادى والعشرون

فى بيان الزكاة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٤) بمعنى يؤدون وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقا إلا إذا كان

م انقيامة صفحت له صفائح من نار فأحس عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره أى يرسع جسمه لها كلها وإن كثرت كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . يقضى بين العباد فىرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . . . الحديث (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْنِزُونَ ﴾ (٢) يوم يحسب عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم تكنزون (٣) وقال رسول الله ﷺ : « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ظلّمونا ظلّمونا التى فرضت عليهم » . فيقول الله تعالى وعزتى وجلالى لأديننكم ولا أباعدنهم ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ حِقْلٌ مَعْلُومٌ ﴾ (٤) للسايل والمحروم (٥).

وروى أنه ﷺ « مر ليلة أسرى به على قوم على أديابهم وفاع وعلى أنبالهم رفاع يسرحون كما تسرح الأنعام الضريع والزقوم ورضف جهنم قال : من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد .

وحكى : أن جماعة من التابعين خرجوا لزيارة أبى سفيان فلما دخلوا عليه وجلسوا عنده قال قوموا بنا نزوو جارنا مات أخوه ونعزبه فيه ، قال محمد بن يوسف القزباتى فقمنا معه ودخلنا على ذلك الرجل فوجدناه كثير البكاء والجزع على أخيه فجعلنا نعزبه ونسلبه وهو لا يقبل تسليته ولا عزاء فقلنا له أما تعلم أن الموت سبيل لا بد منه فإلى أبى ولكن أبكى على ما أصبح وأمسى فيه أخى من العذاب فقلنا له فد أطلعك الله على الغيب قال لا ولكن لما دفتته وسويت عليه التراب وانصرف الناس جلست عند قبره وإذا صوت من قبره يقول أه أفردونى وحيدا أفاسى العذاب فد كنت أصوم فد كنت أصلى قال فأبكاني كلامه فنبشت عنه التراب لأنظر ما حاله وإذا القبر يلمع عليه نارا وفى عنقه طوق من نار فحملتنى شفقة الأخوة ومددت يدي لأرفع الطوق من رقبته فاحترفت أصابعى ويدي ثم أخرج البنا بده فإذا هى سوداء محترقة قال فرددت عليه التراب وانصرفت فكيف لا أبكى على حاله وأحزن عليه فقلنا فما كان أخوك يعمل فى الدنيا قال كان لا يؤدى الزكاة من ماله قال فقلنا هذا تصديق قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بُعَا أَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُمْ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٤) . وأخوك عجل له العذاب فى قبره إلى القيامة قال ثم خرجنا من عنده وأتينا أبا ذر صاحب رسول الله ﷺ وذكرنا له قضية الرجل وقلنا له يموت اليهودى والنصرانى ولا ترى فيهم ذلك قال أولئك لاشك أنهم فى النار وإنما يريكم الله أهل الإيمان لتعتبروا ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

(٢) آية (٣٥-٣٤) سورة التوبة .

(٤) آية (١٨٠) سورة آل عمران .

(١) صحيح (مسلم ٩٨٧٠) .

(٣) آية (٢٤-٢٥) سورة الماعز .

(٢) آية (١) سورة الهمزة .

(٤) آية (٤) سورة المؤمنون .

(١) الاغاف ٧ / ٥٣٦ .

(٣) سبق .

عَنْكُمْ بِحَقِّهِ (١). وجاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال مَنِعَ الزَّكَاةِ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصَارِيِّ وَمَنْعَ الْعَشْرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَةِ الْمَجُوسِ وَمَنْعَ الزَّكَاةِ وَالْعَشْرِ مِنْ مَالِهِ مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّ ﷺ وَلَا تَقْبَلُ شَهَادَتُهُ وَقَالَ طَوْبَى لَهُ أَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ وَالْعَشْرَ وَطَوْبَى لِمَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ عَذَابُ الزَّكَاةِ وَعَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ مِنْ مَالِهِ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَ الْقَبْرِ وَحَرَّمَ اللَّهُ لَحْمَهُ عَلَى النَّارِ وَأَوْجِبَ لَهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا يَضِلُّهُ عَطَشُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

الباب الثاني والعشرون

في بيان الزنا

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٢) أي من الفواحش وعملا لا يحل لهم كما قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (٣) يعني ما كبير وهو الزنا وما صغر وهو القبلة واللمس والنظرة كما جاء في الخبر عن سيد البشر ﷺ أنه قال : « الْبِدَانُ وَالرَّجُلَانِ تَزْنِيَانِ وَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ » (٤) قال الله تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ (٥) الآية . . . قد أمر الله تعالى الرجال والنساء بغض البصر عن الحرام ويحفظ الفرج عن الحرام وقد حرم الله الزنا في آيات كثيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٦) يعني عذابا في النار ويقال واديا في النار ويقال جب في النار إذا فتح فمه صاح أهل جهنم من خبث رائحته .

وروى عن بعض الصحابة أنه قال : إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة فأما التي في الدنيا فتقصان الرزق وقطع الأجل وسواد الوجه وأما التي في الآخرة فغضب الله وشدة الحساب ودخول النار .

وروى أن موسى - عليه السلام - قال يارب ما لمن زنى ؟ قال الله تعالى البسه درعا من النار لو وضع على جبل شاهق لأصبح رمادا .

وورد أن امرأة فاجرة أحب إلى إبليس من ألف فاجر . وفي المصليح قال رسول الله ﷺ : « إِذَا زَنَى الْعَبْدُ خَرَجَ الْإِيمَانُ وَكَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ كَالظِّلَّةِ فَإِذَا خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ » (٧) . وفي كتاب الإفناء قال النبي ﷺ : ما ذنب أعظم عند الله من نطفة يضعها الرجل

(١) آية (١٠٤) سورة الأنعام .

(٢) آية (٥١) سورة الأنعام .

(٣) آية (٣٠) سورة النور .

(٤) (صحيح) أبو داود (٤٦٩٠) .

(٥) آية (٥) سورة المؤمنون .

(٦) أحمد ٣٤٣ / ٢ .

(٧) آية (٦٨) سورة الفرقان .

في رحم من لا نخل له . واللواط أشد من الزنا لما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : من لا ط لا يجد رائحة الجنة وإن وانحتها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام . قال القاضي الإمام رحمه الله سمعت بعض المشايخ يقول إن مع كل امرأة شيطانا ومع كل غلام ثمانية عشر شيطانا . وروى من قبل غلاما بشهوة عذبه الله تعالى في النار خمسمائة عام ومن قبل امرأة بشهوة فكأنما زنى بسبعين بكرا ومن زنى بالبكر فكأنما زنى بسبعين ألف ثيب .

وفي روثق التفاسير قال الكلبي : إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس لعنه الله فنصور في صورة غلام أمرد جميل ثم دعاهم إلى نفسه فتكحوه فصار ذلك عادة لهم في كل غريب فأرسل لهم لوط - عليه السلام - فنهاهم عن ذلك ودعاهم إلى عبادة الله ونوعدهم على إصرار المعصية بعذاب الله فقالوا له اتتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، فسأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال رب انصرنى على القوم المفسدين فأمر الله السماء أن تمطر عليهم الحجارة مكتوب على كل حجر اسم من رمى به وهو معنى قوله ﴿ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (١) أي معلمة أى عليها علامة في خزائن الله أو في حكمه .

وحكى : أن رجلا فاجرا من قوم لوط كان بمكة فجاء حجر ليصبيه في الحرم فقالت الملائكة للحجر ارجع من حيث جئت فإن الرجل في حرم الله فرجع الحجر فوقف خارج الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض حتى قضى الرجل تجارته فلما خرج أصابه الحجر خارجا عن الحرم فأهلكه وكان لوط قد أخرج امرأته معه ونهى من تبعه أن يلتفت خلفه إلا امرأة لوط فلأنها لما سمعت هذا العذاب التفت وقالت وافوماء فأدركها حجر فوقع على رأسها فقتلها . قال مجاهد لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم وقلعها من أركانها ثم أدخل جناحه ثم حملها على حوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها فكان أول ما سقط منها سرادقها فلم يصب قوما ما أصابهم ثم إن الله طمس على أعينهم ثم قلبت قريتهم وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة يقال كان فيها أربعة آلاف لف .

الباب الثالث والعشرون

في صلة الرحم وحقوق الوالدين

قال الله تعالى : ﴿ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ (٢) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها .

(١) آية (٨٣) سورة هود .

(٢) آية (١) سورة النساء .

وقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفِيدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَوْحَامَكُمْ ﴾ (١٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ يَحْضَرُونَ أُنْفُسَهُمْ فِي يَوْمِ أَنْقَضَ عَنْهُمْ الْوَعْدُ الَّذِي لَعَنَهُ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢)

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قال فذلك لك » . ثم قال رسول الله ﷺ : افراوا أن شتمتم ؟ فهل غنيمت إن تركتم أن تغدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴿٢٦﴾ أولئك الذين لعنهم الله فاضنهم وأعنى أنصارهم » . ورواه أيضا الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد (٣) عن أبي بكره - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » (٤) والشيخان : « لا يدخل الجنة قاطع » قال سفيان بن عيينة قاطع رحم . وأحمد بسنده ورواه ثقات : « إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم » .

وابن حبان وغيره : « ثلاثة لا يدخلون الجنة . . مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسر »^(٥) . وأحمد مقتصرا وابن أبي الدنيا والبيهقي : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب فنبصحوها فدمسخوا فردة وخنازير وليصبيتهم خسف وفذف حتى يصبح الناس فيقولون خسف الليلة ببنى فلان وخسف الليلة بدار فلان ولنرسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور ولنرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادا على قبائل فيها وعلى دور بشرهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم الفينات وأكلهم الربا وفطبتهم الرحم »^(٦) وخصلة نسبها جعفر والطبراني في الأوسط .

عن جابر - رضي الله عنه - قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال : « يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغى وإياكم وعقوف الوالدین فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف

(١) آية (٢٢-٢٣) سورة محمد . (٢) آية (٢٥) سورة الرعد .

(٣) (صحیح) البخاری (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٤) (صحیح) الترمذی (٢٥١١) .

(٦) (صحیح) الحاکم ٤ / ٥١٥ .

1997, 1998, 1999, 2000, 2001, 2002, 2003, 2004, 2005, 2006, 2007, 2008, 2009, 2010, 2011, 2012, 2013, 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020, 2021, 2022, 2023, 2024, 2025, 2026, 2027, 2028, 2029, 2030, 2031, 2032, 2033, 2034, 2035, 2036, 2037, 2038, 2039, 2040, 2041, 2042, 2043, 2044, 2045, 2046, 2047, 2048, 2049, 2050, 2051, 2052, 2053, 2054, 2055, 2056, 2057, 2058, 2059, 2060, 2061, 2062, 2063, 2064, 2065, 2066, 2067, 2068, 2069, 2070, 2071, 2072, 2073, 2074, 2075, 2076, 2077, 2078, 2079, 2080, 2081, 2082, 2083, 2084, 2085, 2086, 2087, 2088, 2089, 2090, 2091, 2092, 2093, 2094, 2095, 2096, 2097, 2098, 2099, 2100, 2101, 2102, 2103, 2104, 2105, 2106, 2107, 2108, 2109, 2110, 2111, 2112, 2113, 2114, 2115, 2116, 2117, 2118, 2119, 2120, 2121, 2122, 2123, 2124, 2125, 2126, 2127, 2128, 2129, 2130, 2131, 2132, 2133, 2134, 2135, 2136, 2137, 2138, 2139, 2140, 2141, 2142, 2143, 2144, 2145, 2146, 2147, 2148, 2149, 2150, 2151, 2152, 2153, 2154, 2155, 2156, 2157, 2158, 2159, 2160, 2161, 2162, 2163, 2164, 2165, 2166, 2167, 2168, 2169, 2170, 2171, 2172, 2173, 2174, 2175, 2176, 2177, 2178, 2179, 2180, 2181, 2182, 2183, 2184, 2185, 2186, 2187, 2188, 2189, 2190, 2191, 2192, 2193, 2194, 2195, 2196, 2197, 2198, 2199, 2200, 2201, 2202, 2203, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2209, 2210, 2211, 2212, 2213, 2214, 2215, 2216, 2217, 2218, 2219, 2220, 2221, 2222, 2223, 2224, 2225, 2226, 2227, 2228, 2229, 2230, 2231, 2232, 2233, 2234, 2235, 2236, 2237, 2238, 2239, 2240, 2241, 2242, 2243, 2244, 2245, 2246, 2247, 2248, 2249, 2250, 2251, 2252, 2253, 2254, 2255, 2256, 2257, 2258, 2259, 2260, 2261, 2262, 2263, 2264, 2265, 2266, 2267, 2268, 2269, 2270, 2271, 2272, 2273, 2274, 2275, 2276, 2277, 2278, 2279, 2280, 2281, 2282, 2283, 2284, 2285, 2286, 2287, 2288, 2289, 2290, 2291, 2292, 2293, 2294, 2295, 2296, 2297, 2298, 2299, 2300, 2301, 2302, 2303, 2304, 2305, 2306, 2307, 2308, 2309, 2310, 2311, 2312, 2313, 2314, 2315, 2316, 2317, 2318, 2319, 2320, 2321, 2322, 2323, 2324, 2325, 2326, 2327, 2328, 2329, 2330, 2331, 2332, 2333, 2334, 2335, 2336, 2337, 2338, 2339, 2340, 2341, 2342, 2343, 2344, 2345, 2346, 2347, 2348, 2349, 2350, 2351, 2352, 2353, 2354, 2355, 2356, 2357, 2358, 2359, 2360, 2361, 2362, 2363, 2364, 2365, 2366, 2367, 2368, 2369, 2370, 2371, 2372, 2373, 2374, 2375, 2376, 2377, 2378, 2379, 2380, 2381, 2382, 2383, 2384, 2385, 2386, 2387, 2388, 2389, 2390, 2391, 2392, 2393, 2394, 2395, 2396, 2397, 2398, 2399, 2400, 2401, 2402, 2403, 2404, 2405, 2406, 2407, 2408, 2409, 2410, 2411, 2412, 2413, 2414, 2415, 2416, 2417, 2418, 2419, 2420, 2421, 2422, 2423, 2424, 2425, 2426, 2427, 2428, 2429, 2430, 2431, 2432, 2433, 2434, 2435, 2436, 2437, 2438, 2439, 2440, 2441, 2442, 2443, 2444, 2445, 2446, 2447, 2448, 2449, 2450, 2451, 2452, 2453, 2454, 2455, 2456, 2457, 2458, 2459, 2460, 2461, 2462, 2463, 2464, 2465, 2466, 2467, 2468, 2469, 2470, 2471, 2472, 2473, 2474, 2475, 2476, 2477, 2478, 2479, 2480, 2481, 2482, 2483, 2484, 2485, 2486, 2487, 2488, 2489, 2490, 2491, 2492, 2493, 2494, 2495, 2496, 2497, 2498, 2499, 2500, 2501, 2502, 2503, 2504, 2505, 2506, 2507, 2508, 2509, 2510, 2511, 2512, 2513, 2514, 2515, 2516, 2517, 2518, 2519, 2520, 2521, 2522, 2523, 2524, 2525, 2526, 2527, 2528, 2529, 2530, 2531, 2532, 2533, 2534, 2535, 2536, 2537, 2538, 2539, 2540, 2541, 2542, 2543, 2544, 2545, 2546, 2547, 2548, 2549, 2550, 2551, 2552, 2553, 2554, 2555, 2556, 2557, 2558, 2559, 2560, 2561, 2562, 2563, 2564, 2565, 2566, 2567, 2568, 2569, 2570, 2571, 2572, 2573, 2574, 2575, 2576, 2577, 2578, 2579, 2580, 2581, 2582, 2583, 2584, 2585, 2586, 2587, 2588, 2589, 2590, 2591, 2592, 2593, 2594, 2595, 2596, 2597, 2598, 2599, 2600, 2601, 2602, 2603, 2604, 2605, 2606, 2607, 2608, 2609, 2610, 2611, 2612, 2613, 2614, 2615, 2616, 2617, 2618, 2619, 2620, 2621, 2622, 2623, 2624, 2625, 2626, 2627, 2628, 2629, 2630, 2631, 2632, 2633, 2634, 2635, 2636, 2637, 2638, 2639, 2640, 2641, 2642, 2643, 2644, 2645, 2646, 2647, 2648, 2649, 2650, 2651, 2652, 2653, 2654, 2655, 2656, 2657, 2658, 2659, 2660, 2661, 2662, 2663, 2664, 2665, 2666, 2667, 2668, 2669, 2670, 2671, 2672, 2673, 2674, 2675, 2676, 2677, 2678, 26

عام والله لا يجدها عاق ولا فاطم رحم ولا شنيخ ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين. (١) -

والأصبهاني «كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال لا يجالسنا اليوم فاطم رحم فقام فنى من الحلقة فأنى خالة له قد كان بينهما بعض الشئ» فاستغفر لها فاستغفرت له ثم عاد إلى المجلس فقال النبى ﷺ : إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم فاطم رحم»

والطبراني « إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم فاطم رحم » .

والطبراني بسند صحيح عن الأعمش قال : كان ابن مسعود رضى الله عنه جالسا بعد الصبح فى حلقة فقال أنشد الله قاطع رحم لما قام عنا فلما نريد أن ندعو ربنا وأن أبواب السماء مرتجة أى بضم ففتح والجيم مخففة (مغلقة) دون قاطع رحم .

والشيخان : « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله » (٢) .
وأبو داود والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح واعترض تصحيحه بأنه منقطع ورواية
وصله قال البخاري خطأ .

عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . » أو قال بته أي قطعته .

وأحمد بإسناد صحيح : « إن من أرى الربا الاستقالة في عرض المسلم بغير حق وإن هذه الرحم شجنة من الرحمن عز وجل فمن قطعها حرم الله عليه الجنة » (٣).

وأحمد بإسناد جيد فوى وابن حبان فى صحيحه : « إن الرحم شجنة من الرحمن تقول يا رب إني قطعتم بارب إني أسئ إلى ، بارب إني ظلمت بارب بارب فبجيتها ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك » (٤).

والشجنة بكسر أوله وضمه وإسكان الجيم ، القرابة المشتبكة كاشتباك العروق ، ومعنى من الرحمن أى مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمن كما بأتى فى الحديث على الأثر والبزار باسناد حسن : «الرحم حجنة متمسكة بالعرش تكلم بلسان ذلق اللهم صل من وصلنى واقطع من

(١) (ضعيف) مجمع الزوائد ٥ / ١٢٥ .

(٢) (صحيح) البخاري (٥٩٨٨)، ومسلم (٢٥٥٥).

(٢) (صحيح) أحمد ١ / ٦٠ .

(٤) (صحيح) أحمد ٢ / ٤٠٦، ٤٥٥.

نفعنى . فيقول الله تبارك وتعالى : أنا الرحمن الرحيم وأنى شفت الرحمة من اسمى فمن وصلها وصلته ومن يتكلم بتكلمته . الجنة ، بفتح الحاء المهملة والجيم ونخفيف النون ، صدارة المعزل أى الحديقة المتقفاة التى يعلق بها الخطيط ثم يقتل الغزل والبنك القطع ، والبزار : ثلاث متعلقات بالعرش : الرحم تقول : إني بك فلا أقطع ، والأمانة تقول : اللهم إني بك فلا أختار ، والنعمة تقول : اللهم إني بك فلا أكفر ، والبزار واللفظ له والبيهقى الطابع معلق بغائمة العرش فإذا استنكت الرجم وعمل بالمعاصى واجترأ على الله تعالى بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعمل بعد ذلك شيئا .

وأخرج الشيخان : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (١) .

وأخرج أيضا « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ (أى يؤخر وهو يضم أوله ونشديد لك المهمل وبالهمز) له ، في أثره أى أجله فليصل رحمه » (٢) وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه » . رواه البخارى والترمذى ، ولفظه قال : « تعلموا من أتسابقكم ما تعملون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأثر » . أى بها الزيادة في العمر . وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند ، والبزار بإسناد جيد والحاكم « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه مبقة السوء فليقلل الله وليصل رحمه » ، والبزار أسناد لا بأس به والحاكم رصحه أنه ﷺ قال : « مكتوب في النوراة : من أحب أن يزداد عمره وفي رزقه فليصل رحمه » (٣) وأبو يعلى : أن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما مبقة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور . وأبو يعلى بإسناد جيد . عن رجل من خنعم قال : « أتيت النبی ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت أنت الذى تزعم أنك رسول الله قال نعم ، قال قلت يا رسول الله أى الأعمال أحب إلى الله قال الإيمان بالله قلت يا رسول الله ثم ما قال صلة الرحم قلت يا رسول الله أى الأعمال أبغض إلى الله قال الإشراف بالله قلت يا رسول الله ثم ما قال قطيعة الرحم » .

والبخارى ومسلم واللفظ له « وقف أعرابى لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله أو بأحمد أخبرنى بما يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار فكف

النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال : لقد وفق هذا أو لقد هدى قال كيف قلت فأعادها فقال النبي ﷺ تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم . . . دع النافه » (١) وفي رواية : « وتصل ذا رحمك » . فلما أدير قال رسول الله ﷺ : « إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة » . والطبراني بإسناد حسن : « إن الله ليعمر بالقوم الديار وينمى لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضا لهم قبل وكيف ذلك يا رسول الله قال يصلونهم أرحامهم » . وأحمد بسند رواه ثقات إلا أن فيه انقطاعا أنه من أعطى الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ويزدن في الأعمال . وأبو الشيخ وابن حبان والبيهقى . يارسول الله من خير الناس قال : أنقامهم للرب وأوصلهم للرحم وأمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر . والطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال « أوصانى خليلي ﷺ بخصال من الخير أوصانى أن لا أنظر إلى من هو فوقى وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدين منكم ، وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت وأوصانى أن لا أخاف في الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا وأوصانى أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا وبالله فإنها كثر من كنوز الجنة » . والشيخان وغيرهما عن ميمونة - رضى الله عنها - أنها اعتقدت وليدة لها ولم تستأذن النبي ﷺ فلما كان يومها الذى بدور عليها فيه قالت أشعرت يارسول الله أنى اعتفت وليدتى قال أما أنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرى » . وابن حبان والحاكم « أتى النبي ﷺ رجل فقال إني أذنبت ذنبا عظيما فهل لى من توبة قال هل لك من أم قال لا قال وهل لك من تخالة قال نعم قال فبرها » .

والبخارى وغيره « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » (٢) . والترمذى وقال حسن : « لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن لا تظلموا » (٣) . والإمعة بكسر ففتح وتشديد فمهملة هو الذى لا رأى له فهو يتبع كل واحد على رأيه . وفى مسلم « يارسول الله إن لى فرياة أصلهم ويفطموننى ، راحسن إليهم ويسبئون إلى وأحلم عليهم ويجهلون على فقال : إن كنت كما قلت فكأنما تسفم الملأى ، بفتح تشديد ، الرماذ الحار ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » والطبراني وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم : أفضل الصدقة صدقة على ذى الرحم الكاشح (٤) . أى الذى

(١) (صحيح) البخارى (١٣٩٧) ، ومسلم (١٤) .

(٢) (صحيح) البخارى (٥٩٩١) ، وأحمد ١٦٣ / ٢ .

(٣) (حسن) الترمذى (٢٠٠٧) .

(٤) (صحيح) الحاكم ٤٠٦ / ١ .

(١) (صحيح) البخارى (٦٠١٩) . ومسلم (٤٧-٤٨) .

(٢) (صحيح) البخارى (٥٩٨٦) ، ومسلم (٢٥٥٧) .

(٣) (ضعيف) الحاكم ١٦٠ / ٤ ، وضعيف الجامع (٥٢٧٢) .

يضمهر عداوته في كشحه أى خصمه كتابة عن باطنه ، وهو فى معنى قوله ﷺ : « ونصل من قطعك » .. والبزار والطبرانى والحاكم وصححه واعترض بأن فيه واحياً : « ثلاث من كن فيه حسابه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته فالرا وما هى يا رسول الله قال تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك فإذا فعلت ذلك بدخلك الجنة » . وأحمد بإسنادين أحدهما رواه ثقات عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال « لقيت رسول الله ﷺ فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال فقال باعفة : صل من قطعك واعط من حرمك واعف عمن ظلمك » زاد الحاكم : « ألا ومن أراد أن يمد فى عمره ويبسط فى رزقه فليصل رحمه » . والطبرانى بسند محتج به : « ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وأن تعفو عمن ظلمك »^(١) والطبرانى : « إن أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عمن شتمك » والبزار « ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ، وفى رواية للطبرانى ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات قالوا نعم يا رسول الله قال تعلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك » .

وابن ماجه « أسرع الخير ثوابا البر وصله الرحم ، وأسرع الشر عفو البغى وقطيعة الرحم »^(٢) واللبرائى : « ما من ذنب أجدر أن يجعل لصاحبه العفو فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب وإن أعجل البر ثوابا لصلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا »^(٣).

الباب الرابع والعشرون

فى بر الوالدين

أخرج الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال « سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله قال الصلاة لوقتها ثم قلت ثم أى قال بر الوالدين ، قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل الله » ومسلم وغيره : « لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه »^(٤) ومسلم أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال أبايك على الهجرة والجهاد أبنى الأجر من الله تعالى فقال فهل

من والديك أحد حى قال نعم بل كلاهما حى قال فنبهنى الأمر من الله فذل نعم فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما وأبو يعلى والطبرانى بسند جيد : أنى رجل رسول الله ﷺ فقال لى أشتهى الجهاد ولا أفدر عليه قال هل يقى من والديك أحد قال أمى قال فاسأل الله فى برها فوذ فعلت فأنت حاج ومعتز ومجاهد ، والطبرانى « يا رسول الله إني أريد الجهاد فى سبيل الله فذل أمك حية قال نعم قال ﷺ : الزم رجلها فتم الجنة »^(١) وابن ماجه : يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما قال هما جنتك ونارك . وابن مساجه والنسائى واللفظ له والحاكم وصححه : « يا رسول الله أردت أغزو وقد جئت أستشيرك فقال : هل لك من أم قال نعم قال الزمها فإن الجنة عند رجلها »^(٢) . وفى رواية صحيحه : « ألك والدان قال نعم قال الزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما » . والترمذى وصحبه عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أن رجلا أتاه فقال لى إن لى امرأة وإن أمى تأمرنى بطلاقها فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه . وابن حبان فى صحيحه « أن رجلا أتى أبا الدرداء فقال إن أبى لم يزل يى حتى زوجنى وإنه الآن يأمرنى بطلاقها قال : ما أنا بالذى أمرك أن تعق والديك ولا بالذى أمرك أن تطلق زوجتك غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعت يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة فحافظ على ذلك أو دع قال وأحسب عطاء قال فطلقها »^(٣) . وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : كان تحنى امرأة أحبها وكان عمر بكرها فقال لى طلقها فأبيت فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقال لى رسول الله ﷺ : طلقها . وأحمد بسند صحيح : من سره أن يمد له فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه وأبو يعلى وغيره وصححه الحاكم « من بر والديه طوبى له زاد الله فى عمره »^(٤) وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والحاكم وصححه « أن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد الفدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » ، وفى رواية للترمذى وقال حسن غريب : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر »^(٥) ، والحاكم وصححه « عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه منتصلا فليقبل ذلك محفا كان أو مبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الخوض » .

(١) الطبرانى ٨ / ٣٧٢ .

(٢) (حسن) ابن ماجه (٢٧٨١) ، والنسائى ٦ / ١١ وصحيح الجامع (١٢٤٨ - ١٢٤٩) .

(٣) (صحيح) الترمذى (١٩٠٠) .

(٤) (صحيح) الحاكم ٤ / ١٥٤ .

(٥) (حسن) الترمذى (٢١٣٩) ، وصحيح الجامع (٧٦٨٧) .

(١) مجمع الزوائد ٨ / ١٨٨ .

(٢) ضعيف جداً) ابن ماجه (٤٢١٢) ، وضعيف الجامع (٨٤٠) .

(٣) مجمع الزوائد ٨ / ١٥١ .

(٤) (صحيح) مسلم (١٥١٠) .

والطبراني بإسناد حسن : « يروا آباءكم تبركم أبناءكم وعفوا نفع نساؤكم » (١)

ومسلم : « رغم أنه ثم رغم أنه ثم رغم أنه ، أى لصق بالرغام وهو التراب من الذل ، قبل من بارسول الله قال من أدرك والدبه عند الكبير أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة أو لا يدخله الجنة » .

والطبراني بأسانيد أحدها حسن : « صعد النبي ﷺ المنبر فقال آمين آمين آمين ثم قال : أنا أنى جبرائيل - عليه السلام - فقال يا محمد من أدرك أحد أبويه ثم لم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين فقال يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين قال ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين . ورواه ابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال فيه « ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين ، فقلت آمين ، ورواه الحاكم وغيره وقال فى آخره فلما رقيت الثالثة قال بعد : « من أدرك أبويه الكبير عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة فأبعده الله قل آمين فقلت آمين » ، ورواه الطبراني وفيه من أدرك والدبه أو أحدهما فلم يبرهما دخل النار فأبعده الله وأسحقه قلت آمين . وأحمد من طرق أحدها حسن : من اعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار ومن أدرك أحد والدبه ثم لم يغفر له فأبعده الله ، زاد فى رواية وأسحقه . والشيخان يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي قال أمك قال ثم من قال أمك قالت « قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت قدمت على أمى وهى راغية أى عن الإسلام أو فيما عندى أفأصل أمى قال نعم صلى أمك » . وابن حبان فى معصية الوالد أو قال الوالدين معصية الرب ، وفى أخرى للبخاري : « رضا الرب من رضا الوالد أو قال الوالدين ومسخط الله فى مسخط الوالد أو قال الوالدين » (٢) ، وفى رواية للطبراني : طاعة الله فى طاعة الوالد أو قال الوالدين ومعصيته فى معصية الوالد أو قال الوالدين وفى أخرى للبخاري : رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين ومسخط الرب تبارك وتعالى فى مسخط الوالدين .

والترمذي واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما : « أنى النبي ﷺ رجل فقال إني أذنبت ذنباً عظيماً فهل لى من توبة قال : هل لك من أم قال لا قال فهل لك من خالة قال نعم قال فبرها » (٣) وأبو داود وابن ماجه « يارسول الله هل بقى من بر أبواى شىء » .

(١) مجمع الزوائد ٨ / ٣٨ و ٨١ .

(٢) مجمع الزوائد ٨ / ٣٦ .

(٣) مبدئ تخريجهم .

أبرهما به بعد موتهما قال نعم الصلاة عليهما أى الدعاء لهما والاستغفار لهما وإنقاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقيهما ، ورواه ابن حبان فى صحيحه بزيادة « قال الرجل ما أكثر هذا يارسول الله وأطيعه قال فاعمل به » .

ومسلم أن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - لقيه رجل من الأعراب بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، قال ابن دينار فقلنا أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون بالبسير فقال عبد الله بن عمر إن أباه كان ودوداً لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبا البر صلة الولد أهل ود أبيه » (١) .

وابن حبان فى صحيحه عن أبى بردة - رضى الله عنه - قال « قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال أتندرى لما أتيتك قلت لا قال فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده وإنه كان بين أبى عمر وبين أبىك إخاء وود فأجبت أن أصل ذلك » (٢) وفى حديث الصحيحين وغيرهما المشهور بروايات متعددة « أن ثلاثة نفر من كان قبلنا خرجوا يتماشون ويرتادون لأهلهم فأخذهم المطر حتى أووا إلى غار فى الجبل فانحدرت على فمه صخرة فسدت فقلوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن ندعوا بصالح أعمالكم ، وفى رواية فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها ، وفى أخرى فقال بعضهم لبعض عفى الأثر ووقع الحجر ولا يعلم بمكانكم إلا الله فادعوا الله بأوثق أعمالكم فقال أحدهم اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغيب قبلهما أهلاً ولا مالا فنأى بى طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهم غبرفهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغيب قبلهما أهلاً أو مالا فلبثت والفدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبرفهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من الصخرة ففرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج ، وفى رواية ولى صبية صغار كنت أرعى فإذا رحت عليهن فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى وإنه نأى بى طلب الشجر يوماً فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجنحت بالخلاص فقممت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبى ودأبهما حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء وذكر الآخر عفته عن الزنا بابتنة عمه والآخر تبعته لئلا أجير فانفرجت عنهم كلهم وخرجوا يتماشون » .

(١) صحيح مسلم (٢٥٥٢) .

(٢) صحيح صحيح الجامع (٥٩٠) .

الباب السادس والعشرون

فى طول الأمل

قال ﷺ : « أخوف ما أخاف عليكم اشتان طول الأمل واتباع الهوى ، وأن طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق » .

وقال أبو الدرداء - رضى الله عنه - أنه أشرف على أهل حمص فقال ألا نسبحون تبنون ما لا نسكنون ، ونأملون ما لا تدركون ، ونجمعون ما لا نأكلون ، إن الذين كانوا قبلكم بنوا شديدا وجمعوا كثيرا وأملوا بعيدا فأصبحت مساكنهم فيورا وأمالهم غرورا وجمعهم يورا .

وقال على بن أبى طالب لعمر - رضى الله عنهما - : إذا أردت أن تلقى صاحبك فارفع قميصك واخشف نعلك وافصر أملك وكل دون الشيع .

وأوصى آدم ابنه شيث - عليهما السلام - بخمسة أشياء وأمره أن يوصى بها أولاده من بعده قولها قال له فل لأولادك لا تطمننوا للدنيا فإني اطمأننت بالجنة الباقية فأخرجني الله منها ، والثاني قل لهم لا تعملوا بهوى نساكنكم فإني عملت بهوى امرأتى وأكلت من الشجرة فلحقننى التمامة ، والثالث قل لهم كل عمل تريدونه فانظروا عاقبته فإني لو نظرت عاقبة الأمر لم يصبنى ما أصابنى ، والرابع إذا اضطربت قلوبكم بشيء فاجتنبوه فإني حين أكلت من الشجرة اضطرب فنى فلم أرجع فلحقننى الندم ، والخامس استشيروا فى الأمور فإني لو شاورت الملائكة لم يصبنى ما أصابنى . وقال مجاهد قال لى عبد الله بن عمر : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا نمت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك قبل موتك ومن صحتك قبل سقمك فإنك لا ترى ما أسمك غدا . وقال ﷺ لأصحابه : « أريد كلكم أن يدخل الجنة قالوا : نعم يا رسول الله . قال أفصروا الأمل واستحيوا من الله حق الحياء . قالوا : كلنا نسئحى من الله تعالى قال ليس ذلك بالحياء ولكن الحياء من الله تعالى أن تذكروا المقابر والبلى وتحفظوا الجوف وما حوى والرأس وما وعى ومن يشتبهى كرامة الآخرة بدع زينة الدنيا فهناك استحياء العبد من الله حق الحياء وبها سبب العبد ولاية الله تعالى » . وقال ﷺ : « أول صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل » (١)

رزوى عن أم المنذر أنها قالت طلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال « أيها الناس - نستحون من الله قالوا وما ذاك يا رسول الله قال : نجمعون ما لا نأكلون ونأملون ما لا تدركون تبنون ما لا تسكنون » (٢).

مشكاة المصابيح (٥٢٨١) .

تحف السادة المتقين ١٠ / ٢٣٧ .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : « اشترى أسامة بن زيد بن ثابت ولبدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطوبل الأمل والذي نفسى بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفرى لا يلقين حتى أفيض ولا لفة لقمة إلا ظننت أنى لا أسبغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من المرنى والذي نفسى بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يخرج بهريق الماء فيمنسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول : ما يدرينى لعلى لا أبلغه .

وقيل بينما عيسى - عليه السلام - جالس وشيخ يعمل بمسحاة يشرب بها الأرض فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضجع فليت ساعة فقال عيسى اللهم اردد عليه الأمل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما إنا عمل اذ قالت لى نفسى إلى منى تعمل وأنت شيخ كبير فالتفت المسحاة واضجمعت ثم قالت لى نفسى والله لا بد من عيش ما بقيت ففتمت إلى مسحاتى .

الباب السابع والعشرون

فى ملازمة الطاعة وترك الحرام

معنى الطاعة القيام بفروض الله تعالى والاجتناب لمحارمه والوقوف عند حدوده قال مجاهد فى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَسْ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) هو أن يعمل العبد بطاعة الله تعالى . واعلم أن أصل الطاعة العلم بالله والرجاء فى الله والمراقبة لله ، فإذا تجرد العبد من هذه الخصال لم يدرك حقيقة الإيمان لأنه لا تصح الطاعة لله إلا بعد العلم به والإيمان بوجوده خالفا عالما قادرا لا يحبط به علم ولا يتصوره وهم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

قال أعرابى لمحمد بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - : هل رأيت الله حين عبده قال لم أكن أعبد من لم أره قال كيف رأيته قال لم تره الأبصار بمشاهدة العيان لكن رآته القلوب بحقيقة الإيمان لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات لا يجو فى الفضبات ذلك الله لا إلا هور رب الأرض والسموات فقال الأعرابى الله أعلم حيث يجعل رسالته .

(١) آية (٧٧) سورة القصص .

روى أن كعب الأحبار قال لو أن بنى آدم بلغوا من اليقين مثقال حبة من عظمة الله لمشوا على الماء والريح . فبحان من جعل الأفرار بالعجز عن إدراك معرفته إيماناً تشاء المنعم عليه بالعجز عن إداك شكره شكراً . قال محمود التواق :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة *** على له فى مثلها بيجب الشكر
فكيف بلسوغ الشكر الا بفضلله *** وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها *** وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منها إلا لله فيه نعمة *** تضيق لها الأوهام والبر والبحر

إذا ثبت العلم بالربوبية تعين الإقراء بالعبودية وإذا تقررو الإيمان فى القلب وجبت الطاعة للرب . والإيمان نوعان ظاهر وباطن فالظاهر النطق باللسان والباطن الاعتقاد بالقلب والمؤمنون متباينون فى منازل القرب متفاوتون فى درجات الطاعة والإيمان جامع لهم بقدر حظ كل واحد منهم من الموهبة وتمكنه من علو المرتبة فى الإخلاص لله والتوكل عليه والرضا بحكمه ، فأما الإخلاص فلن لا يطلب العبد بما يعمل جزاء من الخالق والله خلقكم وما تعملون فإن كانت الطاعة رجاء للمثوبة وخوفاً من العقوبة فذلك العبد لا يكون كامل الإخلاص فإنه لنفسه سعى .

روى أنه عليه السلام قال لا يكن أحدكم كالكلب السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط أجرأ لم يعمل .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعِدُّ اللَّهُ عَلَى خُرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ (١) وإنما تعينت علينا وتقدم له من الإحسان إلينا فضلاً عن كونه أمرنا بها ليرتب الجزاء عليها فضلاً ويجازى من ضل عنها عدلاً . وأما التوكل فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة والاستناد إليه مع الضرورة والثقة به عند النازلة مع سكون النفس وطمأنينة القلب فالتوكلون على ربهم علموا أنه المقدر والأسباب تحت حكم الخالق المدبر لا يركنون لأبناء ولا أبناء ولا أموال ولا صنائع بل صرفوا بهديه جميع الأمور إليه ولم يعتمدوا فى حال من الأحوال إلا عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه وأما الرضا فهو طيب النفس بما يجرى به المقدور ، قال بعض العلماء أقرب الناس إلى الله أرضاهم بما قسم لهم . ومن كلام الحكماء رب مسرة هى الداء ومرض وهو الشفاء كما قال :

كم نعمة مطوبة *** لك بين أنياب النوائب
ومسرة فسد أقبلت *** من حيث ترتقب المصائب

(١) آية (١١) سورة الحج .

ناصر على حسدا *** ن دهرك فى الأمور لها عواقب
ولكل كرب فرجونة *** ولكل حالصت شوائب
وحسبنا قول الله عز وجل : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (١) .

واعلم أنه لن يستكمل العبد طاعة ربه إلا يرفض الدنيا . وفى بعض الحكم أبلغ المواعظ مالم يحجبها عن القلب وهذه الحجب إنما هى عوارض الدنيا .

ومن كلامهم الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، قال أبو الوليد الباجى :

إذا كنت أعلم علما يقينا *** بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها *** واجعلها فى صلاح وطاعة

وقال رجل لرسول الله إنى أكره الموت قال : ألك مال قال نعم قال قدم مالك فإن قلب المرء عند ماله (٢) .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال البرقى ثلاثة : النطق والنظر والصمت فمن كان منطوقاً فى غير ذكر الله فقد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها . وترك الدنيا يكون باطراح الفكرة فى أحوالها وترك التمتن بلذاتها فإن الفكرة تبعث الإرادة لتعلق النفس بالفكرة .

وليحذر من إرمال النظر فيما لا يحل فإنه سهم صائب وسلطان غالب ، قال - عليه الصلاة والسلام - : « النظر سهم من سهام إبليس فمن تركها مخافة الله تعالى أعقبه إيماناً يجد طعمه فى قلبه » (٣) ومن كلام الحكماء من أطلق نظره كثر أسفه . أدمان النظر يكشف الخبر ويفضح البشر ويطول به المكث فى سفر احفظ عينيك فانك أن أطلقتهم أوقعتك فى مكروه وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك .

قيل لأفلاطون أيهما أشد ضرراً بالقلب السمع أم البصر قال هما للقلب كالجنحين للطائر لا يستقل إلا بهما ولا ينهض إلا بقوتهما وربما قص أحدهما فنهض الآخر على تعب ومشقة . وقال محمد بن ضوء كفى بالعبد نقصاناً عند الله وضعة عند ذوى العقول أن ينظر إلى كل ما يسبح له .

رأى بعض الزهاد رجلاً يضحك إلى غلام فقال له ياخرب العقل والقلب وياخرب الطرف أما تستحى من كرام كاتبين وملائكة حافظين يحفظون الأفعال ويكتبون الأعمال وينظرون إليك

(١) آية (٢١٦) سورة البقرة .

(٢) تحاف السادة ٨ / ١٤٦ ، والمعنى عن حمل الأسفار ٣ / ٢٢٧ .

(٣) ضعيف (الحاكم ٤ / ٣١٤) .

ويشهدون عليك بالبلاء الظاهر والغل الدخيل المخامر الذى أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالي من وقف عليه ونظر من الخلق إليه ، وللقاضى الأرجانى :-

نتمنما يا ناظرى بنظرة •• فأوردتما قلبى أشور الموارد
أعينى كفا عن فؤادى فإنه •• من البغى سمى اثنين فى قتل واحد

وقال على - كرم الله - وجهه العيون مصائد الشيطان والعين أنفذ الجوارح سرعة وأشدّها صرعة فمن اتبع جوارحه نفسه فى طاعة ربه فقد وصل أمله ومن اتبع جوارحه نفسه فى نيل لذته فقد أحبط عمله وأنشدوا :

إذا ما صغت نفس المرید لطاعة •• ولما تشبها للمعاصى شوائب
واتبعها فعل الجوارح كلها •• فتلك عليه أنعم ومواب
تلقته فى دار الخلود كرامة •• إذا جب للمعاصى سنام وغاوب

قال عبد الله بن المبارك أصل الإيمان التصديق بما جاءت به الرسل فمن صدق القرآن خرج إلى العمل به ونجا من الخلود فى النار ومن اجتنب المحارم خرج إلى التوبة ومن أخذ القوات من حله خرج إلى الورع ومن أدى الفرائض صح إسلامه ومن صدق لسانه سلم من التبعات ومن ود المظالم نجا من القصاص ومن أتى بالسنة زكت أعماله ومن أخلص لله قبل علمه .

وروى عن أبى الدرداء أنه قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله أوصنى قال له : « اكتسب طيباً واعمل صالحاً وصل الله ووفق يوم ليوم وعد نفسك من الموتى » .

وليحذر من الاعجاب بالعمل فإنه من أعظم الآفات وأحبط الأعمال فإن المعجب بعمله ممتن على ربه وما يدرى أقبل منه أم رد عليه رب معصية أورثت ذلاً وأنكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً . وليحذر أيضاً من الرياء قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَتَبْتَغَاهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ (١) قيل عملوا أعمالاً كانوا يرونها فى الدنيا من الحسنات فبذت لهم يوم القيامة من السيئات . وكان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية قال ويل لأهل الرياء . وقيل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ ﴾ (٢) ، أى لا يظهرها رياء ولا يخفيها حياء .

وروى عن ابن مسعود آخر ما نزل من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

(٢) آية (١١٠) سورة الكهف .

(١) آية (٢٧١) سورة الزمر

(٣) آية (٢٨١) سورة البقرة .

قال محمد بن بشير :

مضى أمك الأدبى شهيداً معدلاً •• ويومك هذا بالفعال شهيد
فإن تك بالأمس افترقت إساءة •• فشن بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك إلى غد •• لعل غداً يأتى وأنت فقيد

وقال غيره :

وتمجل الذنب بما تشنهى •• وتأمل التوبة فى قابل
والمسرت يأتى بعد ذا غفلة •• ما ذاك فعل الحازم العاقل

وقال داود لسليمان - عليهما السلام - يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما نال وحسن الصبر على ما قد فات . وفى بعض الحكم المثورة من صبر على البلاء وصل إلى الوفاء قال :

عليك بالصبر نابتك ناتية •• من الزمان ولا تركز إلى الجزع
وإن تعرضت لك الدنيا بزيتها •• فالصبر عنها دليل الخبير والورع
فجاهد النفس قسراً فيهما أبداً •• تلقى الذى ترغيبه غير ممتنع

وقال آخر :

الصبر مفتاح ما يرجى •• ولم يزل دائماً بعين
فاصبر وإن طالت الليالى •• فربما ساعد الحزون
وربما نيل باصطبار •• ما قيل مبهات لا يكون

وقال آخر :

الصبر أوثق عروة الإيمان •• ومجنة من نزعة الشيطان
الصبر فيه عواقب محمودة •• والطيش فيه عواقب الخسران
فإذا لقيت من الزمان ملمة •• وكذلك فينا عادة الأزمان
فتذرع الصبر الجميل تبفنا •• إن التصبر رائد الرضوان

والصبر له فروع صبر على الفرائض بالمواظبة عليها بكاملها فى أحب أوقاتها وصبر على

الله ﷻ رجل فأحسنوا الشاء عليه فقال : « كيف ذكر صاحبكم للموت ، قالوا ما كنا نكاد نسمعه بذكر الموت قال فإن صاحبكم ليس هناك » . وقال ابن عمر - رضى الله عنهما - « أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكسب الناس وأكرم الناس يارسول الله فقال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا يشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . وقال الحسن - رحمه الله تعالى - فضيح الموت الدنيا يترك لدى لب فرجا . وقال الربيع بن خيثم ما غائب يتظنه المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بى أحد وسلونى إلى ربي سلا .

وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه يا أخى إحدز الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تمنى فيها الموت فلا تحمه . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه : وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة ، قال إبراهيم التيمي شيئا نطعنا على لذة الدنيا : ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب من عرف الموت ماتت عليه مصائب الدنيا وهومها . وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قاتلا يقول فى وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين ، وقال أشعث كنا ندخل على الحسن قبلما هو الناز وأمر الآخرة وذكر الموت .

وقالت صفية - رضى الله عنها - إن امرأة اشتكت إلى عائشة - رضى الله عنها - قساوة قلبها فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة - رضى الله عنها - . وكان داود - عليه السلام - إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن ما رأيت عاقلا قط إلا أصيبته من الموت حزنا ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمتى فقال أنت أول خليفة تموت قال زدنى قال ليس من أبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك ، وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا فى داره فكان يتم فيه كل يوم مرات يستديم بذلك الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نفص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لا موت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنسة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك قال أبو سليمان الدارنى قلت لأم هارون أعجبين الموت قالت لا فقلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتبهت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

قال أبو موسى التميمي توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة . وفيهم الحسن - رضى الله عنه - فقال الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا

لا أصحاب الجار وصبر على الأمراض وصبر على الفقراء والصبر عن
عن الشبهات وعن فضول جميع جوارح البدن وغير ذلك .

الباب الثامن والعشرون

فى بيان ذكر الموت

« أكثروا من ذكر هازم اللذات » (١) معناه تفصوا بذكره اللذات حتى ينقطع
الهاضم على الله تعالى ، وقال ﷻ : « لو تعلم اليهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما
عائشة رضى الله عنها يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال
بأحد ثبت فى اليوم واللييلة عشرين مرة . وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت
اليعلى من دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والعفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك
الذات الدنيا . وقال ﷻ : « تحفة المؤمن الموت » (٢) وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا
الهاضم من مقاصب نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا
الإطلاق تحفة فى حقه ، وقال ﷻ : « الموت كفارة لكل مسلم » (٣) وأراد بهذا المسلم حقا
الذات الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من
إلا بالنم والصفائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكيثر وأقامته الفرائض .

عطاء الخراسانى « مر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال : شوبرا
م يدي مكر اللذات قالوا وما مكر اللذات قال الموت » (٤) .

الأسنى رضى الله عنه قال رسول الله ﷻ : « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب
الذات » . وقال ﷻ : « كفى بالموت مفرقا » (٥) وقال - عليه السلام - : « كفى بالموت
الذات » . قال رسول الله ﷻ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون قسأل : « اذكروا
الذات الذى مى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحككم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٦) وذكر عند رسول

(١) - صحيح الجامع (٢٣٠١) ، وصحيح الجامع (١٢١٠) .

(٢) - مشق الخفاء ٢ / ٢٠٢ ، وضعيف الجامع (٤٨١٣) .

(٣) - وضعيف الجامع (٢٤٠٤) .

(٤) - وضعيف الجامع (٥٩٥٠) .

(٥) - وضعيف الجامع (٤٢١٢) ، وضعيف الجامع (٣٤٠٩) .

(٦) - وضعيف الجامع (٤١٨٥) .

(٧) - وضعيف الجامع (٦٤٨٦-٦٤٨٥) .

الله وأن محمداً رسول الله منذ ستين سنة فلما دفنت قام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى * * * أشد من القبر التهاباً وأضيقاً
إذا جاءنى يوم القيامة قانداً * * * عنيف وصواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى * * * إلى النار مغلول الفلاة أزرقا
وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها * * * من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم ومنكم فى قعرها * * * قبل ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد * * * لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوربك لأخبروك بالسن * * * نصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فتازل فى روضه * * * يفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بهما منقلب * * * فى حفرة بأوى إلى حباتها
وعقارب تسمى إليه نروحه * * * فى شدة التعذيب من لدغاتها
وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أنبت القبور قنادينها * * * فأبين المعظم وللحننفر
وأبين المدل بسلطانه * * * وأبين المزكى إذا ما افتنخر
قال فتوديت من بينها أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً وهو يقول :

تفانوا جميعاً فما مخبر * * * وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الشرى * * * فتمحى محاسن تلك العصور
فيا سائلى عن أناس مضوا * * * أما لك فيما ترى معتبر
وجد مكتوباً على قبر :

نناجيك أجدات وهن صموت * * * وسكانها تحت التراب خفوت
أبا جامع الدنيا لغبر بلاغة * * * لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

وقال ابن السماك مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أنارى جنيات قبرى * * * كأن أنارى لم يمر فونى
ذر الميراث يقنمون مالى * * * وما يألون إن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا * * * فبالله أسرع مانسونى
ووجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيب من الأحباب مختلس * * * لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذنها * * * يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلاً فى النفس منغمساً * * * رأيت دهرى فى اللذات منغمساً
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * * * ولا الذى كان منه العلم يقنيس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به * * * عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف * * * فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس
ووجد على قبر مكتوباً :

وقفت على الأحبة حين صفت * * * قبورهم كأنهم كأفراس الرهان
فلئن بكيت وفاض دمعى * * * رأت عينا بينهم مكانى
ووجد على قبر طيب مكتوباً :

قد قلت لما قال لى قائل * * * قد صار لقمان إلى رمسه
فأبين من وصف من طبعه * * * وحذقه فى الماء مع جسسه
هيهات لا يدفع عن غيره * * * من كان لا يدفع عن نفسه
ووجد على قبر آخر مكتوباً :

يا أيها الناس كأن لى أمل * * * فصرى عن بلوغه الأجل
فليستق الله ربه رجل * * * أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى * * * كل إلى مثله سيئتقل

الباب التاسع والعشرون

في ذكر السموات والأجناس المختلفة

روى أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها بنظر الهيبة فذابت وارتعدت من خوف ربها . مصدبت ماء ثم نظر إليها بنظر الرحمة فجمد نصفها فخلق منه العرش فارتعد العرش فكتب الله عليه : **إلا الله محمد رسول الله فسكن العرش وترك الماء على حاله** يرتعد إلى يوم القيامة . ثم نوله تعالى : **﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْغَاءِ ﴾** (١) ثم نلاطم وتمرج وصعدت منه إدخنة وارتفع منها مترامها على بعض وكان له زيد فخلق الله تعالى منه السموات والأرض طباقا فكانتا رتقا فخلق الريح فيها فتفق به أطباق السماء وأطباق الأرض كما أخبر سبحانه وتعالى بقوله : **﴿ ثُمَّ سَوَّيْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَجْهَ دُخَانٍ ﴾** (٢) قال أهل الحكمة إنما خلق الله تعالى السماء من دخان ولم يخلقها من بخار لأن الدخان خلق متماسك الأجزاء يسفر متناه والبخار متراجع وذلك من كمال علمه سبحانه وحكمته ، ثم نظر تعالى إلى الماء بعين الرحمة فجمد كما جاء في الحديث .

فثلاثة : بين سماء الدنيا والأرض وكذا بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وغلظ كل سماء كذلك . وقيل أن السماء أشد بياض من اللبن وإنما أخضرت من خضرة جبل قاف واسم تلك السماء رقيقة والثانية من حديد تتلألأ نورا واسمها فبدوم أو ماعون والثالثة من نحاس يقال لها مكوت أو هاريون والرابعة من فضة يضاء فكاند نورها بخطف الأيصار واسمها الزاهرة والخامسة من ذهب أحمر يقال لها المزينة أو المسهرة والسادسة من جوهرة تتلألأ نورا واسمها الخالصة والسابعة من ياقوتة حمراء واسمها اللابية أو الدامعة وفيها البيت المعمور وله أربعة أركان : ركن من ياقوتة حمراء وركن من زبرجدة خضراء وركن من فضة بيضاء وركن من ذهب أحمر . وورد أن البيت المعمور من العقيق يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ولنعلم أن الأرض أفضل من السماء لأن الأنبياء خلفوا منها ودقوا فيها ، وأفضل طبقات الأرض أعلاها لما ذكر ولأنه محل انتفاع العالم .

وعن ابن عباس أفضل السموات هي التي على سفنها عرش الرحمن وهي الكرسي لغربها . وعرش ولأن جميع النجوم المتفع بها مثبتة فيها غير السبعة السبابة أما هي فمستبة في السموات سبع فترجل في السابعة وهو ليوم السبت والشمس في السادسة وهو ليوم الخميس والريخ في الخامسة وهو ليوم الثلاثاء والشمس في الرابعة وهي ليوم الأحد والزهرة في الثالثة وهي ليوم جمعة وعطارد في الثانية وهو ليوم الأربعاء والقمر في الأولى وهو ليوم الإثنين .

ومن عجيب صنع البارئ تبارك وتعالى أن خلق السموات السبع من دخان مع كون كل سماء لا تشبه صاحبتها وأنزل من السماء ماء فأخرج به من أنسواع النبات والأنهار المختلفة اللون والطعم كما قال تعالى : **﴿ وَتَفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾** (١) وخلق أولاد آدم على طبقات شتى منهم الأبيض والأسود والسهل والحزن والمزمن والكافر والعالم والجاهل مع أن الأصل آدم فسبحان من أنفق كل شيء خلقه .

الباب الثلاثون

في بيان الكرسي والعرش وبيان الملائكة المقربين

والأرزاق والتوكل

قال الله تعالى : **﴿ وَنَحْنُ كَرُوسُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾** (٢) قيل كرسبه مجاز عن علمه وقيل ملكه وقبل الفلك المعروف .

روى عن علي - كرم الله وجهه - أن الكرسي لؤلؤة وطوله لا يعلمه إلا الله تعالى وفي الخبر ما السموات والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقة في فلاة : وأخرج ابن ماجة أن السموات في عوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش .

وعن عكرمة قال الشمس جزء من سبعين جزءا من نور الكرسي والعرش جزء من سبعين جزءا من نور الستون يعني بها الحجب . وورد أن نور كل حجاب مسيرة خمسمائة عام ولولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نورهم . والعرش جسم نوواني علوي فوق الكرسي فهو غيره خلافا للحسن البصري قيل من ياقوتة حمراء وقيل من جوهرة خضراء وقيل من درة بيضاء وقيل من نور والأولى الإمساك عن القطع بحقيقته ويسميه الفلكيون بالفلك التاسع والفلك الأعلى وفلك الأفلاك والفلك الأطلس أي الخالي من الكواكب إذ كلها على ما قال قدماء أهل الهيئة ثوابت في الفلك الثامن المسمى عندهم بفلك البروج وعند أهل الشرع بالكرسي والعرش سقف المخلوقات فلا شيء يخرج عن دائرته فهو منتهى علم العباد لا مجال للإدراك ورواه ولا مطالب لطالب نوره قال الله تعالى : **﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَلَ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾** (٣) وصفه بالعظم لأنه أعظم المخلوقات وقد تحقق **﴿ تَوَكَّلْ ﴾** بالتوكل كما أمر ولذا سمي في التوارة وغيرها بالتوكل كيف والتوكل فرع التوحيد والمعرفة وهو **﴿ تَوَكَّلْ ﴾** سيد المرشدين ورأس

العارفين ولا يتأني التوكل الأخذ في الأسباب كما قد ينوهم بل هو أيضا مأمور به فقد قال له ﷺ
أعرابي أتعقل ناقتي أم أتركها وأتوكل فقال أعقلها وتوكل .

وقال ﷺ : لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا أي جياح
وتروح بطناناً . أي شباعاً فأشار بقوله تغدو إلى التسبب .

حكاية : التقى إبراهيم بن أدهم وشفيق البلخي بمكة فقال له إبراهيم ما بده أمرك لذى يهلك
هذا قال مررت ببعض الغلوات فرأيت طيرا مكسورا الجناحين فلاة من الأرض فقلت أنظر من أين
يرزق هذا ففعدت بحذائه فإذا أنا بطير قد أقبل في متقاره حرارة فوضعها في منقار الطير المكسور
الجناحين فقلت لنفسى إن الذى فيض هذا الطير لهذا الطير قادر أن يرزقنى حيث كنت فنرت
التكسب واشتغلت بالعبادة فقال إبراهيم ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير
العليل حتى تكون أفضل منه أما سمعت عن النبى ﷺ : « البد العليا خير من البد السفلى » (١)
ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين فى أمره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار فأخذ شفيق
يبد إبراهيم فقبلها وقال أنت أستاذنا يا أبا اسحق . ثم إذا تسبب الإنسان فليجتهد أن لا ينظر إلى
أسبابه ولا يقف عندها بل يجعل مولا مطمح نظره ومرمى قصده كالسائل يقصد الناس بوعاء فى
يده ولا ينظر إليه وإنما ينظر إلى الذين يعطونه . وفى الحديث : من سره أن يكون أغنى الناس
فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه .

وقد قبل لحذيفة المرعى وكان خدماً لإبراهيم بن أدهم ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا فى
طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوتينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال با
حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بداوة وفرطاس فجئت به فكتب بعد
البسملة أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر •• أنا جنانع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضمين لنصفها •• فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها •• فاجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال أخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلغاك
فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بغلة فتأولته الرقعة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما
فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو فى المسجد القلاني فدفع إلى بصرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت
رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا نصراني فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالفصة فقال لا

(١) (صحيح) البخاري (١٤٢٧) .

نفسها فإنه بجىء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم
فائدة : قال ابن عباس لما خلق الله تعالى حملة العرش قال لهم احملوا عرشى فلم يطبقوا
فخلق مع كل واحد منهم مثل من فى السموات السبع من الملائكة فقال احملوا عرشى فلم
يطبقوا فخلق مع كل منهم مثل السموات ومن الأرض من الملائكة فقال احملوا عرشى فلم يطبقوا
فقال قولوا لا حول ولا قوة إلا بالله فلما قالوها حملوه فنقلت أقدامهم فى الأرض السابعة على
من الرياح فلما لم تستقر أقدامهم على شئ تمسكوا بالعرش ولم يفتروا عن قولهم لا حول ولا
قوة إلا بالله خيفة أن ينقلب أحدهم فلا يعرف أين يهوى فهم حاملون للعرش وهو حاملهم
والكل محمول بالقدر .

وروى من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش
العظيم سبع مرات كفاه الله تعالى ما أهمله صادقا كان بها أو كاذبا وفى رواية كفاه الله ما أهمله من
أمر آخرته ودينه .

الباب الواحد والثلاثون

فى ترك الدنيا وذلها

الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق
عنها ودعوتهم إلى الآخرة بل هو مقصود الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولم يبعثوا إلا لذلك
فلا حاجة إلا إلى استشهاد بآيات القرآن لظهورها وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها .

فقد روى « أن رسول الله ﷺ مر على شاة مينة فقال أنزوني هذه الشاة مينة على أهلها قالوا
من هو أنها ألفوها قال والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولسو
كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » وقال ﷺ : « الدنيا
سجن المؤمن وجنة الكافر » (١) وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان
لله منها » . وقال أبو موسى الأشعرى قال رسول الله ﷺ : « من أحب دنياه أضرب آخرته ومن
أحب آخرته أضرب دينه فأنزروا ما يبقى على ما يبقى » (٢) . وقال ﷺ : « حب الدنيا رأس كل
خطيئة » (٣) .

(١) (صحيح) مسلم (٢٩٥٦) ، وأحمد (١٩٧ / ٢) .

(٢) (ضعيف) أحمد (١٧٥ / ٤) ، وضعيف الجامع (٥٣٤٠) .

(٣) (ضعيف) تحف السادة المتقين ٣ / ١٣١ ، وضعيف الجامع (٢٦٨٢) .

وقال زيد بن أرقم كنا مع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فدعا بشواب فأتى بهاء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرين على مسأله قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكك قال كنت مع رسول الله ﷺ فرأيت يدفع عن نفسه شيئا لم أر معه أحد فقلت يا رسول الله ما الذي يدفع عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها اليك عنى ثم رجعت فقال إنك أن أفلت منى لم يفلت منى من بعدك . وقال ﷺ : « يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » (١).

وروى أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال : « هلموا إلى الدنيا وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظاماً قد نخرت فقال هذه الدنيا » (٢) وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا سنخلى مثل ذلك الخرق وأن الأجسام التى ترى بها تنصير عظاماً بالية . وقال ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فتنظروا كيف تعملون إن بنى إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت ناهوا في الحلية والنساء والطياب والسياب » (٣) . وقال عيسى - عليه السلام - لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبداً كثر كثركم عند من لا يضيعة فإن صاحب كثر الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كثر الله لا يخاف عليه الآفة . وقال عليه أنفضل الصلاة والسلام أيضاً : يا معشر الجوارين إنى قد كبيت لكم الدنيا على وجهها فلا تتعشوها بعدئ فإن من خبت الدنيا أن عصى الله فيها وأن من خبت الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بشرها إلا فاعبروا الدنيا ولا تغمروها واعلموا أن أصل كل خطئة حب الدنيا وحب شهوة ساعة أورث أهلها حزناً طويلاً . وقال أيضاً بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعكم فيها الملوك والنساء فلا تنازعهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم ، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة وقال أيضاً الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيئ الموت فيأخذ بمنعه . وقال موسى بن يسار قال النبى ﷺ : « إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها ».

وروى أن سليمان بن داود - عليهما السلام - مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال فمر بعابد من بنى إسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد أذاك الله ملكاً عظيماً قال فسمع سليمان وقال لتسبيحه في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى . قال ﷺ : « الهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت » وقال ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها بجمع من لا عقل له وعليها بعاذى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه

(١) تحف السادة المتقين ٨ / ٨٢ .

(٢) المصدر عالى .

(٣) صحيح مسلم بمعناه (٢٧٤٢) .

له ولها يسعى من لا يقين له » (١) وقال ﷺ : « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شيء والزم الله قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبداً وشغلا لا يتفرغ منه أبداً وفقر لا يبلغ غناه أبداً وأملاً لا يبلغ منه أبداً » (٢) . وقال أبو هريرة قال لى رسول الله ﷺ يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعاً بما فيها فقلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأنى بى وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى منقارة ونداء وهذه العذرات هى الوان أطعمتكم اكسبوها من حيث اكسبوها ثم فذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكية على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا . ويروى أن الله عز وجل لما أهب آدم إلى الأرض قال له ابن للخراب ولد للفناء . وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف إبراهيم - عليه السلام - يادنيا ما أمورك على الأبرار الذين تصنع وتزينت لهم انى قدفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقاً أمون على منك كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدمى لأحد ولا يدوم لك أحد وإن بخل بك صاحبك وشع عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم ما لهم عندى من الجزاء إذا وفدو إلى من قبورهم إلا النور يسمى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى . وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا موعوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لأدنى أوليائك اليوم نصيباً فيقول اسكنى يا لا شيء انى لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم » (٣) وروى فى أخبار آدم - عليه السلام - أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ولم يكن ذلك مجعولاً فى شيء من أطمعة الجنة إلا فى هذه الشجرة فلذلك نهى عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر الله تعالى ملكاً بخاطبه فقال له قل أى شيء تريد قال آدم أريد أضع ما فى بطنى من الأذى فقبل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السررام على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك إهبط إلى الدنيا . وقال ﷺ : « ليجين أقوام يوم القيامة وأعمالهم كحبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار قالوا يا رسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون يأخذون هنة من الليل فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه » . وقال ﷺ فى بعض خطبه : المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه فليتزود العبد

(١) ضعيف أحمد ٦ / ٧١ ، وضعيف الجامع (٣٠١٢) .

(٢) (موضوع) الموضوعات ٣ / ١٣٢ ، والفوائد المجموعة (٢٣٦) .

(٣) تحف السادة ٨ / ٨٥ .

من نفسه لنفسه. ومن آخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهزمه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتُم للآخرة. ... لا يسبق ما بعد الموت من مستعيب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار وقال عيسى - عليه السلام - لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء. وروى أن جبريل - عليه السلام - قال لنوح - عليه السلام - يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدته؟ فقال - عليه السلام - كدار لها بابان دخلت من أحدهم وخرجت من الآخر وقال نبينا ﷺ: إحداهما الدنيا فأنها أسحر من هاروت وماروت، (١). وعن الحسن قال خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ألا أنه من رعى الدنيا وطال أمه فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمه أعمى الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل ولا الثبير ولا الغنى إلا بالفخر ولا المحبة إلا باتباع الهوى، إلا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صريفا. وروى أن عيسى - عليه السلام - اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه فوجدت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحادثها فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال إلهي جعلت بكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى فأنصرف الله تعالى إليه مأواك في مستقر رحمتي لأزوجهك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها يدي ولأصغرهن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولأمرن متادبا بنادى أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم. وقال عيسى ابن مريم - عليه السلام - ويل لصدح الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتفره ويأمنها ويثق بها وتخذه وويل للمغتترن كيف أركبها ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يصبح غدا بذنبه.

وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - يا موسى مالك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار أخير. ... وفارقها بعقلك فبتست الدار هي إلا لعامل يعمل فتعمت الدار هي يا موسى إني مرصده حتى أخذته للمظلوم. وروى أن رسول الله ﷺ: «بعث أبا عبيدة بن الجراح فحده ...» ثم سمعت الأنصار يقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلم يصبر ...» ثم انصرف فعرضوا له فنبس رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أتدرون سمعته ...» فقدم بشيء قالوا أجل يا رسول الله قال أبشروا وأملوا ما بركم فوالله ما الغفر أحسن منكم. ... كنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنفسوكم ...» وقال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ

(١) الموصوف: ٤٠٠، ٦٨، وضعيف الجامع (١٩١).

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ففهل ساير بركات الأرض قال زهرة الدنيا» (١) وقال ﷺ: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا» (٢) فنهى عن ذكرها فضلا عن إصايتها عيناها. وقال عمار بن سعيد مر عيسى - عليه السلام - بغربة فإذا أهبا موتى في الآفنة والطرق فقال يا معشر الحواريين إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافغوا فقالوا يا روح الله ودنا أنا لو علمنا خبرهم فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فتأدبهم بجيبك فلما كان الليل أشرف على نسر، ثم نادى يا أهل القرية فأجابه مجيب لبك يا روح الله فقال ما حالكم وما قصتكم قالوا بنتا في عافية وأصبحنا في الهاوية قال وكيف ذلك قالوا حب الصبي لأمه إذا أقبلت فرحنا بها وإذا أدبرت حزنا ويكنينا عليها قال فما بال أصحابك لم يجيئونني قال لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد قال فكيف أجبتني أنت من بينهم قال لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم فأنا معلق على شفير جهنم لا أدرى أجد منها أم أكيبك فيها فقال المسيح للحواريين لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة. وقال أنس: «كانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: إنه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه» (٣) وقال عيسى - عليه السلام - من الذي يبنى على موج البحر دارا لتلك الدنيا فلا تتخذوها قرارا. وقيل لعيسى - عليه السلام - علمنا علما واحدا بحبنا الله عليه قال أبغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى.

وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتكم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولأترتم الآخرة» (٤) ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعلاء تجارون وتكون على أنفسكم ولتركتكم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه ولكن غيب عن قلوبكم ذكر الآخرة الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمكم وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة عما في عاقبتها ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خيث سرائركم ولو اجتمعتم على البر لحابستم وأنكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ولا بملك أحدكم الصبغة لمن يحبه ويعنيه كل أمر آخرته ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم لو كنتم توفون بخير الآخرة وشرها كما توفون بالدنيا لأترتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموالكم فإن قلتم حب العاجلة

(١) (صحيح) البخاري (٦٤٢٧).

(٢) (ضعيف) تحف السادة المتقين ٨ / ٨٧، وضعيف الجامع (٦٢٣٤).

(٣) الدار فطنى ٤ / ٣٠٢.

(٤) سبق تخريجه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا رجل من العاجل من الدنيا للأجل منها تكيدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في حب الدنيا لا تدركونه فينبس القوم أنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم من كثرة في شك عما جاء به محمد ﷺ فأتونا فنبين لكم ولثريكم من التور ما تطمئن إليه قلوبكم والله ما أنتم بالمتفوضه عقولكم فتعذبكم أنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أميكم ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتخزنون على اليسير منها بقوتكم حتى ينشئ في وجوهكم ويظهر على السكتم وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المأثم وعامتكم قد تترك كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم إني لأرى الله قد تبرا منكم يلقي بعضكم بعضا بالسروو وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بثمنه فأصبحتم على الغل ونبتت مراعيكم على الأمل وتصافيتكم على وفش الأجل ولوددت أن الله تعالى أواحنى منكم والحقني بمن أحب وولته ولو كان حبا لم يصابركم فإن كان فيكم خير فقد أسمعتمكم وأن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا وبالله أستعين على نفسي وعليكم .

وقال عيسى - عليه السلام - يا معشر الخواريين أوضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما وضى أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا وفي معناه قيل :

أرى رجلا بأدنى الدين قد قنعوا * * * وما أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كمال * * * تغنى الملوك بدنياهم عن الدين
وقال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا لتبر ، تركك الدنيا أبر .

وقال نبينا ﷺ : لتأتينكم بعدى دنيا تأكل كل إيمانكم كما تأكل النوا الحطب (١)

وأوحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - يا موسى لا تركن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكيرة هي أشد منها . ومرو موسى - عليه السلام - برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي فقال موسى يا رب عبدك يبكي من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع عيون عينيه ووقع يده حتى يستقل لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

الأنار : قال علي - رضي الله عنه - من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبها ولا عن شئ مهربا ، أولها من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدين فرفضها وعرف الآخرة فطلبها .

(١) شني عن حمير الأسفار ٣ / ٢٠٢ .

وقال الحسن رحم الله أنوما كانت الدنيا عندهم ودبة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا تخافا ، وقال أيضا - رحمه الله - من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فالفها في نحره .

وقال لقمان - عليه السلام - لابنه يا بني أن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفيتك فيها نقوى الله عز وجل وحشوها بالإيمان بالله تعالى وشراعها بالتوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل طالت فكرتي في هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زينةً لها نبلوهم آيهم أحسن عملا ﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صعيدا جُرزا ﴿ (١) .

وقال بعض الحكماء إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعثك وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغدا يوم فلا تهلك في أكلة وصم عن الدنيا وافطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى وريحها النار . وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر قال يخلق الأبدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الأمنية قبل فما حال أهله قال من ظفريه تعب ومن فاته نصب . وفي ذلك قيل :

ومن يحمى الدنيا لعيش سره * * * فسوف لعمرى عن قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حيرة * * * وإن أفبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية . وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص .

وقال سفيان أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها وقال أبو سليمان الداواني من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أود أكثر ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا إلا أود أكثر وليس لي بداء فقال انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه ولا بضرك حب الدنيا وإنما قال هذا لأنه لو أخذ نفسه بذلك لاتبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها .

وقال يحيى بن معاذ الدنيا حاثوت الشيطان فلا تسرق من حاثوته شيئا فيجىء في طلبه فيأخذك . وقال الفضيل لو كانت الدنيا من ذهب بفضي والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى على ذهب بفضي فكيف وقد اخترنا خزفا بفضي على ذهب يبقى .

وقال أبو حازم إياكم والدنيا فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظما للدنيا فيقال

(١) آية (٧-٨) سورة الكهف .

هذا عظم ما حقره الله ، وقال ابن مسعود ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيق وماله عارية فالضيق مرغل والعارية مردودة . وفي ذلك قيل :

وما المال والأهلون إلا ودبعة •• ولا بد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت استكثروا عن ذكرها فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره . وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت فقال :

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا •• فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

فطوبى لعبدا أثر الله ربه •• وجاد بدنياه لما يتسوقع

وقيل أيضا في ذلك :

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره •• ونال من الدنيا سرووا وأنعموا

كبان بنى بنيانه فأقامه •• فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضا في ذلك :

هب الدنيا تساق إليك عفوا •• أليس مصير ذاك إلى انفعال

وما دنياك إلا مثل فيء •• أظلك ثم أذن بالزوال

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنياك بأخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا .

وقال ابن عباس إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء . . جزء للمؤمن وجزء للمتافق وجزء للكافر فالؤمن يتزود والمتافق يتزين والكافر يتمتع ، وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاينة الكلاب وفي ذلك قيل :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها •• تنع عن خطبتها تسلم

إن النى تخطب غدارة •• قريبه العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء من هو أن الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها وفي ذلك قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف •• له عوفى ثياب صديق

وقبل أيضا :

يا راقدا الليل ميسرور بأوليه •• إن الحوادث قد يطرغن أسحارا

أفنى القرون التي كانت منعومة •• كمر الجديدين إقبالا وإدبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك •• قد كان في الدهر نفاعا وضرارا

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها •• يمسى ويصبح في دنياه سفاوا

هلا تركت من الدنيا معانقة •• حتى تعانق في الفردوس أبكاء

إن كنت تبغى جنات الخلد تسكنها •• فينبغي لك أن لا تأمن الناء

وقال أبو أمامة الباهلي - رضى الله عنه - لما بعث محمد ﷺ أنت إبليس جنوده فقالوا قد بعث نبي وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا قالوا نعم قال لن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان وإنما اغدوا عليهم وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه وانفاقه في غير حقه وإسكاه عن حقه والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى - كرم الله وجهه - يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن آمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتقن ، في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب وفي مشابهما العتاب ، وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم أقصر فقيل قصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب . وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا . وقال أبو سليمان الداراني إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا جاءت الدنيا تزاحمها فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لثيمة وهذا تشديد عظيم ونرجوا أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح إذ قال الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار بقدر ما تحزن للدنيا من قلبك وهذا اقتباس مما قاله على - كرم الله وجهه - حيث قال : الدنيا والآخرة ضرطان فيقدر ما ترضى أحدهما تسخط لاخرى .

وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ما يباليون أشرفت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . وقال وجل للحسن ما تقول في رجل آتاه الله ما لا فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه يعني يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل لو أن الدنيا بحذاقيرها عرضت على حلال لا أحاسب عليها في الآخرة لكنك انتقذتها كما انتقذ أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

وقبى لما قدم عمر - رضى الله عنه - الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على تافه مخطومة حمراء وسأله ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر - رضى الله عنه - لم اتخذت متاعاً فقال يا أمير المؤمنين ، إن هذا يبلغنا القبل . وقال سفيان خذ من الدنيا لبدنك خذ من الآخرة لقلبك ، وقال الحسن والله لقد عذبت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم نسبياً . وقال وهب قرات فى بعض الكتب الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه يا بني إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعدت عنها .

وقد سعيد بن مسعود إذا رأيت العبد تزاد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لا يشعر . وقال عمرو بن العاص على المنبر والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذى له . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ فَلَا تَفْرَحُوا بِالنِّعَةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) من قال ذا ناله من خلقها ومن هو أعلم بها إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الإشتغال لا يفتح رجل على نفسه بعب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب وقال أيضاً مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب إن أخذه من حله حوسب به وإن أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته فى دينه ويجزع من مصيبته فى دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز سلام عليك أما بعد فكأنك بأخر من كتب عليه الموت مات ، فأجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل .

وقال الفضيل بن عياض الدخول فى الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم عجباً من يعرف أن الموت حق كيف يفرح وعجباً من يعرف أن النار حق كيف يضحك وعجباً من رأى تقب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها وعجباً من يعلم أن القدر حق كيف يتصب .

وقدم على معاوية - رضى الله عنه - رجل من لجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدته فقال سنيت بلاء وسنيت رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك قلولاً المولود يبدل خبز وتول الهالك لضائق الدنيا بمن فيها فقال له سل ما شئت قال عمر مضى قدره أو أجل حضى تدفعه قال لا أملك ذلك قال لا حاجة لى اليك . وقال داود الطائي - رحمه الله - يا ابن آدم فرحت ببرغ أملك وإنما بلغت به بانقضاء أجلك ثم سرفت بعملك كان منفعتك لغيرك . وقال بشر من - أنه الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم مافى الدنيا شيء يسرك إلا وقد عثرته إليه شتاً يسومك .

وقال الحسن لا تخرج نفس آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث أنه لم يشبع ما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لم قدم عليه . وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة . وقال ابن دينار اصطللنا على حب الدنيا فلا يأمر بعقنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ولا يدعنا الله على هذا فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هى لأحد يهان منها لمن أهانها . وقال أيضاً إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك فإذا نفذ أعاد عليه وإذا هان عليه عبد بسط الدنيا بسطاً . وقال محمد بن المنكدر أرايت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجاهد فى سبيل الله واجتنب محارم الله غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال إن هذا عظم فى عينه ما صغره الله وصغر فى عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع اقترانها من الذنوب . والخطايا . وقال أبو حازم اشتهدت مؤنة الدنيا والآخرة فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تقصرب يديك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه . وقال أبو هريرة : الدنيا وقوفة بين السماء والأرض كالشن البالى تتادى ربهما منذ خلقها إلى يوم يقينها يارب يارب لم تبغضنى فيقول لها اسكتى يا لاشيء . وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوتشته فمضى يصل الخير إليه . وقال وهب بن منبه فرح قلبه بشيء من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب علمه هواه فهو الغلب . وقيل لبشر : مات فلان فقال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة وضعف نفسه قيل له إنه كان يفعل ويفعل وذكرنا أبواباً من أئبر فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا . وقال بعضهم الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت الدنيا . وقيل للحكيم : الدنيا لمن تركها فقبل الآخرة لمن هى قال لمن طلبها . وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخرى قلب من يعمرها والجنة دار عمران أعمر منها قلب من يطلبها .

وقال الجنيد : كان الشافعى - رحمه الله - من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا وعظ أئحاله فى الله وخوفه بالله فقال يا أخى إن الدنيا دحض مزلّة ودار مذلة عمراتها إلى خراب صائر وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة موفوف وغناها إلى الفقر مصروف الإكتار فيها إعمار فيها يسار فافزع إلى الله وارض برزق الله لا تتسلف من دار فتاتك فإن عيشك فى زائل وجدار مائل أكثر من عمرك وأقصر من أملك .

وقال إبراهيم بن أدهم فى المنام أحب إليك أم دينار فى اليقظة ؟ فقال دينار فى اليقظة ، فقال كذبت لأن الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام والذى لا تحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة ، رعن اسماعيل بن عباس قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون اليك عنا يا خنزيرة فلو وجدوا لها اسماً أفصح من هذا لسموها به ، وقال كعب لتحبين اليكم الدنيا حتى

نعبودونها وأهلها . وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله العفلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل أن تتركه وبني قبره قبل أن يدخله وأرضى خالفه قبل أن يلقاه ، وقال أيضا في الدنيا : بلغ من شؤمها أن ثمنك لها بلهبك عن طاعة الله فكيف الوفيع فيها . وقال بكر بن عبد الله من أراد أن يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن .

وقال بشار إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها يعني الحرص حتى يصير رماداً ومن أدبر عن الدنيا صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب يتتفع به ومن أقبل على الله أحرقته نيران التوحيد فصار جوهرًا لا حد لقيمه . وقال على - كرم الله وجهه - إنما الدنيا ستة أشياء مطموم ومشروب وملبوس ومركوب ومتكوح ومشوم فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر وأشرف اللبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجل وأشرف المتكوحات المرأة وهي مبال في مبال وأن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أفتيح شيء منها وأشرف المشمومات المسك وهو دم .

الباب الثاني والثلاثون

في ذم الدنيا أيضا

قال بعضهم يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغشروا بالأمل ونسيان الأجل ولا تركوا إلى الدنيا فإنها غدارة قد تزخرت لكم بغرورها وفتنتكم بآمانيها وتزينت لحاطبها فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتل ومطمئن إليها خلدت فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها كثير بوائقها وذمها خالفها جديدها يبلى وملكها يفتى وعزيزها يذل وكثيرها يفل ودعا يموت وخيرها يفوت . فاستبقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف نفيل على الدواء من دليل أو هل إلى الطبيب من سبيل فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولله أحصى ثم يقال نفل لسانه فما بكلم إخوانه ولا يعرف جبرانه وعرف عند ذلك جبينك وتنايع أنينك وثبت بينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك ويكي إخوانك وقبل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى السماء فاجتمع عند ذلك إخوانك وأحضرت أكفائك ففسلوك وكفتوك فانقطع عوادك واستراح

حسادك وانصرف أهلك إلى مالك وبقيت مرتهنا بأعمالك .

وقال بعضهم لبعض الملوك : إن أحق الناس بدم الدنيا وفلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتحتاجه أو على جمعه فتفرقه أو تأني سلطانه فتهدمه من القواعد أو تدب إلى جسمه فتسفمه أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبائه فالدنيا أحق بالدم وهي الآخذة ما تعطى الراجعة فيما نهب ، بينا هي تضحك صاحبها إذا أضحكته منه غيره وبينما هي تبتكي له إذ أبكت عليه .

وبينا هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد فتعقد الشاح على رأس صاحبها اليوم وتعفره في التراب غدا سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى تجدد في الباقي من الذاهب خلفا وترضى لكل من كل بدلا .

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست دار إقامة وإنما أنزل آدم - عليه السلام - من الجنة إليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها والغنى منها فقرها لها في كل حين قتيل تذلل من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كالمدأوى جراحه كحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا وصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فاحذر هذه الدار الغدارة الخنالة الخداعة التي تزيت بخدصها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها فأصبحت كالعروس المجلية العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قالية لا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر بالأول مزدجر ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مذكر فعاشق لها فد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها قلبه حتى زلت به قدمه فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وناله وحشرات القوت بغصنه وواغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وندم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين ، وكن أسرا ما تكون فيها احذر ما تكون لها فإن صاحب الدنيا كلما اطمان منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه الضار في أهلها غار والنافع فيها غدار ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء فسروها مشوب بالأحزان لا يرجع منها ما ولى وأدبر ولا يدري ما هو آت فيبتظر آمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصغرها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر أن عفل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكأن الدنيا قد أبقت التائم ونهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها اذكره يخالف على أمره أو يحب ما أبغضه خالفه أو يرفع ما وضعه مليكه ، فرواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه

المجرى حتى ينتهي إلى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها فلا تحز عوا اليأسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها وتهماته فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفل عنه ، وقال محمد بن الحسين لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وأنه لم يرخصها لأوليائه وأنها عنده حقيرة ذليلة ، وأن رسول الله ﷺ زهد فيها وحذر أصحابه ففتتها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهم لبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا إلى الدنيا يعين أنها فانية وإلى الآخرة أنها باقية فنزودوا من الدنيا كراو الركاب فحربوا الدنيا وعمرها بها الآخرة ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم تعبوا قليلا وتنعموا طويلا . كل ذلك يشوقني مولا هم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم .

الباب الثالث والثلاثون

في فضل القناعة

اعلم أنه ينبغي أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يفتح بقلوبه الضرورة من المطعم والملبس والسكن ، ويقتصر على أقله قدره وأخسه نزعاً ويرد أمله إلى يومه أو سهره ولا شغل قلبه بما بعد شهر فإن تشوق إلى الكثير أو طول أمله فإنه عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق ولونكابت المنكرات الخلقة للمروءات ، وقد جبل الأدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله ﷺ : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » (١) . وعن أبي واقد الليثي قال كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتينا يعلمنا ما أوحى إليه ، فجتته ذات يوم فقال إن الله عز وجل يقول إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له ثان ، وإن كان له الثاني لأحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وقال أبو موسى الأشعري نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ، ولو أن لابن آدم واديين من مال لنحنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب وقال ﷺ : « منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال » ، وقال ﷺ : « يهرم ابن آدم

(١) (صحيح أحمد ٤ / ٣٦٨ ، والترمذي (٢٣٣٧) .

ويشبه معه انتان الأمل وحب المال أو كما قال » (١) ولما كانت هذه جبلة للأدمى مضلة وغريزة مهلكة أنشأ الله تعالى ورسوله على القناعة ، فقال ﷺ : « ما من أحد فقير ولا غنى إلا وديوم القيامة أنه كان أولي قوتا في الدنيا » ، وقال ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » (٢) . ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال ﷺ : « أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راحة »

وروى أن موسى - عليه السلام - سأل ربه تعالى فقال أي عبادك أغنى قال أفنعمهم مما أعطيتهم قال فأبهم أعدل قال من أنصف من نفسه . وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : « إن ووح القدس نقت في ووعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « يا أيها هريرة إذا أشد بك الجوع فعليك برغيف وكواز من ماء وعلى الدنيا الدما » . وقال أبو هريرة - وصى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « كن ورعا تكن أعبد الناس . وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا » ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع ، فيما رواه أبو أيوب الأنصاري أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله عظمي رأو جز فقال : إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غذا واجمع اليأس مما في أيدي الناس . وقال عوف بن مالك الأشجعي كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وتصلوا الخمس وأن تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يتأوله إياه . وقال عمر - وصى الله - عنه إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وأنه من يأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم ، وقيل لبعض الحكماء ما الغناء قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفي ذلك قيل :

المعيش ساعيات تمر * وخطوب أيام تكرر
اقتع بعيشك ترضه * واترك هواك تعيش حر
قلرب حنتف ساقه * ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد ، وقال سفيان خير دنياكم ما لم تبخلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم ، وقال ابن مسعود ما من يوم إلا وملك ينادي يا ابن آدم قبل يكفيك خبر من كثير يطغيك ، وقال سميط بن عجلان

(١) (صحيح أحمد ٣ / ١٩٢ ، والترمذي (٢٣٣٩) .

(٢) (صحيح البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار ، وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل في الظاهر
في الباطن والباس بما في أيدي الناس .

وي أن الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا لك كلها لم يكن لك منها إلا القوت
طبيعت منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقال ابن مسعود إذا
أخذكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتي الرجل فيقول إنك وإنك فيقطع ظهره فلما يأتيه
له من الرزق أو ما رزق .

كتب بعض بنى أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه فكتب إليه قد رفعت
نجمي إلى مولاي فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت ، وقيل لبعض الحكماء أى
أسر للعائل وأيما شيء أعون على دفع الحزن ، فقال أسرها ما قدم من صالح العمل
أشهرها له على دفع الحزن الرضا بمحتم القضاء ، وقال بعض الحكماء وجدت أطول الناس غما
اليسود وأتاهم عيشا القنوع وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع وأخفهم عيشا أرفضهم
الغنى وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفي ذلك قيل :

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة ** إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يذنبه ** والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن الفئاعة من يحلل بساحتها ** لم يلق فى دهره شيئا يؤرقه
ولقد قيل أيضا :

حتى متى أنا فى حل وترحال ** وطول سعى وإدبار وأقبال
أمازج الدار لا تنفك مغتربا ** عن الأحبة لا يدرون ما حالى
فالأرض طيراثم مغربها ** لا يخطر الموت من حرصى على بالى
أما قنعت أنانى الرزق فى دعة ** إن القنوع الغنى لا كثره المال

قال عمر - رضى الله عنه - ألا أخبركم بما استحل من مال الله تعالى ، حلتان لشتانى
أما ما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قریش لست
أهم ولا بأوضعهم فوالله مادرى أبجل ذلك أم لا كأنه شك فى أن هذا القدر هل هو زيادة
الحمية التى نجب القناعة بها . وعاتب أعرابى أخاه على الحرص ، فقال يا أخى أنت طالب
بطنيك من لا تقوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكان ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت
فأنت عنه كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا وفى ذلك قيل :

أراك مزيدك الإثراء حرصا ** على الدنيا كذلك لا غموت
فهل لك غاية إن صرت يوما ** إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي حكى أن رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بى قال اذبحك وأكلك قالت
والله ما أشقى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال من خير لك من أكلى ، أما
واحدة فأعلمك وأنا فى يدك ، وأما الثانية فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة فإذا صرت على
الجبل قال هات الأولى قالت لا تلهفن على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات
الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل تقول يا شقى لو
ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا قال فعرض على شفتيه وتلفه ،
وقال هات الثالثة قالت أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفن على ما
فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحمى ودمى وریشى لا يكون مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى
درتان كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فذهبت . وهذا مثال لفرط طمع الأدمى فإنه يعميه
عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون .

وقال ابن السماك أن الرجاء جبل فى قلبك وقيد فى رجلك فاخرج الرجاء من قلبك يخرج
القيد من رجلك ، وقال أبو محمد اليزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوبة فيها
بالذهب فلما رأتى تبسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ، قال نعم وجدت هذين البيتين فى
بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتها وقد أضفت إليهما ثالثا وأنشدنى :

إذا سد باب عنك من دون حاجة ** فدعه لأخرى يفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ** ويكفيك سوائت الأمور اجتنابها
ولا تك مبذلا لعرضك واجتنب ** ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها ،
قال الطمع وشبه النفس وطلب الحوائج . وقال رجل للفضيل فسر لى قول كعب ، وقال يطمع
الرجل فى الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشره النفس فى هذا وفى هذا ، حتى لا تحب
أن يفوتها شيء ويكون لك الى هذا حاجة وإلى هذا حاجة فإذا قضاه لك خرم أنفك وقادك حيث
شاء وأستمكن منك وخضعت له فمن أحبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعده إذا مرض لم
تسلم عليه الله عز وجل ولم تعده الله فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك .

الباب الرابع والثلاثون

فى فضل الفقراء

قال ﷺ : «خبر هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها نفضجها فى الجنة ضعفها» (١) وقال ﷺ : «إن لى حرفتين اثنتين تمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى الفقر والجهد» (٢). وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون مملك أبنا كنت ؟ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له وما من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له ، فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت .

وروى أن المسيح - عليه السلام - مر فى سبعمائة رجل نائم ملتف فى عبادة فأبفظه ، وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد منى إني قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذا يا حبيبى ، ومر موسى - عليه السلام - برجل نائم على التراب ونحت رأسه لينة ووجهه وحيت فى التراب وهو متزوى بعبادة فقال يا رب عبك هذا فى الدنيا ضائع ، فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها .

وقال ﷺ : «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس» (٣) وقال ﷺ : من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عتده فوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها . وقال كعب الأحبار قال الله تعالى لموسى - عليه السلام - إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . وقال عطاء الخراسانى مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا برجل يصطاد حيتانا ، فقال باسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شىء ثم مر بأخر فقال باسم الشيطان وألقى الشبكة فخرج فيها من الحيتان ما كان يتفاحس من كثرتها ، فقال النبي ﷺ بارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا العبدى عن منزلتيهما ، فلما ولى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال رضى يارب . وقال نبينا ﷺ «اطلمت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء . وفى حديث آخر فرأيت أكثر أهل النار قتل ما شأنهم فقبل شغلهم الأحمران الذهب والزعفران» (٤) .

وقال ﷺ «نحفة المؤمن فى الدنيا الفقراء» (٥) . وفى الخبر : آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان

بن داود - عليهما السلام - لكان ملكه وآخر أصحابه دخولا الجنة عبد الرحمن ابن عوف لأجل غناه ، وفى حديث آخر رأيت دخل الجنة زحفا . وقال المسيح - عليه السلام - بشدة يدخل الغنى الجنة . وفى خبر آخر عن أهل البيت - رضى الله عنهم - أنه ﷺ قال إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قبل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا . وفى الخبر إذا رأيت الفقر مشيلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنا مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته . وقال موسى - عليه السلام - يارب من أحبائك من خلفك حتى أحبهم لأجلك فقال كل فقير فقير فبممكن أن يكون الثانى للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر . وقال المسيح عليه السلام أنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسامى إليه - صلوات الله عليه - إن يقال له يامسكين ، ولما قالت سادات العرب وأغنيائهم للنبي ﷺ اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا تجيى ولجى إليك ولا يجيئون يعنون بذلك الفقراء مثل بلال ومسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأوت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء - رضى الله عنهم - أجمعين ، أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التافى برانتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فإذا عرتوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد على الأغنياء ، منهم الأقرع بن حابس التميمى وعبيدة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم فأجابهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمَا ﴾ يعنى الفقراء ﴿ قَرِيبٌ ذُو الْعَرْشِ الْمُدْنَى ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ وَلَا تَطِغْ مِنْ أَغْلَاقِ قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ (١) يعنى الأغنياء ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَرَّ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ (٢) الآية . . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشرف فريش نشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ عَسَى وَتَوَلَّى ﴾ أن جاء الأغنياء (٣) وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ يَزْكُى (٤) أو يَذْكُرُ قَسْفَعَهُ الذِّكْرَى (٥) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٣) يعنى هذا الشريف .

وقال - عليه السلام - : «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة فالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قبل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة» . وقال ﷺ : «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فإذا بلال ونظرت فى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ونظرت فى أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء فقلت با رب ما شأنهم قال أما النساء فأضر بهن الأحمران الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ونفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم

(١) آية (٢٩) سورة الكهف .

(٢) آية (٢٨) سورة الكهف

(٣) آية (٦٠) سورة عبس .

(١) تحف السدة ٩ / ٢٧٥ . و لضعيفة (٥٦٧) . (٢) (موضوع) تنزيه الشريعة ٢ / ١٨٢ .

(٣) (ضعيف) الطبراني ٧ / ٣٠٣ . وضعيف الجامع (١٠٢٩) .

(٤) (صحيح) البخاري (٣٢١) .

(٥) سبق تخريجه .

جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني ، قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنني لا أراك فقلت ولم قال كنت أحاسب بمالي ، فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى ، إلى هذا الحد ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم . وقال ﷺ : ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . (١) وقال عمران بن حصين كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاء فقال عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أدخل فقلت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله ؟ قال عمران فقالت فاطمة والذي بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فالتقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وذادني وجعا على ما بي أني لست أقدر على طعام أكله فقد أضرب بي الجوع فبكى رسول الله وقال لا تجزعى يا ابتاه فوالله ما دنت طعاما منذ ثلاث واني لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني ولكن أنرت الآخرة على الدنيا ، ثم ضرب بيده على منكبيها وقال لها أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة ، قالت فأين أسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال أسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ، ثم قال لها افتنى بآبن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة .

وروى عن علي - كرم الله وجهه - أن رسول الله ﷺ قال إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا ونكالبوا على جمع الدراهم وماهم الله بأربع خصال ، بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاية الأحكام ، والشوكة من الأعداء . وقال أبو الدرداء - رضى الله عنه - ذو الدرهمين أشد حسبا أر قال حساباً من ذى الدرهم . وأرسل عمر - رضى الله عنه - إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أنه أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وقرقه ثم قام يصلى إلى القبلة ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل فقراء أمنى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج .

وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى - رحمه الله - فقال له تخط لو كنت غنيا لما قرنتك ركان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تفريه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء ، وقال المؤمن ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثورى ولا رأيت الفقر أعز منه في مجلس الثورى - رحمه الله . وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب في الجنة كما يرغب في الفتى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا . وقال ابن عباس ملمعون من أكرم بالفتى وأهان بالفقر . وقال لقمان - عليه السلام - لا تخرن أحدا خلقت ثيابه فإن ريك وربه واحد . وقال يحيى ابن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة المتأقين . وفي الأخبار عن الكتب السالفة ، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه - عليهم السلام - أحذر أن أمتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صبا . ولقد كانت عائشة - رضى الله عنها - تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد بوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وأن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك يدرهم لحما تغطرين عليه وكانت صائمة ، فقالت لو ذكرتنى لفعلت وكان قد أوصاه رسول الله ﷺ وقال : إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ، لا أفعل ذلك أبد - رضى الله عنه . وقال رسول الله ﷺ : طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به . (١) وقال ﷺ : يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تغفروا يشوب ققركم . (٢) . والإفلا فالأول القانع وهذا الراضى ويكاد يشعر هنا بفهمه أن الحريص لا ثواب له على فقره ، ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكرامة لفعل الله في حيس الدنيا عنه ورب واغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تجبب ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : إن لكل شىء مفتاحا ومفتاح الجنة المساكين والفقراء لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة . (٣) الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى . وقال ﷺ : اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا ، وقال : ما من أحد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا في الدنيا . وأوحى الله تعالى إلى اسماعيل - عليه السلام - اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم ، قال ومن هم قال الفقراء الصادقون . وقال ﷺ : لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا . (٤) وقال ﷺ : يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتى من خلفى

(١) (صحيح) أحمد ٦ / ١٩ ، والترمذي (٢٣٤٩) . (٢) انخاف السادة ٩ / ٢٨٣ .

(٣) (موضوع) انخاف السادة ٩ / ٢٨٣ ، وضعيف الجامع (٤٧٣١) .

(٤) انخاف السادة ٩ / ٢٨٣ .

فنه الملائكة ومن هم ياربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون لعطائي الراضون بقدرى أدخلوهم الجنة . ويدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون . فهذا في القانع والراضي وأما الزاهد فستذكر فضله إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر - رضي الله عنه - أن الطمع فقر والبأس غنى وأنه من يشع عما في أيدي الناس وفتح استغنى عنهم ، وقال ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - ما من يوم إلا ومك يتأذى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خبر من كثير يطغبك . وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - ما من أحد وفي عقله نقص وذلك أنه إذا أته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دأباً في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص . وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة لمحك ورضاك بما بكفك . وقيل كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى وجل في فناء القصر وفي يده وغيب يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فجنني به ، فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع قال نعم قال فشبيت قال نعم قال ثم تمت طيباً قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر . وتمر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً ويقلا فقال له يا عبد الله أروضيت من الدنيا بهذا فقال لا أدلك على من رضى بشر من هذا قال بلى قال من رضى بالدنيا عوضاً عن الآخرة . وكان محمد بن واسع - رحمه الله عليه - يخرج خبزاً بابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال الحسن - رحمه الله لمن الله أنوما أفسم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ : ﴿ وفي السماء يرفكهم وما نؤعدون ﴾ (٢٢) فوزب السماء والأرض إنه لحق ﴿ (١) الآية . . وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يوماً جالساً في الناس فأنته امرأته فقالت له أنجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفة ولا سفة ، فقال يا هذه إن بين أيدينا عقبة كؤدا لا ينجر منها إلا كل مخف فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون - رحمه الله - أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له . وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والأفصد في الباطن والبأس مما في أيدي الناس .

ويروى أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن منها إلا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك وقد قيل في القناعة .

إصرع إلى الله لا تنصرع إلى الناس * * * وافتنع ببأس فإن العز في اليأس

واستغن عن ذي قريب وذو رحم * * * إن الغنى من استغنى عن الناس وقد قيل في هذا المعنى أيضاً :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه * * * مقدراً أي باب منه يغلفه
مفكراً كيف نأنيه منيته * * * اعتاداً أم بها يسير فتطرقة
جمعت ما لا يقل لي هل جمعت له * * * يا جامع المال أبا ما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه * * * ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أوفه ييال فتى يغدو على ثقة * * * إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه * * * والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحل بساحتها * * * لم يلق في ظلها هما يورقه

الباب الخامس والثلاثون

في اتخاذ ولي من دون الله سبحانه وتعالى

وفي بيان العروصات

قال الله تعالى : ﴿ ولا تركبوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ (١) الآية . . قال بعض المفسرين أجمع أهل اللغة على أن الركوب مطلق الميل والسكون يسراً أو كثيراً . وعن عكرمة لا تصطنعوهم . والظاهر من الآية عموم النهي عن الركوب إلى المشركين وفسقة المسلمين . وقال النيسابوري في تفسيره قال المحققون الركوب انتهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة أو تزوين طريقهم وتحسينها عند غيرهم ومشاركتهم في شيء من أبواب المظالم فأما مداخلتهم لدفع شيء من الضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركوب . قال وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أليس السلة بكاف عبده ﴾ (٢) قلت ولقد صدق فحسم مادة الركوب إليهم أولى سيما في هذه الأزمان التي لا يمكن فيها إنكار المنكر والأمر بالمعروف مع ما في الركوب إليهم من الغرور والغرور وإذا كان حال الميل في الجملة لمن وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً وينهاك على صحبتهم ، ويلقى شراً شره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويتنهج بالتزوين بزيهم ويمد عينه إلى

زهرتهم الفانية وينظمهم بما أوتوا من القشوف الدائمة وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح العوضة بمنزل عن أن تميل اليه القلوب وضعف الطالب والمطلوب . قال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . (١)

وروى : مثل المجلس الصالح مثل حامل المسك إن لم يعطك أصابك من ريحه ، ومثل المجلس السيئ كمثل صاحب الكبر إن لم يحبرك أصابك من دخانه قال الله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دونه الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ﴾ (٢) الآية . . وقال ﷺ : من عظم غيبا لغناه فقد ذهب ثلثا دينه . وقال ﷺ : إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش ، وقال الله تعالى : ﴿ يؤم نذغو كل أناس بما بهم ﴾ (٣) يعنى في عرصات القبامة ، وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذى يدعى كل أناس به فقال ابن عباس وغيره أنه كتاب كل إنسان الذى فيه عمله أى يدعى كل إنسان بكتاب عمله ويؤدى هذا قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ (٤) الآية . . وقال ابن زيد : الإمام هو الكتاب المنزل فيقال يا أهل التوارة يا أهل الإنجيل يا أهل القرآن وقال مجاهد وقتادة إمامهم نبهم فيقال هاتوا متبعي إبراهيم هاتوا متبعي موسى هاتوا متبعي عيسى هاتوا متبعي محمد ﷺ وعليهم . وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - المراد بالإمام إمام عصرهم فيدعى أهل كل عصر بإمامهم الذى كانوا يأمنون بأمره ويتبعون بنيه . وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء فيقال هذه غدره فلان ابن فلان .

وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ في تفسيره هذه الآية يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ بنلا لا فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون اللهم اتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى بأنهم يقولون أبشروا لكل رجل منكم مثل هذه . وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا من شوك فيراه أصحابه فيقولون نموذ بالله من شر هذا اللهم لا نأتنا بهذا ، قال فيأتيهم فيقولون اللهم آخره فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وقال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (٥) إلى آخر السورة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما أى تحركت من أسفلها وأخرجت ما فى جوفها من الأموات والدفائن . وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ (٦) قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم قال فإن أخبارها أن تشهد على كل

عبد وأمه بكل عمل عمل على ظهرها . وعن رسول الله ﷺ أنه قال تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وأنه ليس من أحد عامل عليها خيرا أو شرا إلا وهى مخبرة . . أخرجه الطبرانى .

الباب السادس والثلاثون

فى النفخ والفزع والحشر من العقاب

قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد النقم القرن وحش الجبهة واصغى بالأذن بتتظر متى يؤمر فبنفخ » (١) قال مقاتل الصور هو القرن وذلك أن إسرائيل - عليه السلام - واضح فاه على القرن كهينة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض وهى شاخص ببصره نحو العرش يتتظر متى يؤمر فبنفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صقع من فى السموات ومن فى الأرض . أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يامر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ثم يحى الله إسرائيل فأمره أن بنفخ الثانية فذلك قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (٢) على أرجلهم ينظرون إلى البعث ، وقال ﷺ : حين يبعث أنى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه ، وقدم رجلا وآخر أخرى يتتظر متى يؤمر والنفخ ألا فاتقوا النفخة فتفكر فى الخلائق وذلمهم وانسكارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم منحير كتحيرهم ، بل إن كنت فى الدنيا من المترفين والأغنياء المنتعمين فملوك الأرض فى ذلك اليوم أدل أهل أرض الجميع وأصغرهم وأحقهم يوطون بالأقدام مثل الذر وعند ذلك تغيب الوحوش فى البرارى والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد نوحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطبة تلنس بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهو النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والوحش منهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ (٣) ثم أقبلت الشياطين والمردة بعد تمردا وعثوها وأذعنت خاشعة من هيبه العرض على الله تعالى تصديقا لقوله : ﴿ فوذلك لتحشرتهم والشياطين ثم لتحشرتهم حول جهنم جيا ﴾ (٤) تفكر فى حالك وحال قلبك هنالك .

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء فاح صفت لا ترى فيها عرجا ، ولا ترى عليها ربوة يخفى الإنسان وراءها ولا وهداة ينخفض عن

(١) (حسن) الترمذى (٢٤٣١) ، وأحمد ٣٢٦ / ١ . (٢) آية (٦٨) سورة الزمر . (٣) آية (٥) سورة التكاوير . (٤) آية (٦٨) سورة مريم .

(١) (حسن) الترمذى (٢٣٧٨) . (٢) آية (٤١) سورة العنكبوت . (٣) آية (٧١) سورة الإسراء . (٤) آية (١٩) سورة الحاقة . (٥) آية (٢-١) سورة الزلزلة . (٦) آية (٤) سورة الزلزلة .

الآعين فيها به هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يسافون عليه زمرا زمرا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذا ساقهم بالرافعة تتبعها الرادفة والرافعة هي النفخة الأولى والرادفة هي الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (١) قال ابن عباس يزداد فيها وينقص وينذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وغد مد الأديم المعاكلي أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها . فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدة فئانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تثار من قوفهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلت الأرض لخمود سراجها فينماهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها ، فياهول صوت انشاقها في سمعك ربا هبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تغالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالمهن ، وانتشرت الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلا فند ألجمهم العرق ويلغ شحوم الأذان » (٢) . قالت سودة زوج النبي ﷺ رواية الحديث قلت يا رسول الله واسواته ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم : ﴿ لَكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٣) فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والإنفات ، كيف وبعضهم يمشون على بطونهم وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « بحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال رجل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال الذي أمشاهم على أفداسهم قلاد على أن يمشيهم على وجوههم » (٤) .

في طبع الأدمي إنكار كل ما لم يأنس به ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها فاحضر في فلك صورتك وأنت واقف عاريا مكسوبا ذليلا مدحورا منحرا مبهورا منتظرا لما يجري عليك من

(١) آية (٤٨) سورة إبراهيم .

(٢) (صحيح) الحاكم ٤ / ٥٦٤ ، والنسائي ٤ / ١١٤ .

(٣) آية (٣٧) سورة عبس .

(٤) (حسن) الترمذي (٣١٤٢) ، وأحمد ٢ / ٣٥٤ .

القضاء بالسعادة أو بالشقاء وأعظم هذه الخيال فئانها عظيمة . ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ورحش وسبع وطير فاشترقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كغاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستئلال به إلا المقربون فمن بين مستنظل بالعرش وبين مضحى لحر الشمس قد صهرته بحرهما وأشدت كربيه وغمه من وهجه ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحجلة والحياة من الافتضاح والاحتزاء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه .

قال ابن عمر قال رسول الله ﷺ يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : يمرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرفهم في الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويلغ أذانهم . . كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح . وفي حديث آخر قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب . وقال عقبة بن عامر قال رسول الله ﷺ تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيمرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف سافه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه ، وأشار بيده فألجمها فاه ، ومنهم من ينطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا . فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب ارحمني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج النعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر ، فسبحرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

باب السابع والثلاثون

فى بيان القضاء بين الخلائق

قال أبو هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون من المفلس فلنا المفلس فبنا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وفذذ هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا . فبعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فُتبت حسانه فبيل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » (١) ، فانظر الى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من أفات الرياء ومكائد الشيطان فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا يتبقى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتصر فيه للجماة من القرآن .

فقد روى أبو ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين يتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم يتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة . وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل : ﴿ وَنَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنَمِّىْ أَنْبَاءُكُمْ ﴾ (٢) أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القرآن ثم يقول كونى ترابا فذلك حين يقول الكافر ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٣) فكيف أنت يا مسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها نعيمك ، فتقول ابن حسنتى : فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصيبك وأشدت بسبب الكف عنها عناؤك ، فتقول يا رب هذه سيئات ما قارفتها فط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وفصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المباينة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والممارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : إن الشيطان قد ينس أن تعبد الأصنام بأرض العرب وتكن سبرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات ، وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استنطعتم فإن تعبد نبيجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فبرى أنهن سينجيها فما يزال عبد بجى فيقول رب فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول أمع من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته

(٢) آية (٣٨) سورة الأنعام .

الحج ٢ / ٣٠٣

آية ٤٠ (سورة الباء)

شيء ، وأن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم خطاب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ مُّنتَبُونَ ﴾ (٤) ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴿ (١) ، قال الزبير يا رسول الله أبكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ، قال نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه . قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطرة ولا بنجواز فيه عن لطفة ولا عن كلمة حتى يتنقم للمظلوم من الظالم .

قال أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الله العباد عراة غيرا بهما قال فلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يتناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه . حتى اللطفة فلنا وكيف نأثى الله عز وجل عراة غيرا بهما ، فقال بالحسنات والسيئات فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى مباشرتها ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص ، وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله يكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم . كما روى عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيتاه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحك يا رسول الله بأبى أنت وأمى قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يارب خذ لي مظلمتى من أخى فقال الله تعالى اعط أخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتى شيء فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء ، قال يارب ينحمل عني من أوزارى ، قال وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال إن ذلك لبوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال فقال الله للطالب أرفع رأسك وانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة مرفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لآى نبي هذا أو لآى صديق هذا أو لآى شهيد ، قال لمن أعطانى الثمن ، قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت غللكه ، قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إني قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك « اتقوا الله وأصلحوا ذلت بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين . » وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو نلطف لك

(١) آية (٣٠-٣١) سورة الزمر .

حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في متصرفك من مفصل القضاء وقد
 مع عليك خلعة الرضاء وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وينعيم لا يدور يحواشيه الفناء ، وعند
 ذلك طر قلبك سرورا وفرحا إبيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم
 بحرك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ونفصرة نسيم النسيم ويرد الرضاء يتلألا
 من حينك وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك ،
 ويحسبون يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان ابن فلان - رضى
 الله عنه - وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أنترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من
 النعمة أنى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومدامتك وتصنعك وتمزيك . فإن كنت تعلم
 أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة
 فى معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به وإن تكن الأخرى والعمياء بالله إن خرج من
 صحتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة ، فمقتك لأجلها فقال عليك لعننى يا
 همد السوء لا أقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ثم يغضب الملائكة
 لغضب الله تعالى ، فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تشال إليك الزبانية
 وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظنها وزعارتها وصنوها النكرة . فأخذوا
 بتأصيتك يسحبونك على وجهك على ملا من الخلائق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى
 ظهور خزبك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون هذا فلان ابن فلان كشف الله عن فضائحه
 ومخزبه ولعنه بقبايح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته
 خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك
 إذا تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من
 الافتضاح العظيم فى ذلك الملا العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى
 الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر .

الباب الثامن والثلاثون

فى بيان ذم المال

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)
 مع حنار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن خسرابا عظيما وقال عز وجل : ﴿ مَنْ

(٢) آية (١٥) التغابن .

(١) سورة المنافقون .

كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَهَا ﴿ (١) الآية . وقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٢) أن رآه استغنى ﴿ (٣)
 فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ (٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « حب المال والشرف ينبئان النفاق فى القلب كما ينبئ الماء
 البقل » (١) وقال ﷺ : « ما ذبيان ضاريان أرسلتا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الشرف
 والمال والجاء فى دين الرجل المسلم » . وقال ﷺ : « هلك المكشرون إلا من قال به فى عباد الله
 هكذا وهكذا وقليل ما هم » وقيل « يا رسول الله أى أمتك شر قال الأغنياء » وقال ﷺ : « سيأتى
 بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ، ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل
 لا تشبع ، وأنفس بالكثير لا تقنع ، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، إتخذوها آلهة من
 دون إلههم وربا دون وبهم ، إلى أمرها يتتهون ولها وهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد الله لأن
 أدركه ذلك الزمان ، من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا
 يتبع جنازتهم ولا يوقر كبيرهم ، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام » . وقال ﷺ
 « دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حقه وهو لا يشعر » (٥) . وقال ﷺ
 « يقول ابن آدم مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فأنفيت أو لبست فألبيت ، أو تصدقت
 فأمضيت » . وقال رجل يا رسول الله « مالى لا أحب الموت فقال هل معك من مال قال نعم يا
 رسول الله قال قدم مالك فإن قلب المؤمن مع ماله أن قدمه أحب أن يلحقه وأن خلفه أحب أن
 يتخلف معه » . وقال ﷺ : « أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه والثانى إلى قبره
 والثالث إلى محشره فالذى يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله ، والذى يتبعه إلى قبره فهو أهله ،
 والذى يتبعه إلى محشره فهو عمله » .

وكتب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء - رضى الله عنهما - يا أخى إياك أن تجمع من الدنيا
 مالا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها
 وماله بين يديه كلما تكفا به الصراط قال له أمض فقد أدبت حق الله فى ، ثم يجاء بصاحب الدنيا
 الذى لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفا به الصراط قال له ماله وملك الا أدبت حق الله فى
 فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور » . وقال ﷺ : « إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم
 وقال الناس ما خلف » وقال ﷺ : « لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا » (٦) .

وروى أن رجلا نال من أبى الدرداء ، وأراه سورا فقال اللهم من فعل بى سورا فأصح جسمه

(٢) آية (٦-٧) سورة العلق .

(١) آية (١) سورة التكاثر .

(٥) ضعيف (أخاف السادة ٨/ ١٤٦ ، وضعيف الجامع (٢٩٨٠) .

(٦) حسن (الترمذي (٢٣٢٨) .

(١) آية (١٥) سورة هود .

وأضل عمره وأكثر ماله ، فانظر كيف رأى كثرة المال غاية لبلاء مع صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لا بد وأن يفضى الى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما أنك مالم تخرج عنى لا تنفعنى .

وروى أن عمر - رضى الله عنه - أرسل إلى زينب بنت جحش بعبائها فقالت ما هذا قالوا أرسله إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم - لم تستر - كان لها فقطعت وجعلته صررا وقسمته في أهل بيته ورحمها وأبناها ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا ، فكانت أول نساء رسول الله ﷺ حرقا به . وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحدا إلا أذله الله ، وقيل أن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبيدى حقا . وقال سميط بن عجلان إن الدرهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها إلى النار ، وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقوب فإن لم تحسن رقبته فلا تأخذه فإنه إن لدغك قتلك سمه قبل وما رقبته قال أخذه من حله ووضعته فى حقه . وقال العلاء بن زياد تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعود بالله من شرك فقالت إن شرك أن يعينك الله منى فابغض الدرهم والدينار وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها إذا يتوصل بهما إلى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قبل :

إنى وجدت فلا تظنوا غيره * * أن التصريح عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته * * فاعلم بأن تفك تقوى المسلم
وفى ذلك قبل أيضا :

لا يغرنك من المرء قميص رقع * * أو إزار فوق عظم الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد خلعه * * أوه الدرهم تعرف حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - عند موته ، فقال يا أمير المؤمنين صنعت صتيما لم يصنعه أحد قبلك تركت أولادك ليس لهم درهم ولا دينار وكان له ثلاثة عشر من الولد فقال أقعدوني فأقعدوه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فإنى لم أمنعهم حقا لهم ولم أعظم حقا لغيرهم إنما ولدى أحد رجلين إما مطيع لله فإله كافيه والله يتولى الصالحين وإما عاصى لله فلا أبالى على ما وقع .

وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا فقيل له لو ادخرته لولدتك من بعدك قال لا ولكنى أدخره لنفسى عند ربى وأدخر ربي لولدى .

ويروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه يا أخى لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير فأخرج أبو عبد

ربه من ماله مائة ألف درهم ، وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الأولون وذخيرة تنهيه للعبد فى ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله .

الباب التاسع والثلاثون

فى الأعمال والميزان وعذاب النار

يا أخى لا تغفل عن الفكر فى الميزان وتطير الكذب إلى الأيمان والشمال فرب تدرى من السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط تطير الخب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبلمهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعلها وقسم آخر لا سيئة لهم ، فينادى منادى ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم يمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى ، إن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم ولكن بأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العقو وعدله عند العقاب فتطير الصحف والكتب منظومة على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو لى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلاق .

روى الحسن : أن رسول الله ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة - رضى الله عنها - فتعسر فذكرت الآخرة فبكى حتى سال دمعها فقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ، قال والذي نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر بن آدم أبخف ميزانه أم يثقل وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط .

وعن أنس قال يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويؤكل به سمك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلاق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها - ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلاق : شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون بحسب النار إلى النار ، وقال رسول الله ﷺ فى يوم القيامة : « أنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم - عليه السلام - فيقول له قم يا آدم فأبعث بعث النار ، فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا ضاحكة ، فلما رأى رسول الله ﷺ أنه

عند أصحابه . قال اعلّموا وأبشروا فالذى نفس محمد بيده إن فيكم لخلبعتين ما كانتا مع أحد قط إلا كنّ مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس ، قالوا وما هما يا رسول الله قال يا أجورج وما جوج قال فسبح عن الغوم فقال اعلّموا وأبشروا فالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشاة فى جنب البعير أو كالرقة فى ذراع الدابة . يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شأن هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرغل عنه وأصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَادٌّ هَا هُنَا كَانَ عَلَى رَيْكٍ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنْزِلُ السَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا ﴿ (١) فانت من الورود على بفين ومن النجاة فى شك فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فمسك نستعد للنجاة منه ، ونأمل فى حال الخلائق وقد فاسوا من دواهي القيامة ما فاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها وفوها يتظرون حقيقة آياتها وتشفع شفعاتها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة فصيح عن شدة الغبط والغضب . فعند ذلك أبقي الجرمون بالعطف وجثت الأم على الركب حتى أشفق البراء من سوء المنقلب وخرج المنادى من الزبانية قائلاً أين فلان ابن فلان المسرف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل فيسأرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعقائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ويتكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم ، فأسكنوا داوياً ضيقة الأوجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير ويوفد فيها السعير ، شراهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك وما لهم فيها فكك قد شددت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنانها ويصبحون فى نواحيها وأطرافها يأمالك قد حنّ علينا الوعيد يا مالك قد أغفلنا الحديد يا مالك قد تضجعت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإننا لا نعود فنقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاحسوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكتم إلى ما نهيتهم عنه نعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جانب الله بناسقون ولا ينجيهم الندم ولا بغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار من إيمانهم والأسف بل يكون لهم غرقي فى النار ، طعامهم نار وشراهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسراويل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجملجون فى مضايها ويحطمون فى دركاتنا ويضطربون بين غواشيبها تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالشبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد نهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم ونسيل على

(١) آية (٧١ ٧٢) سورة مريم .

الحدود أحداقهم ويسقط من الوجذات خوسها . ويتساقط من الأطراف شعور ، ابل جلودها وكلت تضجعت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وقد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم ، وأبكت الستهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت أذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطاؤون حلك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار فى بواطن أجراتهم وحيات الهاوية وعقابها منشبة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الآن فى تفصيل أحوالهم وتفكر أيضا فى أودية جهنم وشعابها . فقد قال النبى ﷺ : إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب وفى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرى لا يتهى الكافر والمتافق حتى يوافى ذلك كله . وقال - كرم الله وجهه - قال رسول الله ﷺ نعوذوا بالله من جب الحزن أو وادى الحزن قبل يا رسول الله وما وادى أو جب الحزن قال واد فى جهنم تعمود منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المراتين « فهذه سعة جهنم وانشعب أوديتها وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد ، بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية . فانظر الآن فى عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا يتهى أرب من الذنبا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمن منها . قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله ﷺ قسمنا رجة فقال رسول الله ﷺ أنرون ما هذا فلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى إلى فعرها » ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فكما أن انكباب الناس على الدنيا بتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت . فإن الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان به لكل واحد حد معلوم على قدر عصبانه وذنبيه ، ألا إن أقلهم عذاب لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لا فندى بها من شدة ما هو فيه . قال رسول الله ﷺ « أن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة يتسل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعله » . فانظر الآن إلى من خفف عليه ، واعتبر بمن شدد عليه ، ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار ونس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها ، وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار تخاضوها طائفين هربا مما هم فيه وعن هذا ورد فى بعض الأخبار حيث قيل إن نار الدنيا غسلت

يسعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقتها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم ، فقال : « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى أبيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سواداء مظلمة » . وقال ﷺ : « اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا فأذن لها في نفسين في الشتاء ونفسي في الصيف فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها ، وأشد ما تجدونه في الشتاء من زهريرها » .

وقال أنس بن مالك يؤتى يأثم الناس في الدنيا من الكفار ، فيقال اغمسوه في النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعلما قط فيقول لا ، ويؤتى بأشد الناس ضررا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ، ثم يقال له هل رأيت ضررا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار ساتوا ، وقد قال بعض العلماء في قوله « نلفح وجوههم النار » أنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم إلا ألفته عند أعقابهم ، ثم انظر بعد هذا في نك الصديق الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقت فيه وهو الغساق . قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ « لو أن دلو من غساق جهنم ألقى في الدنيا لانتن أهل الأرض » فهذا شرايهم إن استغاثوا من العطش فيسقي أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسقيه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو عيت « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاه » (١) ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال تعالى : « ثم إنكم أنتم الآثالون المكذبون » (٢) لا تكونون من شجرة من زقوم (٣) فما يكون منها البطون (٤) فشايدون عليه من الحميم (٥) فشايدون شرب الهيم (٦) . وقال تعالى : « إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم » (٧) قطعها كأنه رؤس الشياطين (٨) فإنهم لا يكون منها فمالئون منها البطون (٩) ثم إن لهم عليها ثوبا من حميم (١٠) ثم إن مرجعهم إلى الجحيم (١١) . وقال تعالى : « تصلى نارا حامية » (١٢) تسقى من عين آنية (١٣) . وقال تعالى : « إن لدينا أنكالا وجحيما » (١٤) وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٥)

وقال ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك » (١٦) وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم » . وقال أبو السرداء ، قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام من ضريع لا

(١) آية (٢٩) سورة الكهف .
(٢) آية (٦٤-٦٨) سورة الصافات .
(٣) آية (١٢-١٣) سورة الزمل .

(٤) آية (٥١-٥٢) سورة الواقعة .
(٥) آية (٤-٥) سورة الفاتحة .
(٦) (صحيح) الترمذي (٢٥٨٥) .

يسمن ولا يفتى من جوع ، ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا يشرب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم ، فيقولون ادعوا خزنة جهنم ، قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ويحكم يخفف عنا يوما من العذاب ، فيقولون أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين إلا في ضلال ، قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يا مالكا ليقض علينا ريك ، قال فيجيبهم أنكم ماكثون . قال الأعمش أنبت أن بين دعائهم وبين إجابة مالكا إياهم ألف عام ، قال فيقولون ادعوا ويحكم فلا أحد خير من ويحكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال فيجيبهم « اخشوا فيها ولا تكلمون » قال فعند ذلك يشوا من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل .

وقال أبو أمامة : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : « وثقني من ماء صديد » (١) يتجرعه ولا يكاد يسقيه . قال يقرب إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوفعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى : « وسقوا ماء حميما مقطوع أمعاءهم » وقال تعالى : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقابها وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغربت بهم فهي لا تفر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : من أناه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهazمه بنى أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسن الذين يدخلون بها أناهم الله من فضله » الآية . . وقال رسول الله ﷺ إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها العقارب كاليفال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وفى ذلك وفى هذه الحيات فلم تمثل له .

ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي . قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلف جلده مسيرة ثلاث » . وقال رسول الله ﷺ : شفته الدغلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه ، وقال - عليه السلام - إن الكافر ليحجر لسانه في سبعين يوم القيامة ينراطه الناس ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن في

قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَتْ لَهُمْ جُلُودُهَا غَيْرَهَا ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم فبيل لهم عودوا كما كانوا ، ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم في أول إلقائهم في النار . قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك » وقال أنس قال رسول الله ﷺ « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت » (١) وما دام يؤذّن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة والويل والثبور فلهم فيه مسرور ولكنهم يمتنعون أيضا من ذلك .

قال محمد بن كعب لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا اثنيتين وأحييتنا اثنيتين فأعترقنا بذنوبنا فهل إلّا خُرُوجٌ مِن سِجِّيلٍ ﴾ . فيقول الله تعالى مجيبا لهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْعَبْرُ لَهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعتنا فارجمنا نعمل صالحا فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَنفُسُكُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل . فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ نَعْبُدْكُمْ مَا يُدْكِرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما غافلين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخْسِئُوا لَهَا وَلَا تَكْلُمُوهَا ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس - رضى الله عنه - قال زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَجْرَعْتَ أَمْ صَبَرْتَ مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا . وقال ﷺ : « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح يذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت » (٢) وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل وروى الحسن - رضى الله عنه - جالسا في زاوية وهو يبكي فقبل له لم تبكي فقال أخشى أن يطرحنى في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل عمومها أحزانها ومحنتها وحسراتها لا نهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حاضرة في الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منقصة ، فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكأن قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين منتعمين بالرضا والرضوان ، فبالحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم

(١) (ضعيف) ابن ماجه (٤٣٢٤) .

(٢) (صحيح) البخاري (٤٧٣٠) .

شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم . فقد قال رسول الله ﷺ : يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفوا وانحنوا ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها تودوا أن يصرفهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها . فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرينا من ثوابك وما أعدت فيها لأولائك كان أهون علينا . فيقول الله تعالى ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزوني بالعظام وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبئين تراهم من الناس بخلاف ما نعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم نهابوني وأجلتكم الناس ولم تحملوني وتزكيتكم للناس ولم تتزكوا لي فالיום أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم . قال أحمد بن حنبل إن أحدهما يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار ، وقال عيسى - عليه السلام - كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود الهوى لا صبر لي على حر شمسك فكيف صبري على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ، فانتظروا مسكين في هذه الأحوال واعلم أن الله تعالى خلق النار وأهلها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وبلغ مته . قال الله تعالى ﴿ وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَى إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم لقيامه ما سبق به القضاء فالحجب منك حيث تفصحك وتلهو وتشتغل بمحفات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حفاك فإن قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء في حفى فلك علامة تستأنس بها وتصديق رجائك بسببها وهو أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له فإن كان قد يسر لك الخير فأبشر فإنك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فإن دلالة هذا على العافية كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١) وإن الفجار لفي جحيم ﴿ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر من الدارين والله أعلم .

الباب الأربعون

في فضل الطاعة

أعلم أن طاعة الله سبحانه وتعالى جماع الخير كله وقد حث الله تعالى عليها في كتابه في آيات متعددة وبها أرسل الرسل ليخرج الناس من ظلمات النفوس إلى أنوار معرفة القدوس ، ويتمتعون في دار النعيم التي أعدت للمطيعين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر ، فإنهم لم يخلقوا عبثا بل ليجزى الذين أسأوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وهو الغنى عن طاعتهم ولا تضروه معصيتهم ولا تنقص من كماله شيئا ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها والله الغنى وأنتم الفقراء ، يا عبادنا يشترى الرقيق ويحب أن يكون قانما بما يلزم من الخدمة ناصحا فيها منقادا لمولاه الذى استولى عليه بالعرض اليسير الفانى ويمقته بزلة واحدة ويغضب عليه وربما منعه مرتبه أو طرده أو باع ، فما لنا لا نطيع مولانا الحقيقى الذى خلقنا وسوانا ونقع فى زلات عدد المطر ومع ذلك لم يمنع نعمه عنا وإمداداته التى أولاها لهلكنا وهو فادر على البطش بنا بمجرد ارتكاب زلة واحدة لكنه بمهلنا لعلنا نتوب فيقبلنا ويغفر زلتنا ويستر عورتنا ، فالعافل يعرف من هو الأحق بالطاعة فيقبل عليه ويتوجه بكلبته إليه ، وكلما أذنب تاب وإلى خلفه أناب ولا يباس من رحمته ويتحب إليه بشكر نعمه ويواظب على ذلك عسى أن يكتب من المحبين فبأنه الموت وهو مشتاق إلى مولاه ومولاه أشد شوقا إلى لقائه .

قال أبو الدرداء لكعب - رضى الله عنهما - أخبرنا عن أخص آية معنى فى التوراة فقال يقول الله تعالى طال شوق الأبرار إلى لقائى وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا ، قال ومكتوب الى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء أشهد أنى لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ، وفى أخبار داود - عليه السلام - أن الله تعالى قال يا داود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحببى وجليس لمن جالسى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن أختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحببى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتى ومصاحبى ومجالستى وأنسوا بى أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نبيى ومحمد صفى وخلفت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى .

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين أن لى عبادا من عبادى يحبوننى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكروننى وأذكروهم ، وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك . قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيع غنمه ، ويحتنون إلى غروب الشمس كما يحتن الطائر إلى وكرة عند الغروب فإذا جهنم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافتروا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتملقوا إلى بأنعامى ، فبين صارخ وبك وبين متأوه شاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمى ما يشكون من حبي ، أول ما أعطيتهم ثلاثا ، أفذف من نورى فى

قلوبهم فيخبرون عى كما أخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لا استقلالها لهم والثانية أقبل بوجهى فترى من أقبلت بوجهى عيبه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه .

وفى أخبار داود - عليه السلام - قل لعبادى المتوجهين إلى بيجنى ما ضرركم إذا احتجبت عن خلفى ورفعت الحجاب فيها بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بعيون قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دبنى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التقستم رضائى .

الباب الحادى والأربعون

فى الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزى الشَّاكِرِينَ ﴾ وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين لأعدن لهم صراطك المستقيم ، قبل هو طريق الشكر طعن اللعين فى الخلق ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقليل من عبادى الشَّاكِرُونَ ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى : ﴿ لَنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فقال تعالى : ﴿ فَسُوفَ يَغْنِيْكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ وقال ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقال : ﴿ وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَّشَاءُ ﴾ وقال : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَّشَاءُ ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ عَلِيمٌ ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَعَدَهُ ﴾ وقال : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله ﷺ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » (١) ، وروى عن عطاء أنه قال دخلت على عائشة - رضى الله عنها - فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت وأى شأنه لم يكن عجبا أثنى ليله فدخل معى فى فراشى أو قالت فى لحافى حتى مس جلدى جلده ثم قال بأبنة أبى بكر ذرىنى أتعبد لربى ، قالت قلت لنى أحب فربك لكنى أؤثر هواك فأذنت له فقام إلى فربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم رجع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على : ﴿ إِنْ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ

والأرض ﴿١﴾ الآية . . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السريشير ما روى أنه من بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فانطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ ذُكِّرْنَا بِهَذَا الْكَافِرِ الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْخَوْفِ ﴾ (٢) فأنا أبكي من خوفه فسأل الله له أن يجيره من النار فأجابه ، ثم أراه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا نزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروى عنه رحمه الله أنه قال : « يتأدى يوم القيامة ليقيم الحمدادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال رحمه الله : « الحمد رداء الرحمن » (٣) . وأوحى الله تعالى إلى أيوب - عليه السلام - إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي . . في كلام طويل . . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر - رضى الله عنه - أى المال نتخذ ، فقال - عليه السلام - « ليتخذ أحدكم لسانا ذكرا وقلبا شاكرا » (٤) فأمر ، باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال » وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان .

واعلم أن الشكر يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق ، وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى وبالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوفى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى أن شكر العيين أن تستر بكل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء ، والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به . فقد قال رحمه الله : « كيف أصبحت قال بخير فأعاد الله السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك » .

واعلم أن الشكر يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق ، وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى وبالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوفى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى أن شكر العيين أن تستر بكل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء ، والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به

(١) آية (١٦٤) سورة البقرة .

(٢) آية (٢٤) سورة البقرة .

(٣) تحف السادة ٩ / ٤٨ .

(٤) (صحيح) ابن ماجة (١٨٥٦) ، وصحيح الجامع (٥٣٥٥) .

فقد قال رحمه الله لرجل : « كيف أصبحت قال بخير فأعاد الله السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك » .

وكان السلف يتساءلون وينتبههم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستطيق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء بإظهار التسوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يسكت ، فالشكر طاعة والشكرى معصية فبيحة من أهل الدين وكيف لا تفبح الشكرى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فبالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به والضعف إلى الشكر أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكرى إلى غيره ذل وإظهار الذل للبعد مع كونه عبد مثله ذل قبيح . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَضْلَكُم ﴾ (١) فالشكر باللسان من جملة الشكر .

وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبير الكبير ، فقال يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسنة لكان في المسلمين من أسمن منك فقال تكلم فقال لسانا وفدا الرغبة ولا وفدا الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فذلك وأما الرهبة فقد أمتنا منها عدلك وإنما نحن وفدا الشكر جنتك تشرك باللسان وتنصرف .

الباب الثانى والأربعون

فى بيان ذم الكبير

قد ذم الله الكبير فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَقَدْ اسْتَكْبَرُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَغَتَوُا عَثْوًا كَبِيرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ ﴾ وذم الكبير فى القرآن كثير . وقد قال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : « الكبيراء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالي » وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا

(١) آية (١٩٤) سورة الأعراف .

فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن فقال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه . وقال رسول الله ﷺ : لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجحيم فيصيه ما أصابهم من العذاب . وقال سليمان بن داود - عليهما السلام - يوما للطير والإنس والجن والبهائم اخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى سمع رجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست أفداه البحر فسمع صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعت ، وقال ﷺ يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله الها آخر ، وبالمصورين . وقال ﷺ : لا يدخل الجنة يخيل ولا جبار ولا سىء الملكة . وقال ﷺ : تحاجت الجنة والنار ، ففالت النار أو ثرت بالتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة مالى لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزهم ، فقال الله للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها . وقال ﷺ : « بس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الأعلى ، بس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال ، بس العبد عبد عنى وبغى ونسى المبدأ والمتهى » وعن ثابت أنه قال بلغنا أنه قيل « يا رسول الله ما أعظم كبر فلان فقال : أليس بعده الموت » .

وقال عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إن نوحا - عليه السلام - لما حضرته الوفاة دعا إليه نبيه ، وقال إني أمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأراضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان وضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها ، ولو أن السموات والأراضين وما فيهن كانت حلقة فوضعت لا إله الله عليها لقصمتهما وأمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » . وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا .

وقال ﷺ : « أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون » . وقال ﷺ : « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما التفهفون قال المتكبرون » . وقال ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطامم الناس في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنبار يسفون إلى سجن في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنبار يسفون من طين الخبال عصارة أهل النار » . وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور نظفهم الناس لهوائهم على الله تعالى » . وعن محمد بن واسع

قال دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال : إن في جهنم وأديا يقال له هيب حتى على الله أن يسكنه كل جبار فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه . وقال ﷺ : « إن في النار قصيرا يجعل فيه المتكبرون ويطن عليهم » . وقال ﷺ : « يرى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وقال « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاث دخل الجنة الكبير والدين والغلول » . وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب لما خلق الله الجنة عدن نظر إليها فقال أنت حرام على كل متكبر . وقال محمد بن الحسين بن علي ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر ، وسئل سليمان عن السيئة لا تنفع معها حسنة فقال الكبير .

وقال النعمان بن بشير على المنبر إن للشيطان مصائد وفخوخا وإن من مصائد الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بيمينه وكرمه . وقال رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى رجل بجر إزاره بطرا » . وقال ﷺ : « بينما رجل يتبختر في برديه إذ أعجبته نفسه فحسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (١) . وقال ﷺ : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » . وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول أي بني ارفع أزواك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء » (٢) .

وقال ﷺ : « إذا مشيت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارم والروم سلط الله بعضهم على بعض » (٣) . وقال ابن الأعرابي هي مشية فيها اختيال ، وقال ﷺ : من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان . وعن أبي بكر الهذلي قال بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهنم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نصد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة ، فقال أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفه مصر خده ينظر في عطفه أي حميق ، أنت تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير مأخوذ بأمر الله فيها ولا مؤدى حق الله منها في كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان به لفنة والله لأن يمشى أحد طبيعته أو يتخلج تخليج المجنون خير له من هذا . فسمع ابن الأهنم فرجع يعتذر

(١) (صحيح البخاري) (٥٧٨٩) .

(٢) (صحيح البخاري) (٥٧٨٣) ، ومسلم (٢٠٨٥) .

(٣) (صحيح ابن المبارك) ٢ / ٢ : . وصحيح الجامع (٨٠١) .

إليه ، فقال لا تعتذر إلى ربك ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرْحَا إِنَّكَ لَمِنَ تُغَارِ الْأَرْضِ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ (١) مر بالحسن شاب عليه بزة له حنة فدعاه ، فقال له ابن آدم معجب بشبابك محب لشماتك كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ، ويحبك داو فليك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه ، وقال أتدري من أنت أما أمك فاشتريتها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر في المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال إن للشيطان إخوانا . . يكررها مرتين أو ثلاثا .

ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خبز فقال يا عبد الله هذه مشية ييغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب أما تعرفني فقال بلى أعرفك أولك نطفة ملرة وأخرك جيفة قلرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك وأنشدوا في هذا المعنى .

عجبت من معجب بصورته ** وكان بالأمس نطفة ملره
وفي غد بعد حسن هيئته ** يصير في القبر جيفة قلره
وأنشد خلف الأحمر :

لنا صاحب مولع بالخلاف ** كثير الخطأ قليل الصواب
أشد لجأجا من الخنفاء ** وأزهى إذا ما مشى من غراب
وقال آخر :

قلت للمعجب لما ** قال مثلى لا يراجع
باتقريب العهد بالخمر ** ج لم لا تتواضع
ومثله لذا النون المصري :

أيها الشامخ الذي لا إبرام ** نحن من طينة عليك السلام
إنما هذه الحياة متاع ** ومع الموت تستوى الأقدام
وقال مجاهد في قولى ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أى يتبختر والله تعالى أعلم

الباب الثالث والأربعون

فى التفكير فى الإيمان وغيرها

ند أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَةً . . . أَى تَعَابَهُمَا فِي الْمَجَىءِ وَالذَّهَابِ يَخْلَفُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ إِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا جَاءَ الْآخَرُ خَلْفَهُ أَى بَعْدَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ قال عطاء أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والتقصان وما أحسن قول القائل :

ياراقد الليل مسرورا بأوله ** إن الحوادث قد تطرقن أسحارا
لا نفرحن بليل طاب أوله ** فرب لخير ليل أجمع النارا
وقول آخر :

إن الليالى للإتام مناهل ** تطوى وتنشر أنها الأعمال
فقصاوه من الهموم طويلة ** وطواهن مع السرو قصار

وأنى الله على المتفكرين فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ وقد قال ابن عباس - رضى الله عنهما - إن قوما تفكروا فى الله عز وجل ، وقال النبى ﷺ : ﴿ تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قلره ﴾ (١) وعن النبى ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : ﴿ ما لكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله عز وجل ، قال فكذلك فافعلوا تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها يياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم ، قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم أم لا ، وعن عطاء قال انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضى الله عنها - فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد : ما بمنعك من زيارتنا ، قال قول رسول الله ﷺ ﴿ زُرْ غُيَا تَزِدْ حُبَا ﴾ (٢) ، قال ابن عمير فأخبرتنا بأعجب شىء رايته من رسول الله ﷺ : قال : فبكيت وقالت كل من أمره كان عجبا أثنى مرة فى ليلنى حتى مس جلده جلدى ثم قال ذرىنى أتعبد لربى عز وجل فقام إلى القرية فنوضاً منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحينه ثم سجد حتى بل الأرض ثم

(١) (ضعيف) إتحاف السادة ١٠ / ١٨٠ ، وضعيف الجامع (٢٤٧٠) .

(٢) (صحيح) الطبراني ٤ / ٢٦ ، وصحيح الجامع (٣٥٦٨) .

فيصبر إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تمجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تمجده فقال كان السماوات مطبقة على الأرض وكان نفسى يخرج من ثقب ابرة . وقال ﷺ : « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » (١) .

وروى عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال : لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما أتوا بإذن الله تعالى لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات . ويروى لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت .

وروى أن إبراهيم - عليه السلام - لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت باخيلى ؟ قال كنفود جعل فى صوف رطب ثم جذب فقال أما أنا قد هونا عليك .

وروى عن موسى - عليه السلام - أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت ، قال وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فينظير .

وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسليخ بيد القصاب .

وروى عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على نفسى سكرات الموت ، وفاطمة - رضى الله عنها - تقول وأكره لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أيبك بعد اليوم . وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحماسى كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين أن الموت كغصن كثير الشوك ادخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكه بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبي ﷺ : « أن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وأن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة » (٢) . فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتولى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث الأولى شدة النزاع كما ذكرناه ، الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته .

فقد روى عن إبراهيم الخليل - عليه السلام - أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ، قال لا تطيق ذلك ، قال بلى قال فأعرض عنه ثم لتفت

(١) (ضعيف) أحمد ٤٢٤ / ٣ ، وضعيف الجامع (٥٨٩٦) .

(٢) (موضوع) تنزيه الشريعة ٣٧٥ / ٢ .

فلذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخير لهيب النار والدخان فغشى على إبراهيم - عليه السلام - ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه .

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أن داود - عليه السلام - كان رجلا غيورا وكان إذا خرج غلق الأبواب فغلقها ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار ، فقلت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرأه فقال من أنت فقال أنا الذى لا آهاب الملوك ولا يمنهم منى الحجاب ، فقال فأنت والله إذا ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه .

وروى أن عيسى - عليه السلام - مر بجمجمة فضر بها برجله فقال تكلمى فإذا الله فقالت يا روح الله أنا ملك زمان كنا وكذا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى إذا بدا لى ملك الموت فزل منى كل عضو على حiale ثم خرجت نفسى إليه ، فبالت ما كان من تلك الجموع كان فرقة وبالت ما كان من ذلك الإنس كان وحشة فهذه داهية يلقيها العصاة ويكفأها المطيعون .

فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال ، وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم - عليه السلام - كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربه ، فقال أنا ربه ، فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت ، قال هل تستطيع أن ترى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ، قال نعم فأعرض عنى فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى له ملكاه الكاتبان عمله فإن كان مطيعا قال لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وأن كان فاجرا قال لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك لشخص بصر الميت اليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

الداهية الثالثة مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم تلك المشاهدة فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولئن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نعمة ملك الموت بإحدى البشريين أما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولى الله بالجنة ومن هذا

كان خوف أرباب الألباب وقد قال النبي ﷺ : « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » (١).

الباب الخامس والأربعون

في بيان القبر وسؤاله

قال رسول الله ﷺ : يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بي أذ كنت تمزج فذاذا ، فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب للقبر أرأيت أن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيقول القبر إنني إذا انحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه إلى الله تعالى والفاذا هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي ، وقال عبيد بن عمير اللبيش ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك الله مطبعا كنت عليك اليوم رحمة ، وأن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة أنا الذي من دخلني مطبعا خرج ومن دخلني عاصيا خرج مشورا ، (٢).

وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصاب بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبرا أما كان لك في متفدنا إياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك . وتناديه بقاع الأرض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في باطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبر وأنت تراه محمولا لا تهاده أحبته إلى المنزل الذي لا بد له منه .

وقال يزيد الرقاشي بلغني أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم انطقها الله فقالت أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا ، وقال كعب إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والزكاة والجهاد والصدقة ، قال فتجي ملائكة العذاب من قبل رجله فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القياوم لله عليهما ، فيأتونه من قبل رأسه يقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأ لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول

(١) انخاب السادة ١٠ / ٢٦٦ .

(٢) حلية الأولياء ٦ / ٩٠ .

الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت ميتا ، قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له في قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وقال عبيد الله بن سمي في جنازة بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « أن الميت بقعد وهو يسمع خطب مشيعه فلا يكلمه شيء إلا قبرة يقول ويحك يا ابن آدم قد حلرتني وحلرت ضبقي وننتي وهرنى ودودي فمأذا أعددت لي : » (١).

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ عنى قبره منكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا . ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كان وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتح أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد روحه قبل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فأني وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ (٢) الآية . . وأنه ليسمع حقيق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ . قال فيتهرأته انتهارا شديدا وهي آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يَتَجَبَّأُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (٢) الآية . ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت فيقول أنا عملك الصالح والله عملت أن كنت لسريعا إلى طاعة الله تعالى بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا . قال ثم ينادى مناد أن أفرشوا له من فرش الجنة وانحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة وفتح له باب الجنة ، فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى

قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من فطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء ، وغلفت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض ، فيقول عز وجل أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر ائني وعدته : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾ الآية . .

(٢) آية (٥٥) سورة طه .

(١) انخاب السادة ١٠ / ٣٩٧ .

(٢) آية (٢٧) سورة إبراهيم .

وأنه لسمع خفق نعالهم إذا ولوا ملهين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري ، فيقال له لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح فبيح الثياب فيقول أنا عملك الخيث والله أن كنت لسريعا في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ثم يقبض له أصم أصم أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربه يسمعها من على الأرضين . قال ثم ينادى مناد أن أفرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار .

وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ (١) قال أى شيء تريد وفى أى شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجتمع المال وتغرس وتبنى البنيان وتشقق الأنهار ، قال لا لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا انها كلمة هو قائلها أى ليقولنها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبى ﷺ : المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضى حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدررون فيما أنزلت « فإن له معيشة ضنكا » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فى عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تينا هل تدررون ما التين تسعة وتسعون حبة لكل حبة سبعة رؤوس يخذشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون ، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن عدد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغفل والخذل وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ثم تشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها بأقسام وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذى ائذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها الا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة ، فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف أى حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

الباب السادس والأربعون

فى بيان علم اليقين وعين اليقين

والسؤال يوم العرض

قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ يعنى لو تعلمون أمر القيامة باليقين لألهاكم عن ذلك أى عن التكاثر والتفاخر ولعلمتم ما ينفعكم من الخير ولتركتم ما لا ينفعكم ، ويقال حقا لو تعلمون علم اليقين كما يعلمه الرسل أن المال والحساب فى الفخر لا ينفعكم يوم القيامة ما اقتصرتم بالمال وكثرة العدد لترون الجحيم . أقسم الرب أنكم لترون النار وشدتها يوم القيامة عيانا ثم لترونها عين اليقين يعنى لترون الجحيم ، الرؤية التى هى نفس اليقين وهى المشاهدة والمعاينة التى لا شك فيها ، فإن قيل ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين قيل له علم اليقين كان للأنبياء بنبوتهم ، وعين اليقين للملائكة لأنهم يعاينون الجنة والنار واللوح والقلم والعرش والكرسى فتكون لهم عين اليقين . إن شئت قلت علم اليقين علم الموت والقبور للأحياء لأنهم يعرفون بأن الأموات فى القبور ولكن لا يدرون كيف حالهم فيها وعين اليقين للأموات لأنهم عاينوا القبور ، إما روضة من رياض الجنة وأما حفرة من حفر النار . وإن شئت قلت علم اليقين علم القيامة وعين اليقين معاينة القيامة وأحوالها وأن شئت قلت علم اليقين علم الجنة والنار وعين اليقين الرؤية ﴿ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعنى لتسئلن يوم القيامة عن نعيم الدنيا من صحة الأبدان والاسماع والأبصار والمكاسب وملأذ المأكول والمشارب وغير ذلك هل أدبتم شكرها لمولاهما وعزتموه بها أم كفرتم بها .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعنى عن الطاعة ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ يقول حتى يأتيكم الموت ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يقول لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ قال لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ وذلك لأن الصراط يوضع وسط جهنم فتاج مسلّم ومخدوش مسلّم ومكدوش فى نار جهنم ﴿ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (١) يعنى شيع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم . وعن على - رضى الله عنه - قال النعيم العافية . وعن أبى قلابة عن النبى ﷺ فى الآية قال : ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل النقى فأكلونه . وعن عكرمة قال لما نزلت هذه الآية قالت الصحابة يا رسول الله أى نعيم نحن فيه وإنما نأكل فى انصاف بطوننا خبز الشعير فأوحى الله إلى نبيه ﷺ قل لهم اليس تحتذون النعال ونشربون الماء البارد فهذا من النعيم . وروى الترمذى

(١) آية (١ - ٨) سورة التكاثر .

(١) آية (٩٩ - ١٠٠) سورة المؤمنون .

وغيره أنه لما نزلت ﴿ أَلَهَاتُكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ التعميم قالوا يا رسول الله أى نعيم نسئل عنه وأما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابتنا والعدو حاضر فمن أى نعيم نسأل . قال أما أن ذلك سيكون . وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أن أول ما يستل العبد عنه يوم القيامة من التعميم أن يقال له ألم نصبح لك جسمك ونزوك من الماء البارد » (١) وروى مسلم وغيره عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال خرج النبى ﷺ فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال : ما أخرجكما من بيتكما الساعة فلا الجوع يا رسول الله ، قال والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما فقومما فقاما معه ، فأنى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رآته المرأة قالت مرحبا فقال النبى ﷺ أين فلان فقالت انطلق يستعذب لنا الماء اذ جاء الأنصارى فنظر الى رسول الله ﷺ وصحابيه فقال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وعمر فقال كلوا من هذا وأخذ المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذاك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - : والذي نفسى بيده لتسألن عن هذا التعميم يوم القيامة .

الباب السابع والأربعون

فى فضل ذكر الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ (٢) قال ثابت البنانى - رحمه الله - إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ففرغوا منه وقالوا كيف تعلم ذلك فقال إذا ذكرته ذكرنى وقال تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (٤) قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أى بالليل والنهار والبر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . قال تعالى فى ذم المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللّٰهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرِ اللّٰهِ أَكْبَرُ ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه . والآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه إلى غير ذلك من الآيات . وقال رسول الله ﷺ ذكر الله فى

الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم . وقال ﷺ : ذاك الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين . وقال ﷺ : يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرنى ونحسرت شفاته بى . وقال ﷺ : ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع . وقال ﷺ : من أحب إن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل . وسئل رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى عز وجل . وقال ﷺ : أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبغ وتمسى وليس عليك خطيئة . وقال ﷺ لذكر الله عز وجل بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً وقال ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى . « إذا ذكرنى عبدي فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملته . وإذا تقرب منى شبرا تغربت منه ذراعاً وإذا تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إلى هرولت إليه » يعنى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال ﷺ : سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله من جعلتهم وجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ، (١) ، وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ . ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق واللهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم . قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل دائماً . وقال ﷺ قال الله عز وجل : « من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيت أفضل ما أعطى السائلين » (٢) والفضل بلقنا أن الله عز وجل قال : « يا عبدي أذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما » . وقال بعض العلماء إن الله عز وجل يقول : « أبما عبد أطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جلسه ومحادثه وأنيته » .

وقال الحسن الذكر ذكران ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند حرم الله عز وجل .

ويروى أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل ، وقال معاذ بن جبل - رضى الله عنه - ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها . وقال رسول الله ﷺ : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فبمن عنده » (٣) . وقال ﷺ : ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات . وقال ﷺ : ما قد قوم مفعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على

(١) (حسن) الترمذي (٢٩٢٦) .

(٢) (صحيح) البخاري (٦٦٠) .

(٣) (صحيح) أحمد (١٠٣) ، وصحيح الجامع (٥٦٠٨) .

(١) الطبري ٣٠ / ١٨٦ ، والدر المنثور ٦ / ٣٨٨ .

(٢) آية (١٥٢) سورة البقرة .

(٣) آية (١٩١) سورة آل عمران .

النبى ﷺ الا كان عليهم حسرة يوم القيامة . وقال داود - عليه السلام - إلهى إذا رأيتنى أجاوز مجالس الذاكرين الى مجالس الغافلين فاكسر رجلى دونهم فإنهم نعمة تنعم بها على ، وقال ﷺ المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفى ألف مجلس من مجالس السوء .

وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - : إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التى يذكر فيها اسم الله تعالى كما تراءى النجوم . وقال سفيان بن عيينة - رحمه الله - إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا ألا ترين ما يصنعون فتقول الدنيا دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى المسجد فذهب الناس الى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً فقالوا يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم فى المسجد قال فماذا رأيتم قالوا رأينا قوما يذكرون الله عز وجل ويقرأون القرآن قال فذلك ميراث رسول الله ﷺ .

وعن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى عنه ﷺ أنه قال : « إن لله عز وجل ملائكة سياحين فى الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا هلمو' الى بغيتكم فيجيتون فيحفون بهم الى السماء ، فيقول الله تبارك وتعالى أى شيء تركتم عبادى يصنعونه ، فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك ، فيقول تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني ؟ فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحا وتمجيذا فيقول لهم من أى شيء يتعوذون ، فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها ، فيقولون لا ، فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها ، فيقولون لو رآها لكانوا أشد هربا منها وأشد نفورا ، فيقول الله عز وجل وأى شيء يطلبون ، فيقولون الجنة ، فيقول تعالى وهل رأوها ؟ فيقولون لا ، فيقول فكيف لو رأوها ، فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصا ، فيقول جل جلاله إني أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقولون كان فيهم فلان ولم يردهم إنما جاء الحاجة ، فيقول الله عز وجل هم القوم لا يشقى جلسهم » (١) . وقال ﷺ : أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وقال ﷺ : ما معناه من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة ، كانت له حرزا من الشيطان يومه وعدلته مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . وقال ﷺ : ما من عبد توحى فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه الى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً - عبده ورسوله - إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء .

(١) (صحيح) أحمد ١/ ٤٤ ، وصحيح الجامع (٢١٣٧) .

الباب الثامن والأربعون

فى فضائل الصلوات

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١) وقال ﷺ خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله . وقال ﷺ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب بيباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه ؟ قالوا لا شيء ، قال ﷺ فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن ، وقال ﷺ : إن الصلوات كفارة لما ينهن ما اجتنب الكبائر . كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْخَمْسَاتِ يَذْهَبْنَ السُّبُتَاتِ ﴾ ومعنى يذهبنها يكفرنها حتى كأنها لم تكن . وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود إن رجلا أصاب من امرأة قبيلة فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك كأنه يسأل عن كفارتها فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ ﴾ (٢) الآية . فقال الرجل يا رسول الله الى هنا قال هى لمن عمل بها من أمتى . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى أمامة أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أنم فى حد الله مرة أو مرتين فأعرض عنه ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال أين الرجل قال أنا ذا قال أتممت الوضوء وصليت معنا أنفا ؟ قال نعم قال فإنك من خطيبتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد . وأنزل الله حيثنذ على رسول الله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ ﴾ الآية وقال ﷺ : « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما » . وقال ﷺ : « من لقى الله وهو مضيق للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته » (٣) وقال ﷺ : الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين . وسئل ﷺ : أى الأعمال أفضل ، فقال الصلاة لموافقتها . وقال ﷺ : من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان . وقال ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة » (٤) . وقال ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راعع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد . وقال النبى ﷺ : من ترك صلاة متعمداً فقد كفر . أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة أنه بلغها ودخلها . وقال ﷺ : « من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد - عليه السلام - » .

وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - من توحى فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فإنه

(١) آية (١٠٣) سورة النساء .

(٢) انفاه السادة المتقين ٣ / ٩ .

(٣) آية (١١٤) سورة هود .

(٤) (ضعيف) الترمذى (٤) ، وضعيف الجامع (٥٢٦٥) .

في صلاة ما كان يعتمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطوتيهِ حسنة ونمحي عنه بالأخرى سيئة ، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً قالوا لم يا أبا هريرة ؟ قال من أجل كثرة الخطأ . وقال رسول الله ﷺ : ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي . وقال رسول الله ﷺ : ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة .

وروى أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مراقبتك في الجنة . فقال ﷺ أعني بكثرة السجود . وقيل أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً وهو معني قوله عز وجل : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١) وقال عز وجل : ﴿ سَبِّحْهُمْ لِي وَهُمْ حِينَ أَقْرَبُ السُّجُودِ ﴾ (٢) فقيل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود ، قيل هو نوره الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح ، وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الرضوء . وقال ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان بيكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعميت فلي النار .

ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجادة .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - كان لا يسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن أسباط يقول يا معشر الشباب يادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده إلا وجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد ابن جبير ما أسى على شيء من الدنيا ما أسى على السجود . وقال عقبة بن مسلم ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجداً . وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد ، فأكثروا الدعاء عند ذلك .

الباب التاسع والأربعون

في بيان عقوبة تارك الصلاة

قال تعالى مخبراً عن أصحاب الجحيم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ (١) قالوا لم نك من المصلين (٢) ولم نك نطعم المسكين (٣) وكنا نخوض مع الخائضين (٤) .

(٢) آية (٢٩) سورة الفتح .

(١) آية (١٩) سورة الملق .
(٣) آية (٤٢ - ٤٥) سورة المدثر .

وأخرج أحمد : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » (١) ومسلم « بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة » وأبو داود والنسائي : « ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة » والترمذي « بين الكفر والإيمان ترك الصلاة » وابن ماجه « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » ، وصح كما رواه الطبراني بإسناد صحيح وغيره أنه ﷺ قال « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » والطبراني بإسناد صحيح « ترك الصلاة متعمداً فقد كفر جهاراً » وفي رواية : بين العبد والكفر أو الشرك ترك الصلاة متعمداً فقد كفر وفي أخرى « ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك » .

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أوصاني خليلي ﷺ بسبع خلال : قال لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو حرقتم أو صلبتم ، ولا تركوا الصلاة متعمداً فمن تركها متعمداً فقد خرج من الملة ، ولا تركبوا المعصية فإنها سخط الله ، ولا تشربوا الخمر فإنها رأس الخطايا كلها . . . الحديث والترمذي كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة . وصح خبر « بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة فإذا تركها فقد أشرك » . والبزار : « لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له » (٢) والطبراني لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد . وابن ماجه والبيهقي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال « أوصاني خليلي ﷺ أن لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وإن حرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر فإنها باب كل شر » .

والبزار وغيره بسند حسن عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال لما قام بصري أي ذهب مع بقاء صحة الحدقة قيل نداويك وتدع الصلاة أيا ما قلت لا إن رسول الله ﷺ قال « من ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان » (٣) .

والطبراني بسند لا بأس به في المتابعات « أتى رسول الله ﷺ رجل فقال يا رسول الله علمني عملاً إذا أنا عملته دخلت الجنة قال لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت وحرقت ، وأطع والدك وإن أخرجك من مالك ومن كل شيء هو لك ، ولا تترك الصلاة متعمداً فإن من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله . . . الحديث .

وفي رواية سندها صحيح لكن فيه انقطاع : « لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت ، ولا تعفن والدك وإن أمراك إن تخرج من أهلك ومالك ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فإن من

(٢) (ضعيف) مجمع الزوائد ١ / ٢٩٢ .

(١) (صحيح) أحمد ٣ / ٣٨٩ .

(٣) (صحيح) مجمع الزوائد ١ / ٢٩٥ .

ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا فإنه أى شربها رأس كل فاحشة ، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله ، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس وإن أصاب الناس موت فائتت وأنفق على أهلك من طولك ولا ترفع عصاك عنهم أدبا وأخفهم في الله .

وابن حبان في صحيحه « بكروا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك الصلاة فقد كفر » .

والطبراني عن أميمة مولاة رسول الله ﷺ قالت : كنت أصيب على رأس رسول الله ﷺ وضوءه فدخل رجل فقال أوصني فقال لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت وحرقت بالنار ، ولا نعص والدبك وأن أمرك إن نخلي من أهلك ودينك فتخله ، ولا تشربن خمرا فإنه مفتاح كل شر ولا تترك صلاة متعمدا ، فمن فعل ذلك فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله . . . الحديث .

وأبو نعيم « من ترك الصلاة متعمدا كتب الله اسمه على باب النار من يدخلها » والطبراني والبيهقي « من ترك الصلاة فإنما وتر أهله وماله » والحاكم عن علي أنه ﷺ قال « والله يا معشر قريش لتقيم الصلاة ولتؤتي الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلا فيضرب أعناقكم على الدين » . . . الحديث .

والبزار « لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له » .

وأحمد مرسل « أربع فرضهن الله في الإسلام فمن أتى بثلاث لم يغنين عنه شيئا حتى يأتي بهن جميعا ، الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت .

والأصبهاني « من ترك صلاة متعمدا حبط الله عمله وبرئت منه ذمة الله حتى يرجو الله عز وجل نوبة » . والطبراني « من ترك الصلاة فقد كفر جهارا » . وأحمد بسند صحيح لكن فيه انقطاع : « لا تترك الصلاة متعمدا فإنه من ترك الصلاة متعمدا فإنه برئت منه ذمة الله ورسوله » . وابن أبي شيبه والبخاري في تاريخه موقوفا على علي - رضى الله عنه - قال « من لم يصل ، فهو كافر » ومحمد بن نصر وابن عبد البر موقوفا على ابن عباس « من ترك الصلاة فقد كفر » . وابن نصر موقوفا على ابن مسعود قال « من ترك الصلاة فلا دين له » وابن عبد البر موقوفا على جابر « من لم يصل فهو كافر » ، وابن عبد البر وغيره موقوفا على أبي الدرداء قال « لا إيمان لمن لا صلاة له ، ولا صلاة لمن لا وضوء له » .

وقال ابن أبي شيبه قال النبي ﷺ : « من ترك الصلاة فقد كفر » وقال محمد بن نصر سمعت اسحق يقول صح عن النبي ﷺ « أن تارك الصلاة كافر » وكذلك كان رأى أهل العلم من لون النبي ﷺ أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر . وقال أيوب ترك الصلاة

كفر لا يختلف فيه . وقال تعالى : ﴿ فاختلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ (٥٩) إلا من تاب ﴿ (١) ﴾

فابن مسعود ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية ولكن أخروها عن أوقاتها . وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين : هو أن لا يصلى الظهر حتى تأتى العصر ، ولا يصلى العصر إلى المغرب ، ولا يصلى المغرب إلى العشاء ، ولا يصلى العشاء إلى الفجر ، ولا يصلى الفجر إلى طلوع الشمس ، فمن مات وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب أو عده الله بغيره وهو واد في جهنم بعيد قعره ، شديد عقابه . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٢) .

قال جماعة من المفسرين المراد بذكر الله هنا الصلوات الخمس فمن اشتغل عن الصلاة في وقتها بماله كبيعته أو صنعته أو ولده كان من الخاسرين ، ولهذا قال ﷺ : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن نقصت فقد خاب وخسر » . وقال تعالى : ﴿ فويل للفسقين ﴾ (٣) الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴿ (٤) ﴾ . قال ﷺ : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها .

وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني وابن حبان في صحيحه « أنه ﷺ ذكر الصلاة يوما فقال من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع فارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » .

قال بعض العلماء وإنما حشر مع هؤلاء لأنه إن اشتغل عن الصلاة بماله أشبه فارون فيحشر معه ، أو بملكه أشبه فرعون فيحشر معه ، أو بوزارته أشبه هامان فيحشر معه ، أو بتجارته أشبه أبى بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه .

والبزار عن سعد بن أبي وقاص قال « سألت النبي ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » ، وأبو يعلى بسند حسن عن مصعب بن سعد قال قلت لأبي : يا أبا عبد الله رأيت قوله تعالى : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو أينا لا يحدث نفسه ، قال ليس ذاك إنما هو إضاعة الوقت . والويل شدة العذاب وقيل واد في جهنم لو سبوت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره فهو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن وقتها إلا أن ينوب إلى الله ويندم على ما فرط .

(٢) آية (٩) سورة المنافقون .

(١) آية (٥٩ - ٦٠) سورة مريم .

(٣) آية (٤ - ٥) سورة الماعون .

وابن حبان فى صحيحه « من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله » . والشبخان والأربعة
الذى تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله » (١) ، زاد ابن خزيمة فى صحيحه قال مالك
تفسيره ذهاب الوقت ، والنسائي « من هذه الصلاة يعنى فكأنما وتر أهله وماله يعنى العصر »
ومسلم والنسائي « أن هذه الصلاة يعنى العصر عرضت على من كان قبلكم قضيموها فمن حافظ
منكم اليوم عليها كان له أجره مرتين ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد » أى النجم . وأحمد
والبخارى والنسائي « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » ، وأحمد بإسناد صحيح وابن أبي
ثيبة « من ترك صلاة العصر متعمدا حتى تفوته فقد حبط عمله » ، وابن أبي ثيبة مرسل « من ترك
العصر حتى تغيب الشمس من غير عذر فقد حبط عمله » ، وعبد الرزاق « لأن يوتر أحدكم أهله
وماله خير له من أن يفوته وقت صلاة العصر » (٢) . والطبراني وأحمد « من ترك صلاة العصر
متعمدا حتى تقرب الشمس فكأنما وتر أهله وماله » والشافعى والبيهقى « من فاتته الصلاة فكأنما
أوتر أهله وماله » .

والبخارى عن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال « كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول
لأصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا فيقص عليه ما شاء الله أن يقص وأنه قال لنا ذات غداة أنه أتاني
الليلة آتيان وأنهما اتبعنا بي وأنهما قالوا لى انطلق وإنى انطلقت معهما وإننا أتينا على رجل
مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيلغ رأسه فيشد هذه الحجر ،
أى فيشد حرج فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعله
فى المرة الأولى قالت قلت لهما سبحانه الله ما هذا قال لى انطلق انطلق .

فأتينا على رجل مستلق على قفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد إذا هو باتى أحد شقى
وجهه فيشرشر أى يشق شدة إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه . قال وربما قال أبو رجاء
فيشق ، قال ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، قال فما يفرغ من
ذلك الجانب حتى يصح لك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ،
قال قلت سبحانه الله ما هذا قال لى انطلق انطلق .

فانطلقنا فأتينا على مثل التنور ، قال فأحسب أنه كان يقول فإذا فيه لغط وأصوات قال
فاطلعنا عليه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهيب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك
اللهيب فموضوا أى يفتح المعجمتين وسكون الواوين صياح مع انضمام وفرع . قال قلت ما
هؤلاء قال لى انطلق انطلق .

(١) (صحيح) البخاري (٥٢٢) ، ومسلم (٦٢٦) .

(٢) الطبراني ١٩ / ٤٣٠ ، ومجمع الزوائد ١ / ٣٠٨ .

قال فانطلقنا فأتينا على نهر حسب أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا هو فى النهر رجل
سابع يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح
ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر أى يفاة فمعجمة مفتوحتين فتح فاه فآلقمه حجرا . قلت لهما ما
هذه قالوا لى انطلق انطلق .

فانطلقنا فأتينا على رجل كبريه المرأة كأكبره ما أنت راه رجلا مريئا وإذا عنده نار يحثها (أى
بمهمة مضمومة فمعجمة) يوقدها ويسمى حولها ، قال قلت ما هذا قال لى انطلق انطلق .

فانطلقنا على روضة معتمدة أى طويلة التبات من أعمت إذا طال فيها من كل نور الربيع وإذا بين
ظهرانى الروضة رجل طوال لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان
رأيتهم ، قال قلت ما هذا ما هؤلاء قال لى انطلق انطلق .

فانطلقنا فأتينا على دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم ولا أحسن منها قال لى أرق فيها .
فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها
فلقنا رجال ، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راه وشطر منهم كأقبح ما أنت راه قالوا لهم اذهبوا
فتعروا فى ذلك النهر ، قال وإذا النهر معترض يجرى كأن ماءه المحض أى الخالص فى البياض ،
فذهبوا فوقعوا ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالوا لى هذه
جنة عدن وهذا منزل ، فسمما أى ارتفع بصرى صعدا بضممتين الى فوق فإذا قصر مثل الربابة أى
السحابة البيضاء قال قالوا لى هذا منزل ، قال قلت لهما بارك الله فيكما فذكرنى فأدخله قالوا أما
الآن فلا وأنت داخله ، قال قلت لهما فأنى رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت ، قال أنا
سنخبرك .

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام
عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه
الرجل يغدو من بيته فيكذب الكلبة تبلغ الأفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه أكل الربا .

وأما الرجل الكبريه المرأة الذى عند النار يحثها ويسمى حولها فإنه مالك خازن النار .

وأما الرجل الطوال الذى فى الروضة فإنه إبراهيم ، أما لولدان الذين حوله فكل مولود مات
على الفطرة .

فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله ﷺ وأولاد المشركين .
وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا
وأخر سيئا تجاوز الله عنهم .

وفى حديث البزار قال : ثم أتى النبي ﷺ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت
عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء . قال يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين تناقلت
رؤوسهم عن الصلاة .

وأخرج الخطيب وابن النجار على ، الإسلام الصلاة فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدها
ووقتها وستبها فهو مؤمن . وابن ماجه قال : قال الله تعالى « افترضت على أمتك خمس
صلوات وعهدت عندى عهدا أن من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة ومن لم يحافظ عليهن فلا
عهد له عندى » .

وأحمد والحاكم « من علم أن الصلاة عليه حق واجب وأداها دخل الجنة » ، والترمذى وقال
حسن غريب والنسائى وابن ماجه « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن
صلحت فقد أفلح وإن فسدت فقد خاب وخسر وإن انتقص من فريضته قال الرب انظروا
هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سهرا عمله على ذلك » والنسائى
« أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة وأول ما يقضى به بين الناس فى الدماء » .

وأحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة
صلاته فإن كان أنما كتبت له تامة وإن لم يكن أنما قال للملائكة انظروا هل تجدون لعبدى من
تطوع فيكملون بها فريضته ، ثم الزكاة ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك » (١) .
والطبرانى « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة بنظر فى صلاته فإن صلحت فقد أفلح وإن فسدت
فقد خاب وخسر » .

وأحمد وأبو داود والنسائى والحاكم : « أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم
الصلاة فيقول ربنا عز وجل للملائكة وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أنما أم نقصها ، فإن كانت
تامة كتبت تامة وإن كانت انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوع فإن كان له تطوع أغروا
لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم يأخذ الأعمال على ذلكم » .

والطيالسى والطبرانى . والضياء فى المختارة : « أتانى جبريل من عند الله تبارك وتعالى
فقال يا محمد إن الله عز وجل يقول إني افترضت على أمتك خمس صلوات فمن أوفى بهن على

وضوئهن ومواقبتهن وركوعهن وسجودهن كأن له بهن عهد أن أدخله الجنة ، ومن لفبنى قد
انتقص من ذلك شيئا فليس له عندى عهد إن شئت عذبتة وإن شئت رحمته » .

والبيهقى « الصلاة ميزان فمن أوفى أسنوفى » (١) . والديلمى « الصلاة تسود وجه الشيطان
والصدقة تكسر ظهره » ، والتحابب فى الله والتودد فى العلم يقطع دابره فإذا فعلتم ذلك تباعد
منكم كمطلع الشمس من مغربها » (٢) . والترمذى وابن حبان والحاكم « اتقوا الله وصلوا
خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذوى أمركم تدخلوا جنة ربكم » .

وأحمد والشيخان وأبو داود والنسائى : « أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم بر
الوالدين ، ثم الجهاد فى سبيل الله » . والبيهقى عن عمر - رضى الله عنه - قال « جاء رجل إلى
النبي ﷺ فقال يا رسول الله أى الأعمال أحب إلى الله فى الإسلام فقال الصلاة لوقتها ومن ترك
الصلاة فلا دين له والصلاة عماد الدين » . ولذلك لما طعن عمر رضى الله عنه قيل له الصلاة يا
أمير المؤمنين قال نعمت أما أنه لاحظ لأحد فى الإسلام أضاع الصلاة ، وصلى - رضى الله عنه -
وجرحه يجرى دمه » .

وروى الذهبى أنه ﷺ قال : « إذا صلى العبد الصلاة فى أول الوقت صعدت إلى السماء
ولها نور حتى تنتهى إلى العرش فتستغفر لصاحبها إلى يوم القيامة وتقول له حفظك الله كما
حفظتنى ، وإذا صلى العبد الصلاة فى غير وقتها صعدت إلى السماء وعليها ظلمة فإذا انتهت إلى
السماء تلفت كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها » .

وأخرج أبو داود أنه ﷺ قال « ثلاث لا يقبل الله منهم صلاتهم وذكر منهم من أتى الصلاة
دبارا أى بعد أن تغوته » .

قال بعضهم وورد فى الحديث « أن من حافظ على الصلاة أكرمه الله بخمس خصال ، يرفع
عنه ضيق العيش ، وعذاب القبر ، ويعطيه الله كتابه يمينه ، ويمر على الصراط كالبرق ،
ويدخل الجنة بغير حساب . ومن تهان عن الصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبة خمس فى
الدنيا ، وثلاث عند الموت ، وثلاث فى قبره ، وثلاث عند خروجه من القبر » .

فأما اللواتى فى الدنيا فالأولى تنزع البركة من عمره ، والثانية تمحو سيما الصالحين من
وجهه ، والثالثة كل عمل يعمل لا يأجره الله عليه ، والرابعة لا يرفع له دعاء إلى السماء ،
والخامسة ليس له حظ فى دعاء الصالحين » .

(١) (ضعيف) كنز العمال (١٨٨٩٢) ، وضعيف الجامع (٣٥٧٣) .
(٢) (ضعيف جداً) كنز العمال (١٨٨٩٣) ، وضعيف الجامع (٣٥٦٠) .

وأما التي تصيبه عند الموت فإنه يموت ذليلاً ، والثانية يموت جائعاً ، والثالثة يموت عطشاناً ولو سقى بحار الدنيا ما روى من عطشه .

وأما التي تصيبه في قبره فالأولى يضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه ، والثانية يوقد عليه القبر نارا فيتقلب على الجمر ليلاً ونهاراً ، والثالثة يسقط عليه في قبره نيران اسمه الشجاع الأقرع عيناه من نار وأظفاره من حديد طول كل ظفر مسيرة يوم ، يكلم الميت فيقول أنا الشجاع الأقرع وصوته مثل الرعد القاصف يقول أمرني ربي أن أضربك على تضبيب صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، وأضربك على تضبيب صلاة الظهر إلى العصر ، وأضربك على تضبيب العصر إلى المغرب وأضربك على تضبيب صلاة المغرب إلى العشاء ، وأضربك على تضبيب صلاة العشاء إلى الفجر ، فكلما ضربه ضربة يغوص في الأرض سبعين ذراعاً ، فلا يزال في القبر معذباً إلى يوم القيامة .

وأما التي تصيبه عند خروجه من القبر في موقف القيامة فشدّة الحساب ، وسخط الرب . ودخول النار .

وفي رواية فإنه يأتي يوم القيامة وعلى وجهه ثلاث أسطر مكتوبات ، السطر الأول يا مضيق حق الله ، السطر الثاني يا مخصوصاً بغضب الله ، السطر الثالث كما ضيعت في الدنيا حق الله فأيس اليوم أنت من رحمة الله .

وما ذكر في هذا الحديث من تفصيل العدد لا يطابق جملة الخمس عشرة لأن الفصل أربع عشرة فقط . فلعل الراوى نسي الخامس عشر .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل فيوقف بين يدي الله عز وجل فيأمر الله به إلى النار ، فيقول يارب بماذا ، فيقول تعالى بتأخيرك الصلاة عن أوقاتها وحلفك بي كاذباً .

قال بعضهم أيضاً وعن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه : « قولوا اللهم لا تدع فينا شقياً ولا محروماً ، ثم قال ﷺ : أندرون من الشقى المحروم قالوا وسن هو يا رسول الله قال تارك الصلاة » .

قال أيضاً بروى أنه أول ما تسود يوم القيامة وجوه تارك الصلاة وأن في جهنم وأدايا يقال له ألم في حياتي كل حبة بشخن رقة البعير طولها مسيرة شهر تلمع تارك الصلاة فيغلى سمها في جسمه سبعين سنة ثم يتهرى لحمه .

قال وروى أيضاً أن امرأة من بنى إسرائيل جاءت إلى موسى - صلى الله عليه وسلم - نبيها وعليه

وعلى سائر النبيين - ، فقالت يا نبي الله أذنبت ذنباً عظيماً وقد ثبت إلى الله تعالى فادع الله أن يغفر لي ذنبي وينوب علي ، فقال لها موسى وما ذنبك ، قالت يا نبي الله زنيته وولدت ولداً فقتلته ، فقال لها موسى - صلى الله عليه وسلم - نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - أخرجني يا فاجرة لا تنزل نار من السماء فتحرقنا بشؤمك فخرجت من عنده منكسرة القلب فتزل جبريل عليه السلام - وقال يا موسى الرب تعالى يقول لك لم رددت الثانية يا موسى أما وجدت شراً منها قال موسى يا جبريل ومن شر منها قال من ترك الصلاة عامداً متعمداً .

وقال أيضاً روى عن بعض السلف أنه دفن أختاه ماتت فسقط منه كيس فيه مال في قبرها ولم يشعر به حتى انصرف عن قبرها ثم تذكره فرجع إلى قبرها فنبشه بعدما انصرف الناس فوجد القبر يشتعل عليها نارا فرد التراب عليها ورجع إلى أمه باكياً حزينا فقال يا أمه أخبرتيني عن أختي وما كانت تعمل قالت وما سؤالك عنها قال يا أمه رأيت قبرها يشتعل عليها نارا قال فبكيت وقالت يا ولدي كانت أختك تبهاون بالصلاة وتؤخرها عن وقتها فهذا حال من يؤخر الصلاة عن وقتها فكيف حال من لا يصلي فسال الله تعالى أن يعتنا على المحافظة عليها بكما لايتها إنه جواد كريم رؤوف رحيم .

الباب الخمسون

في بيان عرصات جهنم وعذابها

قال الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ فِيْهَا مِنْهُمْ جُزْءٌ مُّقْسُومٌ ﴾ (١) والمراد بالجزة هنا الحزب والطائفة والفريق ، وقيل المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق . قال ابن جريج النار سبع دركات وهي جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها . ثم كذلك .

قيل والمعنى أن الله تعالى يجزئ أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار ، وقيل جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة .

رضى الله عنه - قال أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملا الأول ثم الثاني ولا كلها .

بخارى في تاريخه والترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : « لجهنم منها لمن سل السيف على أمي . وروى الطبراني في الأوسط أن جبريل جاء إلى من غير حينه الذي كان يأتيه فيه ، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال يا جبريل مالي ما فقال ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار ، فقال رسول الله ﷺ يا أبا النار أو أنعت جهنم ، فقال جبريل إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ثم أمر فأبيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام فهي سوداء مظلمة لا يهدأ شررها ولا يطفأ لهيبها والذي بعثك بالحق نبيا لو أن قدر من جهنم مائة من جهنم مائة من في الأرض كلهم جميعا ، والذي بعثك بالحق لو أن خازنا من جهنم مائة من في الدنيا مائة من في الأرض كلهم جميعا ، من قبح وجهه وتن ريحه ، والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من خلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على الدنيا لكانت كالحلقة التي تنهى عن الأرض السفلى .

قال رسول الله ﷺ حسبي يا جبريل لا يتصدع قلبي فأموت ، قال فنظر رسول الله ﷺ إلى يمينه وهو يمشي فقال تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به ، فقال ومالي لا أبكي وألحق بالحق ، لعلني أكون في علم الله على غير الحالة التي أنا عليها وما أدرى لعلني ابتلى بما أريد من الملائكة وما أدرى لعلني ابتلى بما أريد من هاروت وماروت ، قال ثم قال يا جبريل ، فمأزلا يبكيان حتى نودي أن يا جبريل ويا محمد إن الله أمر أن تعصياه فارفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويأكلون فغضبهم ، فلما تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبعثتكم كثيرا ولما أمرتم أن تأكلوا واشربوا تخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل . فنودي يا محمد لا تمسك مبشرا ولم أبعثك معسرا . فقال ﷺ سدودا وقاربوا .

رواه أحمد أنه ﷺ قال لجبريل : « مالي لا أرى ميكايل ضاحكا قط قال ما ضحك من النار » (١) . وروى مسلم « أن رسول الله ﷺ قال : يؤتى بجهنم يوم القيامة مائة مع كل زمان سبعون ألف ملك يجرونها » .

الباب الواحد والخمسون

ففي بيان عذاب جهنم أيضا

روى أبو داود والنسائي والترمذي وصححه وما معناه : لما خلق الله تعالى الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فجاء ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع إليه فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالكاهن فقال : إني خشيت ألا يدخلها أحد فقال ارجع إلى النار فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضا فرجع إليه . فقال وعزتك لا يسمع أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال ارجع إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها .

والبيهقي بسند لا بأس به عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا قَرْمِي بَشَرٌ مِّثْلُ الْقَصْرِ ﴾ (١) أما أني لست أقول كالشجر ولكن كالخوص والملائكة ، وأحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه : « ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » (٢) والترمذي « ويل واد بين جبلين يهوى فيه الكافر سبعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » . وابن ماجه واللفظ له والترمذي تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد في جهنم تعوذ منه جهنم كل يوم أربعين مرة ، قيل يا رسول الله من يدخله قال أعد للقراء المرائين بأعمالهم وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء ، الجورة . والطبراني أن في جهنم لواديا تستعيد جهنم من ذلك الوادي كل يوم أربعين مرة أعد للمرائين من أمة محمد ﷺ . وابن أبي الدنيا : إن في النار سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف حجر في كل حجر حية تأكل وجوه أهل النار . والبخاري في تاريخه بسند فيه نكارة أن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب ، في كل شعب سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت في كل بيت سبعون ألف بئر في كل بئر سبعون ألف ثعبان في شدة كل ثعبان سبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله . والترمذي بسند فيه انقطاع أن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتتهوى فيها سبعين خريفا وما تقضي إلى قرارها .

وكان عمر - رضي الله عنه - يقول أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد وأن مقامها حديد . واليزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والبيهقي لو أن حجرا قذف به في جهنم لتهوى بها سبعين خريفا قبل أن يبلغ قعرها . ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال

(١) آية (٣٢) سورة المرسلات .
(٢) (ضعيف) أحمد ٧٥ / ٣ ، والترمذي (٣١٦٤) ، وضعيف الجامع (٦١٤٨) .

فَسَمِعْنَا وَجِبَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَدْرُونَ مَا هَذَا فَلَمَّا لَمَسَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ هَذَا
 جَهَنَّمُ مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَلَمَّا لَمَسَ حِينَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا . وَالطَّبْرَانِي عَنْ أَبِي
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَوْتًا هَالَهُ فَأَنَاءَ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
 ﷺ : مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا جَبْرِيلُ ، فَقَالَ هَذِهِ صَخْرَةٌ هَوَتْ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مِنْ
 حِينَ بَلَغَتْ قَعْرَهَا فَأَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْمَعَكَ صَوْتُهَا . فَمَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ
 فِيهِ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُ لَوْ أَنَّ رِصَاصَةً مِثْلَ هَذِهِ
 مِجْمَعَةٌ أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ لَبَغَتْ الْأَرْضُ
 مِنْهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السَّلْسَلَةِ لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ
 أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ لَوْ أَنَّ مَقْعَمًا مِنْ حَدِيدٍ جَهَنَّمَ وَضَعَ فِي الْأَرْضِ
 فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ لَوْ ضَرَبَ الْجَبَلُ بِمَقْمَعٍ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ
 جَهَنَّمَ فَصَلَّرَ رَمَادًا ، (الْمَفْتُوحُ الْمَطْرَاقُ وَفِي السُّوْتِ) وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا أَنَّ الْحَجَرَ الْوَاحِدَ مِنْهَا
 لَوْ سَقَطَ عَلَى جَبَلٍ الدُّنْيَا لَذَبَتْ مِنْهُ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ حَجَرًا وَشِطَّانًا . وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ
 أَنَّ الْأَرْضَ لَتَسْبُحُ لِلَّهِ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ ، وَالتَّى تَلْبِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ فَالْعَالِيَا مِنْهَا عَلَى ظَهْرِ حَوْتَ
 قَدِ انْقَلَبَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْحَوْتَ عَلَى صَخْرَةٍ وَالصَّخْرَةُ بِيَدِ مَلَكٍ وَالتَّابِتَةُ سَجْنُ الرِّيحِ فَلَمَّا أَرَادَ
 اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَهْلِكَ عَادَ أَمْرَ خَازِنِ الرِّيحِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا تَهْلِكُهُمْ قَالَ يَارَبِّ أَرْسِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ
 الرِّيحِ أَوْ تَخْرِقْ الشُّوْرَ ، قَالَ لَهُ الْجَبَّارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذْ تَكْفَأُ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا وَلَكِنْ
 أَرْسَلْنَا بِهِمْ بِقُدْرَتِهِ خَاتَمَ فَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ﴿ مَا تَدْرُونَ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
 كَالْزُرِّ ﴾ ١١١ وَالتَّابِتَةُ فِيهَا حِجَارَةٌ جَهَنَّمَ ، وَالرَّابِعَةُ فِيهَا كَبِيرَتُ جَهَنَّمَ ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّارُ
 كَبِيرَتُهَا : نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ فِيهَا لِأَوْدِيَةٍ مِنْ كَبِيرَتِ لَوْ أُرْسِلَ فِيهَا الْجِبَالُ الرُّوَاسِي
 لِمَا عَسَى أَنْ تَهْلِكَ فِيهَا حَيَاتُ جَهَنَّمَ أَنْ أَفْوَاهُهَا كَالْأَوْدِيَةِ تَلْسَعُ الْكَافِرَ اللَّسْعَةَ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ لَحْمٌ
 عَلَيْهِ ، وَالتَّاسِعَةُ فِيهَا عِقَارِبُ جَهَنَّمَ أَنْ أَدْنَى عَقْرَبٍ مِنْهَا كَالْبَغَالِ الْمَوْكِفَةِ تَضْرِبُ الْكَافِرَ
 ضَرْبًا شَدِيدًا حَرَّ جَهَنَّمَ ، وَالسَّابِعَةُ فِيهَا إِبْلِيسُ مُصْعَدٌ بِالْحَدِيدِ يَدُ أَمَامِهِ وَيَدُ خَلْفِهِ فَإِذَا أَرَادَ
 أَنْ يَنْزِلَ مِنْ عِبَادَةِ أَطْلَقَهُ .

١٠ وَالْغَيْرُ نِي وَابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ أَنَّ فِي النَّارِ حَيَاتٍ كَأَمْثَالِ
 ١١ نَلْسَةِ أَحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَرَّهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا ، وَأَنَّ فِي النَّارِ عِقَارِبَ كَأَمْثَالِ
 ١٢ الرِّبَاةِ نَسِيءِ أَحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَرَّهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حَبَانَ فِي
 ١٣ الْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ عَنْهُ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ قَالَ كَعَكْرُ الزَّيْتِ فَإِذَا
 ١٤ هَبَتْ مِنْهُ فَرُودَةٌ وَجْهَهُ فِيهِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنُ غَرِيبٌ صَحِيحٌ أَنَّ الْحَمِيمَ لِيَصْبَ عَلَى

رَأْسِ الْكَافِرِ فَيَبْغِذُ الْحَمِيمَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ
 الصَّهْرُ ثُمَّ يَمَادُ كَمَا كَانَ الْحَمِيمُ الْمَاءُ الْحَارَ الَّذِي يَحْرَقُ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ الْحَمِيمُ يَغْلَى مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ
 تَعَالَى الْأَرْضَ إِلَى يَوْمِ يَسْفُونَهُ وَيَصْبُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، وَقَبْلَ هُوَ مَا يَجْتَمِعُ مِنْ دُمُوعِ أَعْيُنِهِمْ فِي
 حِيَاضِ النَّارِ فَيَسْفُونَهُ ، وَقَبْلَ غَيْرِ ذَلِكَ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَسَقُوا مَاءَ حَمِيمًا
 فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١) وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ غَرِيبٌ وَالحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ عَنْهُ
 ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْفُونَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ (٢) يَنْجُرُّهُ وَلَا يَكَادُ يَسْفِيهِ (٣) قَالَ يَقْرُبُ إِلَى فِيهِ
 فَيَكْرِهُهُ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ وَوَفِعَتْ فَرُودَةٌ رَأْسَهُ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ .
 وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَسَقُوا مَاءَ حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَفْهِشُوا يَفْأَتُوا
 بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الرُّجُودَ بِشَرِّ الشَّرَابِ ﴾ وَأَحْمَدُ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ لَوْ أَنَّ دُلُورًا مِنْ غِيَاثِ يَهْرَاقَ
 فِي الدُّنْيَا لَأَتَتْ أَهْلَ الدُّنْيَا وَالْغَسَاقَ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ ﴾
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴾ وَاخْتَلَفَ فِيهِ فَعَنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - هُوَ مَا يَسِيلُ
 مِنْ جِلْدِ الْكَافِرِ وَنَحْوِهِ وَعِنْدَ آخَرِينَ هُوَ صَدِيدُهُمْ ، وَقَالَ كَعْبُ هُوَ عَيْنٌ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ إِلَيْهَا حَمَةٌ
 كُلِّ ذَاتِ حَمَةٍ مِنْ حَيَّةٍ أَوْ عَقْرَبٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَيَسْتَنْفَعُ فَيُؤْتَى بِالْأَدْمَى فَيَغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً وَاحِدَةً
 فَيَخْرُجُ وَفَدَّ سَقَطَ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ عَنِ الْعِظَامِ وَيَتَعَلَّقُ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ فِي عَقِيهِ وَكَعْبُهُ فَيَجْرُ لَحْمُهُ كَمَا
 يَجْرُ الْمَرْءُ نَوْبَهُ . وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ أَنَّهُ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا
 تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فَقَالَ ﷺ لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّرْقِومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى
 أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَاشِيَهُمْ فَكَبِفَ بَيْنَ يَكُونُ طَعَامُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ فَكَيْفَ بَيْنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ ، وَصَحَّ
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ (٣) شَوْكٌ يَأْخُذُ بِالْخَلْقِ
 لَا يَدْخُلُ وَلَا تَخْرُجُ ، وَالشَّبِيخَانِ مَا بَيْنَ مَنَكِبَيْ الْكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ ، وَالْمَنَكَبُ
 مُجْمَعُ رَأْسِ الْكَتِفِ وَالْعُضْدُ ، وَأَحْمَدُ ضَرَسَ الْكَافِرَ مِثْلَ أَحَدٍ ، وَفَخَذَهُ مِثْلَ الْبَيَاءِ أَيْ وَهُوَ جَبَلٌ
 وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ فَذِيدٍ وَمَكَّةُ أَيْ نَحْوُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَكَشَافَةُ جِلْدِهِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ
 الْجَبَّارِ أَيْ مَلِكٍ بِالْيَمَنِ لَهُ ذِرَاعٌ مَعْرُوفُ الْمَقْدَارِ . كَذَا قَالَ ابْنُ حَبَانَ وَغَيْرُهُ . وَقِيلَ لِمَلِكٍ بِالْعَجَمِ .
 وَرَوَى مُسْلِمٌ ضَرَسَ أَنْ قَالَ تَابَ الْكَافِرُ مِثْلَ أَحَدٍ وَغُلِظَ جِلْدُهُ مَسِيرَةُ ثَلَاثَ . وَالتِّرْمِذِيُّ وَلَقِظَهُ
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ضَرَسَ الْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ أَحَدٍ وَفَخَذَهُ مِثْلَ الْبَيضاء وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ
 مَسِيرَةُ ثَلَاثَ مِنْ الرِّبْدَةِ أَيْ كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالرِّبْدَةِ » (٤) . وَأَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ : ضَرَسَ الْكَافِرُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ مِثْلَ أَحَدٍ وَعَرَضَ جِلْدُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَعُضْدُهُ مِثْلَ الْبَيضاء وَفَخَذَهُ مِثْلَ وَرْقَانٍ وَمَقْعَدُهُ مِنَ
 النَّارِ مَا بَيْنَ الرِّبْدَةِ . وَفِي رِوَايَةٍ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَ مِثْلَ الرِّبْدَةِ . وَأَحْمَدُ

(٢) آيَةُ (١٦ - ١٧) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ .
 (٤) (حَسَنُ) التِّرْمِذِيُّ (٢٥٧٨) .

(١) آيَةُ (١٥) سُورَةُ مُحَمَّدٍ .
 (٣) آيَةُ (١٣) سُورَةُ الزُّمَرِ .

عيسى وإسماعيل قريش من الحسن كما قاله الحافظ المنذرى . والترمذى عن الفضيل بن يزيد أن حماد بن عيسى الفرسنج والفرسخين يتوطأه الناس ، والفضيل بن يزيد عن أبي العجلان أن حماد بن عيسى الفرسنج يوم القيامة يتوطأه الناس . أخرجه البيهقى وغيره وهو الصواب . قال **عنه** : ! معظم أهل النار فى النار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة . وإن غط جلد سبعة ذراعا . وأن ضره مثل أحد ^(١) . وأحمد بسند صحيح وصححه . ومن بعده قال ابن عباس أتدرى ما سعة جهنم قلت لا قال أجل والله ما تدرى إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا تجرى فيه أودية القيق والدم قلت أنهار قال لا بل أودية .

الباب الثانى والخمسون

فى بيان فضل الخوف من الذنب

اعلم أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه وسطوته وحذر عقابه وخضوعه وحشاه **﴿ فليخذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾** (٢) .

جاء الله **ﷻ** دخل على شاب وهو فى الموت فقال كيف تمهلك قال أرجو الله يا رسول الله ولأخاف تنويس . فقال رسول الله **ﷻ** لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأتمه بما يخاف . وعن وهب بن الورد قال كان عيسى - صلى الله على نبينا وعلى سائر الأنبياء والرسولين - يقول حب الفردوس وخشية جهنم يورثان الصبر على المصيبة ويبعدان العبد عن لذات الدنيا وشهواتها ومعاصيها . وعن الحسن قال والله لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أنفق أحدهم عند الحصر ذهباً يخشى أن لا ينجو لعظم الذنب فى نفسه . وقال رسول الله **ﷻ** هل نسمعون من أسمع أطلت السماء وحق لها أن تئط والذي نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وميت - حدث الله تعالى أو قائم أو راكم ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . وخرجتم أو صعدتم إلى الصعدات أى الجبال تجارون إلى الله تعالى خوفاً من عظيم سطوته وشدة انتقامه . وفى رواية لا تدرن تنجون أو لا تنجون . وقال بكر بن عبد الله المزنى من أتى الخطيئة . مع يمست دخل النار وهو يكي . وفى الحديث لو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يدرى من الصالحين قام رسول الله **ﷻ** حين أنزل عليه **﴿ وأنذرتك الأقربين ﴾** (٣) . مع - مع فريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس عم رسول الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد

(٢) آية (٦٣) سورة التور .

سورة الشعراء .

سليبي من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا . وعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت يا رسول الله الذى يؤتون ما أتوا وتلوث بهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يا رسول الله هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله . قال لا يابنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه . رواه أحمد . وقيل للحسن البصرى يا أبا سعيد كيف نضنع بمجالسة قوم يؤسونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبنا تطير ، فقال له إنك والله تصحب قوما يخوفونك حتى تدرك أمنا خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف . ولما طعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقربت وفاته قال لابنه ويلك ضع خذى على الأرض لا أم لك ، وويلي وأى ويلي إن لم يرحمنى . وقال له ابن عباس ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح الله لك الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل بك وفعل ، قال وددت أن أنجو لا على ولا لى . وفى رواية لا أجرا ولا وزرا . وكان زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رعدة فقليل له فى ذلك ، فقال ويحكم أتدرون إلى من أقوم ولما أريد أن أناجى .

وقال أحمد بن حنبل الخوف يمنى من أكل الطعام والشراب فما أشتية . وفى الصحيحين أنه **ﷺ** ذكر من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلاً ذكر الله أى وعيده وعقابه خاليه ففاضت عيناه أى خوفاً مما جناه واقترفه من المخالفات والذنوب . وفى حديث ابن عباس عن النبى **ﷺ** أنه قال عينا لا تمسها النار عين بكت فى جوف الليل من خشية الله وعين بأنت تحرس فى سبيل الله تعالى وفى حديث أبى هريرة عن النبى **ﷺ** أنه قال كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى . وأخرج الترمذى وقال حسن صحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - ، وقال : قال رسول الله **ﷺ** لا يلج أى لا يدخل النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم . وقال عبد الله بن العاص - رضى الله عنهما - لأن أدمع دمة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار . وقال عون بن عبد الله بلغنى أنه لا تصيب دموع الإنسان من خشية الله مكاناً من جسده إلا حرم الله ذلك المكان على النار وكان لصدر رسول الله **ﷺ** أزيز كأزيز المرجل من البكاء أى فوران وغليان كغليان القدر على النار . وقال الكندى البكاء من خشية الله تطفى الدمة منه أمثال البخار من النار . وكان ابن السماك يعاتب نفسه ويقول لها تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين ومع ذلك الجنة تظليبن أن تدخليها هيهات هيهات للجنة قوم آخرون ولهم أعمال غير ما نحن عاملون .

وعن سفيان الثورى قال دخلت على جعفر الصادق فقلت له يا ابن رسول الله أوصنى ، قال

يا سفيهان لا مروءة لكذب ولا راحة لحسود ، ولا إخاء لملوك ، ولا سودد لسي الخلق ، يا ابن رسول الله زدني ، قال يا سفيان كف عن محارم الله تكن عابدا وأرض بما قسم الله لك تكن مسلما ، واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمنا ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره أى حديث المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وشاور في أمرك الذين يخشون الله ، قلت يا ابن رسول الله زدني ، قال يا سفيان من أراد عز بلاء عشرة وهمة بلا سلطان فليخرج من معصية الله إلى طاعة الله . قال يا ابن رسول الله زدني ، قال أدبني أبى ثلاث قال لى أبى بنى إن من يصحب صاحب السوء لا يسلم ، ومن يدخل مدخل السوء ينهم ، ومن لا يملك لسانه يتدم . وقال ابن المبروك سألت وهيب بن الورد أيجد طعم العبادة من معصية الله تعالى ، قال لا ولا من يهم بمعصية الله تعالى . وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي الخوف هو النار المحرقة للشهوات فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة ويقدر ما يكف عن المعصية ويحث على الطاعة وكيف لا يكون الخوف إذا هو فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى كما علم من الآيات والأخبار كقوله تعالى : ﴿ هَذِي وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِأَرْبِهِمْ يَرْجُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَخَائِفُونَ إِنْ كُنْهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ سَيَذَكَّرُنَّ مِنْ خَشْيَتِي ﴾ وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم . وأخرج ابن أبي الدنيا أنه عليه السلام قال : إذا أفتشمر جسد العبد من مخافة الله عز وجل نحاتت عنه خطاياهم كما تنحات عن الشجرة اليابسة ووقها .

وقال عليه السلام قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقال أبو سليمان الداؤدي كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب وقد قال الله تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

الباب الثالث والخمسون

في بيان فضل التوبة

جاء في فضل التوبة آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا (٢٨) إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فلأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٢٩) ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا (٣٠) .

والأحاديث في ذلك كثيرة أخرج مسلم (١) وأن الله ييسر يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها (٢) . والترمذي وصححه أن من قبل المغرب ليأبى مسيرة عرضه أربعون عاما أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه . وصحح أيضا أن الله تعالى جعل بالمغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله . وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَهْلِ الْبَيْتِ لِيُفْتِنَ فَاسْتَأْذِنُوا ﴾ (٣) الآية . . قيل وليس في هذه الرواية ولا الأولى تصريح برفعه كما صرح به البيهقي . . انتهى . ويجاب بأن مثل هذا لا يقال من قبل الراي فله حكم المرفوع ، والطبراني بسند جيد للجنة ثمانية أبواب سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه ، وابن ماجه بسند جيد لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تنتم لتاب الله عليكم والحاكم وصححه : « من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » (٤) والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، والشيخان أن عبدا أصاب ذنبا فقال بارب إني أذنبت ذنبا فاغفره لي فقال له ربه علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا آخر فقال بارب إني أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي فقال له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله تعالى ثم أصاب ذنبا آخر ووجا قال أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي فقال بارب إني أتيت ذنبا آخر فاغفره لي فقال له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ، فقال له ربه غفرت لعبدي فليعمل ما شاء . قال المنذرى قوله فليعمل ما شاء معناه والله أعلم أنه ما دام كلما أذنب ذنبا استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله ثم أصاب ذنبا آخر فليعمل إذا كان هذا ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة للذنبة فلا يضره لا أن المعنى أنه أذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة للكذابين .

وروى جماعة وصححوه إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها وإن زاد زادت حتى يخلق بها قلبه فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والترمذي وحسنه أن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ أن تبلغ روحه حلقومه . والطبراني بسند حسن لكن فيه انقطاع . والبيهقي بسند فيه مجهول عن معاذ قال أخذ بيدي رسول الله ﷺ فمشى ميلا ثم قال يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحمة اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين الكلام

(١) صحيح مسلم (٢٧٥٩) .

(٢) آية (١٥٨) سورة الأنعام .

(٣) صحيح البخاري (٢٤٠) .

وبذل السلام ولزوم الإمام والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وفصر الأمل وحسن العمل ، وأنهك أن تشتم مسلماً أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقاً أو تعصى إماماً عادلاً أو أن تفسد في الأرض يا معاذ ذكر الله عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلاية بالعلاية . والأصفهاني إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض حتى يلقي الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بلذنب .

والأصفهاني أيضاً النادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ينتظر المقت واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتمها والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة ولا يغترون أحدكم يعلم الله عز وجل فإن النار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ والطبراني بسند صحيح لكن فيه انقطاع : الثائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ورواه البيهقي من طريق آخر وزاد المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالستهزأ بربه . وابن حبان في صحيحه وإلحاقه وصححه : الندم توبة أي أنه معظم أركانها كخير الحج عرفة .

ولابد في الندم أن يكون من حيث المعصية وتبجحها وخوف عقابها بخلافه لنحو هتك أو ضياع مال على المعصية أو نحو ذلك . وإلحاقه وصححه لكن فيه ساقط . علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قيل أن يستغفره منه . ومسلم وغيره والذي نفى بيده لو لم تذنبا وتغفروا للعب الله بكم ولجاء بقوم غيركم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم . ومسلم ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغبر من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ، وليس أحد أحب إليه العلو من الله ، ومن أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل . ومسلم أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا . فقالت يا رسول الله أصيت حداً فأقمه على . فدعا نبي الله ﷺ وليها ، فقال أحسن إليها فإذا وضعت فأنتى بها ففعل بها نبي رسول الله ﷺ وقد زنت ، قال ﷺ لقد تابيت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهديتهم . وجدت أفضل مما جادت بنفسها لله عز وجل . والترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه . ومسلم وصححه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم يسمع إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ولكن سمعته أكثر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يعلما . فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال ما يبكيك أكرهتك قالت

لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملتني عليه إلا الحاجة ، فقال تفعلين أنت هذا وما فعلتني قط أذهبتني فنهى لك وقال لا والله لا أعصى بعدها أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوباً بأعلى بابه أن الله قد غفر للكفل .

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال كانت قريتان إحداهما سالحة والأخرى طالحة فخرج رجل من القرية الطالحة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله ، فاختصم فيه الملك والشیطان ، فقال الشيطان والله ما عصاني قط ، وقال الملك إنه قد خرج يريد التوبة . تقضى الله بينهما ينظر إلى أيهما أقرب فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشير فغفر له . قال معمر وسمعت من يقول قرب الله إليه القرية الصالحة .

والشيخان كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه ، فقال له إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمثل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب أنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما هو أدنى كان له فماسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضه ملائكة الرحمة .

وفي رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشير فجعل من أهلها . وفي رواية فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقرى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشير فقفر له . والطبراني بسند جيد أن رجلاً أسرف على نفسه فلقى رجلاً فقال أن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلهم ظلماً فهل تجدى لي من توبة . قال لا فقتله وأتى آخر فقال أن الآخر قتل مائة نفس كلهم ظلماً فهل تجدى لي من توبة . فقال إن حدثت أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك ههنا قوم يتعبدون فأتهم تعبد الله معهم ، فتوجه إليهم فمات على ذلك فاختصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فبعث الله إليهم ملكاً فقال قيسوا ما بين المكانين فأبهم كان أقرب فهو منهم فوجدوه أقرب إلى قرية التوابين بأثمة فغفر له . وفي رواية ثم أتى رجلاً آخر فقال إني قتل مائة نفس فهل تجدى لي من توبة فقال أسرفت ما أدري ولكن هنا قريتان قرية يقال لها نصرة والأخرى يقال لها كفر ، فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم ، وأما أهل كفر فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم ، فانطلق إلى نصرة فإن ثبت فيها وعملت

عمل أهلها فلا شك في نوبتك ، فانطلق يريد بها حتى إذا كان بين القرينين أدركه الموت ، فسألت الملائكة ربها عنه فقال انظروا إلى أي القرينين كان أقرب فاكشبهوا من أهلها فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أملة تكتب من أهلها .

الباب الرابع والخمسون

في بيان النهي عن الظلم

قال الله تعالى : ﴿وَسَمِعْنَا الَّذِينَ يَنْقَلِبُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١) وقال ﷺ : الظلم ظلمات يوم القيامة . وقال ﷺ : « من ظلم شبرا من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة . وفي بعض الكتب يقول الله تعالى : اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيري » (٢) .

ما أحسن قول بعضهم :

لا نظلمن إذا ما كانت مقتدرا • • • فالظلم يرجع عقباء إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه • • • يدعوا عليك وعين الله لم تنم
وقول الآخر :

إذا ما الظلوم استوطأ الأرض مركبا • • • ولـجـج غلوا قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الزمان فإنه • • • سيرى له ما لم يكن في حسابه

وقال بعض السلف لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء . وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - أن الحباري لنموت هو لا في وكرها من ظلم ظالم . وقيل مكتوب في التوراة بنادى مناد من وراء الحشر معنى الصراط ، يا معشر الجبابرة الطفافة ويا معشر المترفين الأشقياء إن الله سيحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم . وعن جابر - رضي الله عنه - قال لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال ألا تخبروني بأعجب ما رأيتم في أرض الحبشة . فقال فتية وكان منهم على يا رسول الله بينما نحن يوما جلوس إذا مرت بنا عجوز من عجائزهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كفيها ثم دفعها فخرت المرأة على ركبتيها وانكسرت قلتها ، فلما قامت التفتت إليه ثم قالت سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي فجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون سوف تعلم ما

(١) آية (٢٢٧) سورة الشعراء .
(٢) (ضعيف) الدر المنثور ١ / ٣٥٣ ، وضعيف الجامع (٨٦١) .

أمرى وأمرك عنده غدا . قال فقال رسول الله ﷺ ما معناه كيف يرحم الله قوما ضاع الحق بينهم أو كما قال ، وقال ﷺ خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه عليهم في الدنيا والآخرة بهم في الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ولا ينصفهم من نفسه ولا يدفع الظلم عنهم ، وزعيم قوم يطعمونه ولا سوى بين القوى والضعيف ويتكلم بالهوى ، ورجل لا يأمر أهله رولده بطاعة الله ولا يعلمهم أمر دينهم ، ورجل استأجر أجيرا فاستعمله ولم يوفه أجره ، ورجل ظلم امرأة في صداقها . وعن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - أنه قال أن الله تعالى لما خلق الخلق واستنوا على أقدامهم رفعوا رهوسهم إلى الله وقالوا يا وب مع من أنت ، قال مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه .

وعن وهب بن منبه - رضي الله عنه - : بنى جبار من الجبابرة قصرا وشيده فجاءت عجوز فقيرة فبت إلى جانبه شيئا فأوى إليه فركب الجبار يوما وطاف حول القصر فرأى بناءها ، فقال لمن هذا فقيل لامرأة فقيرة تأوى إليه فأمر بهدمه ، فجاءت العجوز فرأته مهدوما فقالت من هدمه فقبل لها الملك رآه فهدمه ، فرفعت العجوز رأسها إلى السماء وقالت يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت ابن كنت . قال فأمر الله عز وجل أن يقلب القصر على من فيه قلبه .

وقيل لما حبس بعض البرامكة وولده قال يا أبت بعد العز صرنا في القيد والحبس ، قال يا بني دعوة مظلوم سرت بلبل غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها . وكان يزيد بن حكيم يقول ما هبت أحدا قط هبتى رجلا ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله يقول لى حسبي الله ، الله بينى وبينك .

وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال يجي الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم فلقية المظلوم وعرف ما في ظلمه فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا من سيئاتهم مثل ما ظلموهم حتى يردوا الدرك الأسفل من النار . وعن عبد الله بن أنيس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا بهما فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الملك الديان لا ينسفي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وواحد من أهل النار أن يدخل النار وعندئذ مظلمة حتى اللطمة فما فوقها ولا يظلم ربك أحدا ! قلنا يا رسول الله كيف وإنما تأتي حفاة عراة غرلا بهما ؟ قال بالحسنات والسيئات جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا . وعنه ﷺ أنه قال : من ضرب سوطا ظلما اقتص منه يوم القيامة .

وما ذكر أن كسرى اتخذ مؤذبا لولده يعلمه ويؤديه فلما بلغ الغاية في الفضل والأدب استحضره المؤذوب يوما وضربه ضربا وجيعا من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى

أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده ، فاستحضر المعلم وقال له ما حملك على أن تضربني في يوم كذا ضرباً وجباً من غير جرم ولا سبب ، فقال له المعلم أعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية في الفضل والأدب علمت أنك تنال الملك بعد أبيك فأردت أن أذهبك طعم الضرب وألم الظلم حتى لا نظلم أحداً بعد فقال له جزاك الله خير ثم أمر له بجائزة وصرفه .

الباب الخامس والخمسون

في النهي عن ظلم اليتيم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۖ ﴾ (١) قال قتادة نزلت في رجل من غطفان ولي مال ابن أخيه وهو صغير يتيم فأكله وقوله ظلماً أي لأجل أو حال كونهم ظلماً يخرج به أكلها بحق كأكمل الولي بشروطه المفردة في كتب الفقه . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِذْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) أي بمقدار الحاجة فحسب أو بأن يأخذ قرضاً أو بقدر أجره عمله أو إن اضطر فإن أبسر قضاؤه وإلا فهو في حل . وقد نبه تعالى على تأكيد حق الأيتام ومزيد الاعتناء به بقوله قبل هذه الآية : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ فَرَّقُوا مِنْ خُلُقِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٣) إذا المراد بشهادة السياق خلافاً لمن حمل الآية على أنها في الوصية بأكثر من الثلث أو نحو ذلك الحمل لمن كان في حجرة يتيم على أنه يحسن إليه حتى في الخطاب فلا يخاطبه إلا بنحو : يا بني ، مما يخاطب به أولاده ، ويفعل معه من البر والمعروف والإحسان والقيام في ماله ما يجب أن يفعل بماله ويلزمه من بعده فإن الجزاء من جنس العمل ﴿ نَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي الجزاء كما تدبّر ندان أي كما تفعل يفعل معك بينما الإنسان آمن متصرف في مال الغير وعلى أولاد غيره وإذا بالموت قد حل به فيجزيه الله تعالى في ماله وذريته وعياله رسائر تعلقاته بنظير ما فعل مع غيره إن خيراً فخير وإن شراً فشر فليخش العاقل ربه وينصرف على الأيتام الذين في حجره بما يجب أن يتصرف ولي أولاده لو كانوا أيتاماً عليهم في ماله .

وجاء أن الله تعالى أوحى إلى داود - صلى الله عليه وسلم - يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج الشفيق واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد أي كما تفعل يفعل معك إذ لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم وامرأة أرملة - وجاء في التشديد في أموال اليتامى والظلم فيها أحاديث كثيرة موافقة لما في الآية من ذلك الوعد الشديد تحذيراً للناس عن هذه

(١) آية (١٠) سورة النساء .
(٢) آية (٩) سورة النساء .

(٣) آية (٦) سورة النساء .

الفاحشة الوحشية المهلكة ، أخرج مسلم وغيره يا أبا ذر أراك ضعيفاً وإنني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال اليتيم . والشيخان وغيرهما : اجتبوا السبع الموبقات - أي المهلكات قالوا يا رسول الله وما هن ، قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم . الحديث والبخاري : الكبائر سبع الإشراف بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم . الحديث ، والحاكم وصححه أربع سنن على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن خمر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه . وابن حبان في صحيحه أن من جملة كتابه ﷺ الذي أرسله مع عمرو بن حزم إلى أهل اليمن وأن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراف بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير حق ، والفرار في سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ورمي للمحصنة ، وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم .

وأبو يعلى يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاجع أفواههم ناراً ، فقيل من هم يا رسول الله : ألم تروا أن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ ﴾ وفي حديث المعراج عند مسلم فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفكون لحاهم ، وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها في أفواههم فتخرج من أديبارهم ، فقلت يا جبريل من هؤلاء قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ، وفي تفسير القرطبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : رايت ليلة أسرى بي قوما لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ مشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخوراً من نار تخرج من أسفلهم ، فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .

الباب السادس والخمسون

في بيان ذم الكبير

تذكر مما ورد في ذم الكبير زيادة ما تقدم لشومه وسوء عاقبته فهو أول معصية وقعت من إبليس فلعله الله وطرده من جنة عرضها السموات والأرض إلى عذاب السعير . ففي الحديث القدسي : الكبيراء رداى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى في واحد منهما قصمته ولا أبالي . وورد يحشر المتكبرون أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان ويسقون من طينة الخبال وهى عصارة أهل النار . وقال ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زان وملك جائر ، وعائل مستبكر . وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ فقال إنا لله وإنا إليه راجعون . قام رجل يأمر

بالمعروف فقتل فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالمعروف فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً وقال ابن مسعود كفى بالرجل إنماً إذا قيل له اتق الله ، قال عليك نفسك ، وقال ﷺ لرجل كل يمينك قال لا أستطيع ، فقال النبي ﷺ لا استطعت فما معك إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك إلى فيه أي اعتلت يده . وروى أن ثابت بن قيس بن شماس قال يا رسول الله إني امرؤ جيب إلى من الجمال ما نرى أنمن الكبر هو ؟ فقال ﷺ : لا ولكن الكبر ينظر الحق وغمض الناس أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه .

قال وهب بن منبه لما قال موسى - عليه السلام - لفرعون آمن ولك ملكك ، قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان بينما أنت رب تعبد إذا أنت عبد تعبد فاستكف عن عبوديته وعن اتباع موسى فأغرقه الله .

وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ عَظِيمٍ ﴾ قال قتادة عظيم القريش هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طليبا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا فقال تعالى : ﴿ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ثم أخبرهم الله عن تعجبهم حين دخلوا النار إذ لم يرو فيها الذين ازدروهم كأهل الصفة ، فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد - رضى الله عنهم - ، قال وهب - رضى الله عنه - العلم كالغيث يتزل من السماء حارا صافيا فتشربه الأشجار بفروعها فتحوله على قدر طعموها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرجال على قدر هممها وأهوانها فيزيد التكبر كبرا والمتواضع تواضعا وذلك لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا وإذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا واشفاقا وتواضعا ولذلك قال ﷺ فيما رواه العباس - رضى الله عنه - يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ، ومن أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار .

وروى أن رجلا ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أسألك بالله حدثك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك ، قال اللهم نعم فرأى رسول الله ﷺ ينور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه . قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ يعجبني من القراء كل مضحك فأما الذي تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله .

روى عن أبي ذر - رضى الله عنه - أنه قال قابلت رجلا عند النبي ﷺ فقلت له يا ابن السوداء فقال النبي ﷺ : يا أبا ذر طف الصاع لف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل^(١) . فقال أبوذر رحمه الله فاضجعت وقلت للرجل قم فطاعني خدي . وقال كرم الله وجهه من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . قال أنس لم يكن شخص أحب إلى أصحابه من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك . وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمش في غمارهم ، إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب .

الباب السابع والخمسون

في فضل التواضع والقناعة

قال رسول الله ﷺ : ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه . وقال ﷺ : طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، أنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة ، خالطوا أهل الفقه والحكمة^(٢) . وروى أن النبي ﷺ كان في نقر من أصحابه في بيته يأكلون ، فقال سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثم قال له أطمع فكان رجلا من قريش اشماذ منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة . وقال ﷺ : خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما أختار وكان صفى من الملائكة جبريل فرفعت رأسى إليه ، فقال تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً . وأرحى الله تعالى إلى موسى - عليه السلام - إنما أفبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقى رأزم خوفاً . وقال ﷺ : الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى^(٣) .

وقال المسيح - عليه السلام - : طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة ، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم بلغنى أن النبي ﷺ قال إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فلذلك من صفوة الله . وقال ﷺ أربع لا يعطيهن الله إلا من أحب ، الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا .

(١) مشكل الآثار ٤ / ٣٦٣ - ٣٦٥ .

(٢) ضعيف (البيهقي ٤ / ١٨٢ ، وضعيف الجامع (٣٦٤٢) .

(٣) ضعيف (تحف السادة ٨ / ٣٥٢ ، وضعيف الجامع (٤٢٩٩) .

ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جذرى قد قشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه ، وقال ﷺ : إنه ليعجبنى أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه . وقال ﷺ لأصحابه يوماً : ما لى لا أرى عليكم حلاوة العبادة ، قالوا ما حلاوة العبادة ، قال التواضع وقال ﷺ : « إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فيواضعوا لهم » ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار ^(١) . ومن أحسن ما قيل شعراً :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر * * * على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالمدخان يعلو بنفسه * * * على طبقات الجو وهو وضع

ومما جاء في فضيل القناعة زيادة على ما تقدم

قال ﷺ عز والمؤمن استغناؤه عن الناس ففي القناعة الحرية والعز ولذلك قيل استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى ما شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، قليل يكفيك خير من كثير يطفئك . وقال بعضهم ما رأيت غنى أفضل من القناعة ولا فقر أشد من الرغبة وأنشد :

أفادتني القناعة ثوب عز * * * وأى غنى أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال * * * وصير بعدها التقوى بضاعة
تجد ربحين تغنى عن خليل * * * وتنعم في الجنان بصبر ساعة
وقال آخر :

بتنع النفس بالكفاف وإلا * * * طلبت منك فوق ما يكفيها
إلما أنت طول عمرك ما * * * عمرت في الساعة التي أنت فيها
وقال آخر :

إذا الرزق عنك نأى فاصطبر * * * ومنه اتنع بالذى قد حصل
ولا تنسب النفس في تحصيله * * * فإن كان ثم نصيب وصل
وقال آخر :

(١) الفرائد للجموعة (٢٥٣) ، وتذكرة الموضوعات (١٩١) .

إذا أعطشتك أكف النام * * * كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى * * * وقامت ممتته في الثريا
وقال آخر :

يا طالب الرزق الهنى بقوة * * * هيئات أنت يباطل مشغوف
رعت الأسود بقوة جيف الفلا * * * ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

كان رسول الله ﷺ إذا أصابته خصاصة قال لأهله : قوموا إلى الصلاة . ويقول أمرت بهذا ويقرأ : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ^(١) الآية . .

وأنشدوا :

دع التهاوت في الدنيا وزيتها * * * ولا يفرتك الإكثار والجشع
واقنع بما قسم الرحمن وأرض به * * * إن القناعة مال ليس يقطع
وحل ويك فضول العيش أجمعها * * * فليس فيها إذا حققت متفع

ومن كلام الحكماء ليست العزة في حسن البزة فإن التعم بلبس الثياب والتجمل بحسن الزى يشغل العبد حتى لا يعبا بشيء من أمر دينه ميلاً لذنيه وقلماً يخلو صاحبه من الغيب . وأنشد بعضهم .

رضيت من الدنيا بلقمة بائس * * * وليس عبا لا أريد سواهما
لأنى رأيت الدهر ليس بدائم * * * فدعري وعمري فانيان كلاهما

الباب الثامن والخمسون

في بيان غرور الدنيا

جميع أحوال الدنيا مصروفة إلى ما يسوء ويسر فلبست مساعدة لجميع أهلها وإنما هي متلونة على ما انتضت حكمة الحكيم . قال سبحانه : ﴿ ولا يزالون مختلفين (١٧٨) إلا من رحم ربك ﴾ ^(٢) قال بعض المفسرين في الرزق يريد اختلافهم في الغنى والفقر فمن الواجب على من ساعده دنياه وأخدمها له مولاه أن يتلقى ذلك بشكره ويتوجه إليه بصنائع

(٢) آية (١١٨-١١٩) سورة هود .

(١) آية (١٣٢) سورة طه .

المعروف فإنها تبقى مصارع السوء ولا يفتر بدنياء وكفى بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَفْرُتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَفْرُتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ رَقُوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُمْ فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبِعْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ ﴾ الآية .. تنفيرا عن الغرور بها . وقال ﷺ : « حبلنا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبطون سهر الحمقى وجهادهم ولشغال فزة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين » (١) وقال ﷺ لكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى .

وقال الشاعر :

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره ••• فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة ••• وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال آخر :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها ••• تبقى علينا ويأتى وزنها رغدا
ما كان فى حق حشر أن يذل لها ••• فكيف هى متاع يضمحل غدا
وأشد ابن بسام :

أف الدنيا ولايامها ••• فإنها للحزن مخلوقة
غمومها لا تنقضى ساعة ••• عن ملك فيها ولا سوقة
يا عجبا منها ومن شأنها ••• عدوة للناس معسوقة
وأشد آخر :

ونائلة أرى الأيام تعطى ••• لشام النفس من رزق حثيث
وتنعم من له شرف وفضل ••• فقلت لها خلى أصل الحديث
رأت جمل المكاسب من حرام ••• فجادت بلخبث على الخبيث
وأشد آخر أيضا :

سل الأيام ما فعلت بكبرى ••• وقبصر والقصور وساكنيها
أما استدعهم للبين طرا ••• فلم تدع الحليم ولا السفيها

(١) الخفاف السادة ٨ / ٤٢٧ .

وحكى أعرابيا نزل يقوم فقدموا إليه طعاما فأكل ثم نام فى ظل خيمتهم فاقتلوا الخيمة فأصابه حر الشمس فاتتبه فارتحل وهو يقول :

ألا إنما الدنيا كظل بنينيه ••• ولا بد يوما أن ظلك زائل
وقال أيضا :

ألا إنما الدنيا مشيل لراكب ••• قضى وطرا من منزل ثم هجرنا

وقال بعض الحكماء لصاحب له : قد أسمعتك الداعي . وأعلم إليك الطالب ولا أحد أعظم رزية من ضيع البقين وخطاه العمل . وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالإغترار بالله جهلا . وقال رسول الله ﷺ : من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه . وقال بعضهم إن العبد يحاسب على التحزن على ما فاتته من الدنيا ويحاسب لفرجه فى الدنيا إذا قدر عليها ولقد كان السلف الصالح فيما أحل لهم أزهى منكم فيها حرم عليكم أن الذى لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم ، وكان عمر بن عبد العزيز كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات وهى لمسعر بن كدام :

نهارك يا ميسرو ونوم وغفلة ••• وليك نوم والبردى لك لازم
يغرك ما يفنى وتفرح بالمتى ••• كما غر باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيها سوف تكره غبه ••• كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

الباب التاسع والخمسون

فى بيان ذم الدنيا والتحذير منها

روى عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا . قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال يارسول الله ادع أن يرزقني مالا ، قال يا ثعلبة أما لك فى أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى أما والذي نفسى بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت . قال والذي بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ولا أعلن ولا أعلن .

قال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فتمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فتزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر فى الجماعة ويدع سراهما ، ثم تمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى

حتى ترك الجمعة وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة . وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال : ما فعل ثعلبة بن حاطب ؟ فقبل يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة وأخبروه بأمره كله فقال يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى : ﴿ خذ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلا من جهينة ووجلا من بنى سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرججا فيأخذنا الصدقة من المسلمين . وقال : مرا بثعلبة بن حاطب ويقلان رجل من بنى سليم وخذا صدقاتهما فخرججا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ . فقال ما هذه الاجزية ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى ، فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما فقام إلى خيار أسنان أبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بهما فلما رأياها قال لا يجب عليك ذلك وما نريد أن نأخذ هذا منك . قال بلى خذاها نفسى بها طيبة وإنما هي لتأخذها فلما فرغا من صدقاتهما وجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال أرياني كتابكما فنظر فيه ، فقال هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى وأبى ، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال يا ويح ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للمسلمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السليمي . فأنزل الله تعالى في ثعلبة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ أَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم مغرضون (٧٥) فأعقبهم بغافا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (١) وعند رسول الله ﷺ رجل من أنارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال لا أم لك يا ثعلبة فد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يغبل منه صدقته . فقال إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحشو التراب على رأسه فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - فأبى أن يقبلها منه ، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأبى أن يقبلها منه ، وتوفى ثعلبة بعد خلافة عثمان .

وقد روى عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى ابن مريم - عليه السلام - فقال أكون معك وأصحبك ، فانطلقا فأتياها إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلتا رغيفين

(١) آية (٧٥ - ٧٧) سورة التوبة .

وبقى وغيب ثالث ، فقال عيسى - عليه السلام - إلى النهر فشرب ثم وجع فلم يجد الرغيف فذر للرجل من أخذ الرغيف فقال لا أدري ، قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعهما خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف فم بإذن الله فقام فذهب ، فقال للرجل أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا أدري ثم أتياها إلى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء جاوزاه ، قال له أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ، فقال لا أدري فأتياها إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى - عليه السلام - بجمع ترابا وكثيبا ثم قال كن ذهبيا بإذن الله تعالى فصار ذهبيا فقسمة ثلاثة أثلاث ، ثم قال لى وثلاث لك وثلاث لمن أخذ الرغيف ، فقال أنا الذى أخذت الرغيف ، فقال كله لك وفارقه عيسى - عليه السلام - ، فأتياها إليه رجلان في المفازة ومعه المال فأردا أن يأخذهما منه ويقتلاه ، فقال هو بيننا أثلاثا فابعثوا أحداكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما تأكله ، قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث لى شيء أفاقم هؤلاء هذا المال لكنى أضع فى هذا الطعام سميا فأقتلتهما وأخذ المال وحدى ، قال ففعل وقال ذاك الرجل لى شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن إذا رجع قتلناه واتسمنا المال بيننا ، قال فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا فبقى ذلك فى المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى ، فمر بهم عيسى - عليه السلام - على تلك فقال لأصحابه هذه الدنيا فاحذروها .

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها ووعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قبض لهم فى ذلك معابش من نبات الأرض ، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى : فقال ذو القرنين صدق فأقبل إليه ذو القرنين وقال له أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فيها أنا قد جئت ، فقال لو كان لى إليك حاجة لأنيتك فقال له ذو القرنين مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ، قال وما ذاك قال ليس لكم دنيا ولا شيء أفلا أنخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ، قال إنما كرهناهما لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا نأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه ، فقال ما بالكم فد احتفرتم قبورا فإذا أصبحتم تعهدتموها فكنستموها وصلبتم عندها ، قال أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا منعنا قبورنا من الأمل ، قال وأراكم لاطعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها ، قال كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأى ما جاوز الحنك من الطعام لم يجد له

طعما كانتا ما كان من الطعام ، ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين فتناول جمجمة فقال ياذا القرنين أتدرى من هذا قال لا ومن هو قال ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض فغشم وظلم وعسا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه فى آخرته ، ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال ياذا القرنين هل تدرى من هذا قال لا أدري ومن هو قال هذا ملك ملكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل فى أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته ، ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال هذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين هل لك فى صحبتى فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما أتانى الله من هذا المال ، قال ما أصلح أنا وأنت فى مكان ولا أن نكون جميعا ، قال ذو القرنين . ولم . قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولى صديق ، قال ولم . قال يعادونك لما فى يدك من الملك والمال ولا أجد أحدا يعاديني لرفضى لذلك ولما عتدى من الحاجة وقلة الشيء قال فتصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به .

وما أحسن قول القائل :

يا من جمعت بالدينا وزينتها * * * ولا تنام عن اللذات عيناه
شغلت نفسك فيما ليس تدركه * * * تقول لله ماذا حين تلقاه
وقول آخر :

عتبت على الدنيا لرفعة عجايل * * * وتأخير ذى فضل فقلت خذ العذرا
بنو الجهل أبنائى لهذا رفعتهم * * * وأهل التقى أبناء ضرتى الأخرى
وقول محمود الباهلى :

ألا إنما الدنيا على المرء فتنة * * * على كل حال أقبلت أو تولت
فلأن أقبلت فاستقبل الشكر دائما * * * ومهما تولت فاصطبر وتثبت

الباب الستون

فى فضل الصدقة

قال ﷺ : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا فإن الله يقبلها بيمينه أى متلبسة بيمينته وبركته ثم يربها لصاحبها كما يرى أحدكم بهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد وتصدق ذلك فى كتاب الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَتْلُمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (١) ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (٢) .

ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل . وفى رواية للطبرانى ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده لصدقة إلا ألقيت فى يد الله أى إلا قبلها الله تعالى ورضى بها قبل أن تقع فى يد السائل ، وما فتح عبد باب مسئلة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر يقول العبد مالى مالى وإلما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فافقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس .

وفى الخبر ما متكم من أحد ألا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة . وقال ﷺ : « الصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار » (٣) .

يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبينا على سحت النار أولى به . يا كعب بن عجرة الناس غاديان غادىان فى فكاك نفسه فمعتقها وغاد فمويقها يا كعب بن عجرة الصلاة قربات والصوم جنة والصدقة تطفى الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا . وفى رواية كما يطفى الماء النار .

إن الصدقة لتطفى غضب الرب وتدفع ميتة السوء . وفى رواية أن الله ليسد أى يدفع بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء . وفى الحديث كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . وقيل يا رسول الله أى الصدقة أفضل ، قال جهد المقل وأبدأ بمن نمود ، وقال ﷺ سبق درهم مائة ألف درهم فقال كيف ذاك يا رسول الله فقال رجل له مال كثير أخذ من عرضه أى جانبه مائة ألف درهم وتصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ، وقال ﷺ لا ترد سائلك ولو بظلف هو للبقر والغنم بمنزلة الخافر للفرس .

سبعة بظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله إلى أن قال رجل تصدق بصدقه فأخفاها حتى لا تعلم

(٢) آية (٢٧٦) سورة البقرة .

(١) آية (١٠٤) سورة التوبة .
(٣) (حسن) الترمذى (٦١٤) .

شماله ما تنفق يمينه .

صنائع المعروف تقي مصارع السوء وصدقة السر تطفى غضب الرب وصله الرحم تزيد في العمر . وفي رواية للطبراني : صنائع المعروف تقي مصارع السوء والصدقة خفيا تطفى غضب الرب وصله الرحم تزيد في العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة وأول من يدخل الجنة أهل المعروف . وفي أخرى له ولأحمد ما في الصدقة يا رسول الله أضعاف مضاعفة وعند الله المزيد ، ثم قرأ ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ (١)

قيل يا رسول الله أي الصدقة أفضل قال : سرأ إلى فقير أو جهداً من مقل ثم قرأ : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ (٢) الآية .

أيما مسلم كما مسلماً ثوباً على عرى كساه الله تعالى من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثماو الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم .

الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصله .

أي الصدقة أفضل قال على ذي الرحم الكاشح أي المضمحل لعداوتك في كشحه أي خصمه كتابة عن باطنه .

ومن منح منيحة لبن أي بأن أعطى لبونا لمن يأكل لبنتها ثم يردها أو ووق أي أقرض دراهم أو هدى رفاقاً أي إلى الطريق كان له مثل عتق رقبة .

كل فرض صدقة وفي رواية عند جماعة رأيت ليلة أسرى على باب الجنة مكتوباً الصدقة يعشر أمثالها والقرض بشمانية عشر . ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف . أنبتني عن كل شيء قال كل شيء خلق من الماء ، فقلت أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة ، قال أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام . أعيدهوا الرحمن وأطعموا الطعام وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام . ومن موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين . من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه بإعده الله من النار يسع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام . إن الله - عز وجل - يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال علمت أن عيدي فلان مرض فلم تعده أما

(١) آية (٢٤٥) سورة البقرة .

(٢) آية (٢٧١) سورة البقرة .

(١) آية (٢) سورة المائدة .
(٢) الآية المصنوعة ٢ / ٤٦ .

علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم فلم تطعمني ، قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبيدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ، قال استسقاك عبيدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي .

الباب الحادي والستون

في قضاء حاجة أخيه المسلم

قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ (١) وقال ﷺ من مشى في عون أخيه ومنفته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله . وقال رسول الله ﷺ : إن الله خلق خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس إلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس في الحساب . وقال رسول الله ﷺ من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكتب له براءة تان : براءة من الناف وبراءة من النفاق .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب (٢) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : من مشى مع أخيه المسلم في حاجة فناصره فيها جعل الله له بيتاً وبين الناف سبعة خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله عند أقوام نعمة يقرأها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها إلى غيرهم . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : أتدرون ما يقول الأسد في زفيره ، قالوا الله أعلم ، قال يقول اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف .

وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يرفعه : إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس ، وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران ، وآية الكرسي ، وإننا أنزلناه في الليلة القدر ، وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة . وعن عبيد الله بن الحسن - رضي الله تعالى عنهم - قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة ، فقال إذا كانت لك حاجة إلى فارسل

رسولاً أو اكتب لى كتاباً فإني لأستحي من الله أن يراك يبائى . وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطرد عنها كما تطرد غريزة الإبل . وقال أيضاً فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها ، وعنه أيضاً قال لا تكثر على أخيك الخوائج فإن العجل إذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته . وما أحسن قول الشاعر :

لا تقطن عادة الإحسان عن أحد * * * ما دمت تقدر والأيام تارات
واذكر فضيلة صنع الله إذ جعلت * * * إليك لا لك عند الناس حاجات
وقول آخر :

أنقض الخوائج ما استطد * * * ت وكن لهم أخيك فارج
فلنخبر أيام الفتى * * * يوم قضى فيه الخوائج

الباب الثانى والستون

فى فضل الوضوء

قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء وصلى وكعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وفى لفظ آخر ولم يسه فيهما غفر ما تقدم من ذنبه . وقال ﷺ أيضاً : ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره ، ونقل الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ثلاث مرات . وتوضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال من توضأ مرتين مرتين ، أنه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام .

وقال ﷺ من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ، ومن لم يذكر الله لم يظهر منه إلا ما أصاب الماء : وقال ﷺ : « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات » (١) . وقال ﷺ « الوضوء على الوضوء نور على نور » (٢) . وهذا كله حث على تجديد الوضوء . وقال - عليه الصلاة والسلام - : إذا توضأ العبد المسلم تمضمض خرجت الخطايا من فمه فإذا استنثر خرجت

الخطايا من أنفه ، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشجار عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره ، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه وإذا غسل رجله خرجت الخطايا من رجله حتى تخرج من تحت أظفار رجله ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له .

ويروى أن الطاهر كالصائم وقال - عليه الصلاة والسلام - « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » (١) وقال عمر - رضى الله عنه - أن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

ويروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - وجه رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من مصر لكسوة الكعبة ، فنزل الرجل بعض أرض الشام إلى جانب صومعة حبر من الأحرار ولم يكن حبر أعلم منه فأحب رسول عمر أن يلقاه فيسمع منه علمه فأتاه واستفتح باب داره فلم يفتح له طويلاً ، ثم دخل على الحبر فسأله ليسمع منه فأعجبه علمه فشكى إليه حيسه على يابه ، فقال له الحبر إذا كنا وأينك حين عدلت الينا على هيئة السلطان فتخوفناك ، وإنما حبسناك على الباب لأن الله تعالى قال لموسى إذا تخوفت سلطاناً فتوضأ وأمر أهلك بالوضوء فإن من توضأ كان فى أمان مما يتخوف فأغلقتنا دونك الباب حتى توضأنا وتوضأ جميع من فى الدار وصليتنا فأمنناك بذلك ثم فتحنا لك الباب

الباب الثالث والستون

فى فضل الصلوات

لما كانت الصلاة أفضل العبادات كررنا الحث عليها ابتداء بكتاب الله العزيز . فمما ورد فى فضلها زيادة على ما تقدم قوله ﷺ ما أعطى عبد عطاءً خيراً من أن يؤذن له فى ركعتين يصلحهما .

قال محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - لو خيرت بين ركعتين وبين الجنة لاخترت الركعتين على الجنة لأن فى الركعتين رضا الله تعالى وفى الجنة رضاى ، ويقال أن الله تعالى لما خلق سبع سموات حشاها بالملائكة وتعيدهم بالصلاة لا يفترقون ساعة فجعل لكل أهل سماه ركع ، وأهل سماه قيام على أرجلهم إلى نفخة الصور ، وأهل سماه نوعاً من العبادة ، فأهل سماه مسجد ، وأهل سماه مرغية الأجنته من هيئته تعالى ، وأهل عليين وأهل العرش وقوف يطوفون

(١) سبق تخريجه .

(١) (ضعيف) ابن ماجه (٥١٢) ، والترمذي (٥٩) ، وضعيف الجامع (٥٥٣٦) .
(٢) (موضوع) الفوائد المجموعة (١١) ، وقال : قال العراقي فى «تخريج الإحياء» لم أفد عليه .

حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، فجمع الله كله في صلاة واحدة كرامة للمؤمنين حتى يكون لهم حظ من عبادة أهل كل سماء . وزادهم القرآن يتلونه فيها فطلب منهم شكرها ، وشكرها إقامتها بشرائطها وحدودها ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وقال ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ وقال ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وقال : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ فلم نجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها فلما بلغ ذكر المنافقين قال : ﴿ قَوْلِ لِلْمُفْسِلِينَ ① الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ فسماهم المصلين وسمى المؤمنين المقيمين الصلاة وذلك ليعلم أن المصلين كثير ، والمقيمين للصلوات قليل ، فأهل الغفلة يعملون الأعمال على الترويع ولا يذكرون يوم تعرض على الله فتقبل أم نرد .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : أن منكم من يصلي الصلاة فلا يكتب له من صلاته إلا ثلثها أو ربعها أو خمسها أو سدسها حتى ذكر عشرها يعني أنه لا يكتب من صلاته إلا ما عقل منها . وروى عن النبي ﷺ أنه قال من صلى ركعتين مقبلا على الله بقلبه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإنما عظم شأن صلاة العبد بإقبال العبد على الله فإذا لم يقبل على صلاته ولها بحدوث النفس كأن بمنزلة من وقت إلى باب ملك معتذرا من خطيئته وزكته ، فلما وصل إلى باب الملك قام بين يديه وأقبل عليه الملك فجعل الواقف يلتفت يميناً وشمالاً فلم يقض الملك حاجته وإنما يقبل للملك عليه على قدر عنايته ، فكذلك الصلاة إذا دخل العبد فيها ولها عنها لا تقبل منه .

واعلم أن مثل الصلاة كمثل وليمة اتخذها ملك وهياً فيها ألوانا من الأطعمة والأشربة لكل لون لذة وفي كل لون منفعة ودعا الناس إليها ، فكذلك الصلاة دعاهم الرب إليها وهياً لهم فيها أفعالا مختلفة وأذكارا متنوعة فتعبد بهم بها ليلئذهم بكل لون من العبودية فالأفعال كالأطعمة والأذكار كالأشربة .

وقد قيل أن في الصلاة اثنتي عشرة ألف خصلة ، ثم يتعاهد هذه الإثنتي عشرة ألف في اثنتي عشرة خصلة ، فمن أراد أن يصلي فلا بد أن يتعاهد هذه الإثنتي عشرة خصلة لتتم صلاته فسنة قبل الدخول في الصلاة وسنة فيها : أولها العلم لأن النبي ﷺ قال : عمل قليل في علم خير من عمل كثير في جهل ، والثاني الوضوء لقوله ﷺ : لا صلاة إلا بطهور ، والثالث اللباس لقوله تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ يعني البسوا ثيابكم عند كل صلاة ، والرابع حفظ الوقت لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ يعني فرضاً موقفاً ، والخامس استقبال القبلة لقوله عز وجل : ﴿ قَوْلِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ يعني نحوه ، والسادس النية لقوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى والسابع التكبير لقوله ﷺ : غريمها التكبير وتحليلها التسليم ، والثامن القيام لقوله عز وجل : ﴿ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ يعني صلوا قائمين ، والتاسع الفاتحة لقوله تعالى : ﴿ فَافْرَأْهَا مَا تَشْرُ مِنْ

الْقُرْآنِ ﴾ ، والعاشر الركوع لقوله عز وجل : ﴿ وَارْكَعُوا ﴾ والحادي عشر السجود لقوله عز وجل : ﴿ وَاسْجُدُوا ﴾ والثاني عشر القعود لقوله ﷺ : إذا رفع الرجل رأسه من آخر السجدة وفعد قدر التشهد فقد تمت الصلاة . فإذا وجدت هذه الإثنا عشرة يحتاج إلى الختم وهو الإخلاص لتتم هذه الأشياء لأن الله تعالى قال : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ .

فأما العلم فعلى ثلاثة أوجه ، أولها أن يعرف الفريضة من السنة ، والثاني أن يعرف ما في الوضوء من الفريضة والسنة أيضا فإن ذلك من تمام الصلاة ، والثالث أن يعرف كيد الشيطان فباخذ في محاربته بالجهد ، وأما الوضوء فتعاهده في ثلاثة أشياء ، أولها أن تطهر قلبك من الغل والحسد والغش ، والثاني أن تطهر البدن من الذنوب ، والثالث أن تغسل الأعضاء غسلا سابغا بغبر إسراف في الماء . وأما اللباس فتعاهده بثلاثة أشياء ، أولها أن يكون أصله من الحلال ، والثاني أن يكون طاهرا من النجاسات ، والثالث أن يكون موافقا للسنة ولا يكون لبسه على وجه الفخر والخيلاء . وأما حفظ الوقت ففي ثلاثة أشياء ، أولها يكون بصرك إلى الشمس والقمر والنجوم تتعاهد به حضور الوقت ، والثاني أن يكون سمعك مع الأذان ، والثالث أن يكون قلبك متفكرا متعاهدا للوقت ، وأما استقبال القبلة فتعاهده في ثلاثة أشياء ، أولها أن تستقبل بوجهك ، والثاني أن تقبل على الله بقلبك ، والثالث أن تكون خاشعا ذليلاً . وأما النية فتعاهدها في ثلاثة أشياء ، أولها أن تعلم أي صلاة تصلي ، والثاني أن تعلم أنك تقوم بين يدي الله تعالى وهو يراك فتقوم بالهيئة ، والثالث أن تعلم أنه يعلم ما في قلبك فتفرغ قلبك من أشغال الدنيا . وأما التكبير فتعاهده في ثلاثة أشياء ، أولها أن تكبر تكبيرا صحيحا جزما ، والثاني أن ترفع يديك حذاه أذنيك ، والثالث أن يكون قلبك حاضرا فكبر مع التعظيم . وأما تمام القيام ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن تجعل بصرك في موضع سجودك ، والثاني أن تجعل قلبك إلى الله ، والثالث أن لا تلتفت بيمين ولا شمالا . وأما تمام القراءة ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن تقرأ فاتحة الكتاب قراءة صحيحة بالترنيل بغير لحن ، والثاني أن تقرأ بالتفكر وتتعاهد معانيها ، والثالث أن تعمل بما تقرأ . وأما تمام الركوع ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن ينسط ظهرك ولا تنكسه ولا ترفعه ، والثاني أن تضع يديك على ركبتيك وتفرج بين أصابعك ، والثالث أن تطمئن راکعا وتسبح التسبيحات مع التعظيم والوقار . وأما تمام السجود ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن تضع يديك بحذاه أذنيك ، والثاني أن لا ينسط ذراعيك ، والثالث أن تطمئن فيه وتسبح مع التعظيم . وأما تمام الجلوس ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن تقعد على رجلك اليسرى وتنصب اليمين نصبا ، والثاني أن تشهد بالتعظيم وتدعو لنفسك وللمؤمنين ، والثالث أن تسلم على التمام . وأما تمام السلام فإن يكون مع النية الصادقة من قلبك إن سلامك على من كان عن يمينك من الحفظة والرجال والنساء ، وكذلك عن يسارك ولا تجاوز بصرك عن منكبيك . وأما تمام الإخلاص ففي ثلاثة أشياء ، أولها أن نطلب

بصلاتك رضا الله تعالى ولا تطلب رضا الناس ، والثاني أن ترى التوفيق من الله تعالى ، والثالث أن تحفظها حتى تذهب بها يوم القيامة لأن الله تعالى قال : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ (١) ولم يقل من عمل بالحسنة .

الباب الرابع والستون

في بيان أهوال القيامة

روى أن عائشة -رضي الله عنها- قالت : يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال أما عند ثلاث مواضع فلا عند الميزان حتى يعلم أما أن يخف وأما أن يشغل ، وعند تطاير الصحف إما أن يعطى كتابه يمينه وإما أن يعطاه شماله وحين يخرج عتق من النار فينطوى عليهم ، ويقول وكلت بثلاثة : وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر ويكل جبار عنيد ويكل من لا يؤمن بيوم الحساب فينطوى عليهم الصراط عليه كلاب وحسك والناس يمرون عليه كالبرق الخاطف والريح العاصف .. الحديث .

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال : قلت يا رسول الله وما الصور ؟ قال قرن من نور ، قلت يا رسول الله كيف هو ، قال عظيم الدارة والذي بعثني بالحق نبياً لعظم دارته كعرض السماء والأرض ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة للفرج ، ونفخة للصدق ، ونفخة للبعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فتدخل في الأجساد من الخياشيم . ثم قال النبي ﷺ : أنا أول من تنشق عنه الأرض ، وفي خبر آخر إذا أحيأ الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل فينزلون إلى قبر النبي ﷺ ومعهم البراق وحلل من الجنة فتتنشق عنه الأرض فينظر النبي ﷺ إلى جبريل فيقول يا جبريل ما هذا اليوم فيقول له هذا يوم القيامة هذا يوم الحاقة هذا يوم القارعة : فيقول يا جبريل ما فعل الله بأمتي فيقول له جبريل أبشر فإنك أول من تنشق عنه الأرض . وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال إن الله تعالى يقول يا معشر الجن والإنس إني نصحت لكم فإنا هي أعمالكم في صحفكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وذكر عن يحيى بن معاذ الرازي أنه فرئ في مجلسه : ﴿ يوم نحشر الْمُتَّقِينَ إلى الرَّحْمَنِ وَقَدْ وَفَّاء ﴾ (٢) أي ركبنا ﴿ ونسوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴾ (٣) يعني مشاة عطاشاً فقال أيها

(١) آية (٨٤) سورة القصص

(٢) آية (٨٥) سورة مريم .

(٣) آية (٨٦) سورة مريم .

الناس مهلاً مهلاً غدا تحشرون إلى الموقف حشراً وتأتون من الأطراف فوجاً فوجاً ، وتفنون بين يدي الله فرداً ، وتسالون عما فعلتم حرفاً حرفاً ، وتقاد الأولياء إلى الرحمن وفدودفاً ، ويرد العاصون إلى عذاب الله ورداً ورداً ، ويدخلون جهنم حزباً حزباً : إخواني أمامكم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون يوم الرِّجفة يوم الأزة يوم يقوم الناس لرب العالمين يوم الحسرة والتندامة يوم المناقشة يوم المحاسبة يوم المسألة يوم الصبيحة يوم الحاقة يوم القارعة يوم النشور يوم ينظر المرء ما قدمت يده يوم التغابن يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . وقا ل مقاتل بن سليمان تقف الخلائق يوم القيامة مائة سنة لا يتكلمون ، ومائة سنة في الظلمة متحيرين ومائة سنة يموج بعضهم في بعض عند ربهم يختصمون ، وأن يوم القيامة على طوله خمسين ألف سنة مما تعدون ليمضي على المؤمن المخلص كأخف صلاة مكتوبة . وقال ﷺ : لا تزول قدما عبد حتى يسئل عن أربعة أشياء ، عن عمره فيم أفناه ، وعن جسده فيم أبلاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه . وروى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال : لم يكن نبي قط إلا كانت له دعوة مستجابة فجعلها في الدنيا وإنى خبات دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة : اللهم شفّعني بجاهه عندك - صلى الله عليه - وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والستون

في صفة جهنم والعيران

لا بأس بذكر ذلك وإن تقدم التنبيه على بعض تسميها للفائدة لعل تتكرر المواعظ توقظ القلوب الغافلة لا سيما وقد عظم الله سبحانه وتعالى هول جهنم وأحوال القيامة في كتابه في غير موضع بما يقع في قلوب العقلاء أعظم موقع تنبيهها على أن ما سوى ذلك هين والآخرة خير وأبقى ، أما صفة جهنم أعاذنا الله منها بمنه وكرمه فقد روى في الحديث أن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها ولا لهيب ، لها سبعة أبواب على كل باب سبعون ألف جبل ، في كل جبل سبعون ألف شعبة من نار ، وفي كل شعبة سبعون ألف شق من نار ، وفي كل شق سبعون ألف واد من نار ، وفي كل واد سبعون ألف قصر من نار ، وفي كل قصر سبعون ألف بيت من نار ، وفي كل بيت سبعون ألف حية وسبعون ألف عقرب ، لكل عقرب سبعون ألف ذنب ، لكل ذنب سبعون ألف فقار ، في كل فقار سبعون ألف قلة من سم فإذا كان يوم القيامة كشف عنهما الغطاء فيطير منها سراقق عن يمين الثقلين وسراقق آخر على يسارهم وسراقق من فوقهم وآخر من ورائهم فإذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا على الركب وصاروا ينادون كلهم رب سلم .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : في عظم خزنة جهنم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ غَلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ كل ملك ما بين سنة ولكل واحد منهم قوة لو أنه ضرب بالمقيم الذي في يده جبلا لصار دكا فيدفع بكل ضربة سبعين ألفا في قعر جهنم . وأما قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ فالمراد بهم رؤساء الزبانية وإلا فملائكة النار لا يعلم عددهم إلا الله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

وسئل ابن عباس -رضي الله عنهما- عن سعة جهنم فقال والله ما أدري ما مسعتها ولكن بلغنا أن بين شحمة أذن كل واحد من الزبانية وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً يعني سبعين سنة وأنها تجرى فيها أودية الفبح والدم . وفي حديث الترمذي أن كثافة كبر سراق من سرادات النار أي كثافة جداره مسيرة أربعين سنة . وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم قالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال إنها فضلت عليها تسعة وسبعين جزءاً كلها مثل حرها . وقال ﷺ لو أن جهنميا من أهل جهنم أخرج كفه إلى أهل الدنيا لا احترقت الدنيا من حرها ، ولو أن خازنا من خزنة جهنم أخرج إلى أهل الدنيا حتى يبصروه لمات أهل الدنيا حين يبصرونه من غضب الله تعالى الذي عليه .

وروى مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع أصحابه إذ سمع وجبة فقال النبي ﷺ : أندرون ما هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم : قال هذا حجر رمي به في نار جهنم منذ سبعين خريفاً فهو يهوى في النار الآن حين انتهى إلى قعرها . والوجبة هي الهدية وهي صوت وقع الشيء الثقيل .

وكان عمر بن الخطاب يقول أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد وقعرها بعيد وأن مقامها من حديد . وكان ابن عباس يقول إن النار تلتفت أهلها كما يلتفت الطائر الحب ، وسئل -رضي الله عنه- عن قوله تعالى : ﴿ إذا وأنهم من مكان بعيد سمعوا لها تقيفاً وزفيراً ﴾ فهل للنار عبنان ؟ فقال نعم أما سمعتم قوله ﷺ : من كذب على متعمداً فلينبأ بين عيني جهنم مفعدا ، فبلى يا رسول الله ولها عبنان ، أما سمعتم قوله تعالى : ﴿ إذا وأنهم من مكان بعيد ﴾ . . الحديث . ويروى حديث بخرج عنق من النار له عبنان يبصران لسان ينطق به ، فيقول إني وكلت اليوم بمن جعل مع الله الها آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فلينبأهم .

وأما صفة الميزان فقد ورد في الحديث أن كفة الحسنات من نوع وكفة السيئات من ظلام . وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : إن الجنة نوضع عن يمين العرش والنار عن يساره وكفة الحسنات عن يمينه وكفة السيئات عن يساره فتكون الجنة مقابلة الحسنات والنار مقابلة السيئات

وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان وكان يقول إذا أراد الله وزن أعمال العباد قلبها أجساماً فبزنها يوم القيامة .

الباب السادس والستون

في بيان ذم الكبر والعجب

إعلم أرشدني الله وإياك لخبر الدنيا والآخرة أن الكبر والإعجاب بسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل ، وحسبك من رزية تمنع سماع النصيح وقبول التأديب ولذلك قالوا العلم يضيغ بين الحياء والكبر العلم حرب المتعالي كما أن السيل حرب للبناء العال . قال ﷺ : لا بدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . قال ﷺ : من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه . وقال الحكماء لا بدوم الملك مع المتكبر وفد فرن الله سبحانه وتعالى الكبر بالفساد ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ النَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ مَا صُرِفَ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٢) قال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا إلا تحول ما به بي معنى أنكبر عليه .

قال الجاحظ المشهورون بالكبر من فريش بنو مخزوم ، وبنو أمية ، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرار بن عدى ، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدا وأنفسهم إلا أربابا . وقيل لرجل من بني عبد الدار ألا نأني الخليفة فقال أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي . وقيل للحجاج بن أرطاة مالك لا تحضر الجماعة ؟ قال أخشى أن يزاحمني البقالون . وقيل أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطع أرضا . وقال معاوية اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له فخرج معاوية في هاجرة شديدة ومضى خلف ناقته فأحرقته الشمس ، فقال له أردفتي خلفك على ناقتك : قال لست من أرادف الملوك قال فأعطني نعليك قال ما بخل بمعتني يا ابن أبي سفيان ولكن أكره أن يبلغ أقبال اليمن أنك لست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا . وقيل أنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحده . وقال المسور بن هند لرجل أنعرفني ؟ قال لا قال أنا المسور بن هند قال ما أعرفك قال فتعسا لمن لا يعرف القمر .

وفي مثله يقول الشاعر :

فولا لأحمق بلوى التيبة أخذه • لو كنت نعلم ما في التيبة لم تتبه

(١) آية (٨٣) سورة القصص .

(٢) آية (١٤٦) سورة الأعراف .

التب مفسدة لدين منقصة * * * للمقل مهلكة للعرض فاننبه

وقبل لا ينكير إلا كل وضيع ولا بتواضع إلا كل رفيع . وقال ﷺ : ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (١) . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : أن نوح ﷺ لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت لا إله إلا الله أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض كانتا في حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتهما ، وأمركما بسبحان الله ويحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء . وقال عيسى - عليه السلام - طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يمت جباراً . وعن عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - أنه مر في السوق وعليه حزمة من حطب فقبل له ما بحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ، قال أردت أن أدفع الكبر عن نفسي . وفي تفسير القرطبي في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبَنَّ بِالْأَرْجُلَيْنِ ﴾ (٢) إن فعلته تبرجاً وتعريضاً للرجال حرم وكذا من ضرب بمنعله من الرجال عجباً حرم لأن العجب كبيرة .

الباب السابع والستون

في الإحسان إلى اليتيم واجتنب الظلم

أخرج البخاري : أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما ، ومسلم : كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار مالك بالسبابة والوسطى والبزار : من كفل يتيماً له ذو قرابة أو لا قرابة له فأنا وهو في الجنة كهاتين وضم بأصبعيه . ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة وكان له كأجر مجاهد في سبيل الله صائماً قائماً . وابن ماجه من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليلة وصام نهاره وغداً وراح شامراً سيفه في سبيل الله أنا وهو في الجنة أخوين ، كما أن هاتين أختان والصن أصبعيه السبابة والوسطى . والترمذي وصححه : من قبض يتيماً من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة أبتة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر له . وفي رواية سندها حسن حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة أبتة . وابن ماجه خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم بحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت يتيم يساء إليه . وأبو يعلى بسند حسن : أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أنى أرى امرأة تبادرنى : فأقول مالك ومن أنت : تقول أنا امرأة قعدت على أيتام لى . والطبراني بسند رواه ثقات إلا واحداً ، ومع ذلك لبس

(١) (ضعيف) الحلية ٢ / ٣٤٣ ، وكشف الخفاء ١ / ٣٨٦ .

(٢) آية (٣١) سورة النور .

بالمشرك : والذي يعشنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم لأن له في الكلام ورحم يثمه وضعفه ولم يتطاول على جاره بفضل ما آناه الله . وأحمد وغيره من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا الله كانت له في كل شعره مرت عليها بد حسنة ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين . . الحديث . وأخرج جماعة وصححه الحاكم : أن الله تعالى قال ليعقوب أن سبب ذهاب بصره وانحناء ظهره وفعل أخوه يوسف به ما فعلوا أنه آناه يتيم مسكين صائم جائع وقد ذبح هو وأهله شاة فأكلوها ولم يطمعوه ثم أعلمه الله تعالى بأنه لم يحب شيئاً من خلقه حبه لليتامى والمساكين ، وأمره أن يصنع طعاماً ويدعو المساكين ففعل . والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله تعالى وأحبه قال وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر » (١) . وابن ماجه : السلي على الأرملة والمسكين كالمجاهد سبيل الله وكالذى يقوم الليل ويصوم النهار .

قال بعض السلف كنت في بدء أمرى سكيراً مكباً على المعاصى فرأيت يوماً يتيماً فأكرمه كما يكرم الولد بل أكثر ثم تمت فرأيت الزبانية أخذوني أخذاً مزعجاً إلى جهنم وإذا باليتيم قد اعترضنى فقال : دعوه حتى أراجع ربي فيه فأبوا . فإذا النداء . خلوا عنه فقد وهبنا له ما كان منه بإحسانه إليه ، فاستيقظت وبالغت في أكرام اليتامى من يومئذ . وكان لبعض مياسير العلويين بنات من علوية فمات واشتد بهن الفقر لى أن رحلن عن وطنهن خوف الشماتة فدخلن مسجد بلد مجهوراً فنركتهن أمهن فيه وخرجت تحنن لهن في القوت فمركب كبير البلد وهو مسلم فشرحت له حالها فلم يصدقها ، وقال لا بد أن تقبى عندى البينة بذلك فقالت أنا غريبة فأعرض عنها ، ثم مرت بمجوسى فشرحت له ذلك فصدق وأرسل بعض نسائه فأتت بها وبيتاتها إلى داره فبالغ في أكرامهن ، فلما مضى نصف الليل رأى ذلك المسلم القيامة فد قامت والنبي ﷺ معقوداً على رأسه لواء الحمد وعنده قصر عظيم فقال ﷺ أفم عندى البينة بذلك فتحير فقصر له ﷺ خبر العلوية فانتبه الرجل في غابة الحزن والكآبة إذ ردها ثم بالغ في الفحص عنها حتى دل عليها بدار المجوسى فطلبها منه فأبى ، وقال قد لحقنى من بركاتهن ، فقال خذ ألف دينار وسلمهن إلى فأبى : فأراد أن يكرهه ، فقال الذى تريده أنا أحق به والقصر الذى رأته في النوم خلق لى أنفخر على بإسلامك فوالله ما تمت أنا وأهل دارى حتى أسلمنا كلنا على يد العلوية ورأيت مثل منامك ، وقال لى رسول الله ﷺ : العلوية وبناتها عندك فلت نعم يا رسول الله قال القصر لك ولأهل دارك ، فانصرف المسلم وبه من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

(١) (صحيح) البخارى (٥٣٥٣) ، ومسلم (٢٩٨٢)

الباب الثامن والستون

فمن تحريم أكل الحوام

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (١) . الآية .
واختلفوا في المراد به ، فقيل الربا والقمار والنصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة . وقال ابن عباس هو ما يؤخذ من الإنسان بغير عوض ، وعليه قيل لما نزلت الآية نخرجوا من أن يكلوا عند أحد شيئا حتى نزلت آية النور : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ . إلى آخرها وقيل هو العقود الفاسدة والوجه قول ابن مسعود أنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة انتهى . وذلك لأن الأكل بالباطل يشمل كل ما يؤخذ بغير حق سواء كان على جهة الظلم كالنصب والخيانة والسرقة أو الهزؤ واللعب كما لا يؤخذ بالقمار والملاهي ، وسيأتي ذلك كله أو على وجه المكر والخديعة كما لا يؤخذ بعقد فاسد ويؤيد ما ذكرته قول بعضهم الآية تشمل كل الإنسان حتى مال نفسه بالباطل بأن ينفقه في محرم ، ومال غيره به كالأمثلة المذكورة وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً ﴾ استثناء منقطع لأن التجارة ليس من جنس الباطل بأي معنى أريد به وتأويله بالسبب ليكون متصلا ليس في محله ، والتجارة وأن اختصت بعقد المعاوضات إلا أن نحو القرض والهبة ملحق بأدلة أخرى وقوله تعالى : ﴿ عَنْ قُرَٰضِكُمْ ﴾ أي طيب نفس على الوجه المشروع وتخصيص الأكل فيها بالذكر ليس للتقليد به بل لكونه أغلب وجوه الانتفاعات على حد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ وأدلة هذا الميحث والتفليطات الواردة فيه من السنة كثيرة فلنقتصر على بعضها .

أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام والحلال واجب علي كل مسلم والطبراني والبيهقي ، طلب الحلال فريضة بعد الفرائض والترمذي وقال حسن صحيح غريب والحاكم وصححه من أكل طيبا وعمل في سنة وأمن الناس بوائقه دخل الجنة . قالوا يا رسول الله إن هذا في أمك اليوم كثير ، قال وسيكون في قرون بعدى . وأحمد وغيره باسناد حسن : أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خلق ، وعفة في طعمة . والطبراني : طوبى لمن طاب كسبه وصلحت سربرته

(١) آية (٢٩) سورة النساء .

وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ، والطبراني باسناد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده أن العبد ليقذف لقمه الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالتوا أولى به . والبزار وفيه نكارة أنه لا دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة ولا زكاة أنه من أصاب مالا من حرام فلبس جلبابا يعنى قميصا لم تقبل صلاته حتى ينحي ذلك الجلباب عنه ، أن الله تبارك وتعالى أكرم من أن يقبل عمل رجل أو صلاته وعليه جلباب من حرام . وأحمد عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام لم يقبل الله عز وجل له صلاة مادام عليه ، ثم أدخل أصبعه في أذنيه ثم قال صمتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقول : واليهقى : من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة اشترك في عارها واتمها .

قال الحافظ المنزوي في استاده احتمال للتحسين ويشبه أن يكون وقفا ، وأحمد بسند جيد : والذي نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي فيحمله على ظهره فيأكل خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه ، وإبنا خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم : من جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن فيه أجر وكان أصره عليه ، والطبراني : من كسب مالا حراما فاعتق منه ووصل منه رحمه كان ذلك إصرا عليه ، وأحمد وغيره بسند حسن بعضهم أن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أوزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب من أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسى بيده لا سلم أولا يسلم عبد حتى سلم أو يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا وما بوائقه يا رسول الله ، قال غشه وظلمه . ولا يكسب عبد مالا من حرام فيتصدق منه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله تعالى لا يمحو السوء بالسوء ولكن يمحو السوء بالحسن ، إن الحبيث لا يمحو الحبيث . والترمذي وقال حسن صحيح غريب سئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال الفم والفرج . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق . والترمذي وصححه : ما تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه أو كما قال .

والبيهقي : الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه حقه أثابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله وأنفقه في غير حقه أورده الله دار الهوان ، ورب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة .

يقول الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ وابن حبان في صحيحه لا يدخل الجنة لحم

ودم نباتا من سحت إلا كانت النار أولى به ، والسحت بضم فسكون أو ضم الحرام وقيل الخبيث من المكاسب وفي رواية بسند حسن : لا يدخل جسد غذى بحرام .

الباب التاسع والستون

فى النهى عن الربا

الآيات فى النهى عن الربا كثيرة ومن الأحاديث ما رواه البخارى وأبو داود : « لعن رسول الله ﷺ الراشمة والمستوشمة وأكل الربا وموكله » (٢) والحاكم وصححه : « أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها ، مدمن الخمر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه » (٣) . والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين : الربا ثلاثة وسبعون بابا أسرها مثل أن ينكح الرجل أمه . والبخاري بسند رواه الصحيح ، الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك ، والبيهقى الربا سبعون بابا أدناها مثل الذى يقع على أمه ، والطبرانى فى الكبير عن عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - عن النسي ﷺ قال الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ثلاث وثلاثين زنية يزنيها فى الإسلام وفى سنده انقطاع ، وروى ابن أبي الدنيا والبيهقى وغيرهما موقفا على عبد الله وهو الصحيح وهذا موقوف فى حكم المرفوع لأن كون الدرهم أعظم وزرا من هذا العدد للمخصص من الزنا لا يدرك إلا بروحى فكأنه سمعه منه ﷺ ، ولفظ اللوقوف فى أحد طرقه . قال عبد الله : الربا اثنان وسبعون حوبا أى بضم المهملة ويفتحها إنما أصغرها حوبا كمن أتى أمه فى الإسلام ، ودوهم من الربا أشد من بضع وثلاثين زنية ، قال ويأذن الله للبر والفاجر بالقيام يوم القيامة إلا أكل الربا فإنه لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس .

وأحمد بسند صحيح والطبرانى أنه ﷺ قال : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية » (٤) ، وابن أبي الدنيا والبيهقى خطبنا رسول الله ﷺ فذكر أمر الربا وعظم شأنه وقال إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها رجل . والطبرانى فى الصغير والأوسط من أعان ظالما يباطل ليدحض به حقا فقد برىء من ذمة نفسه وذمة رسوله ﷺ ومن أكل درهما من ربا فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . وابن ماجه والبيهقى عن أبى معشر وقد وثق عن أبى سعيد المقبرى عن أبى

١٠ (صحيح) البخارى (٥٩٣٩ و ٥٣٤٧) ، وأبو داود (٣٣٣٣) .

١١ (ضعيف جداً) الحاكم ٢ / ٣٧ ، وضعيف الجامع (٧٤٨) .

١٢ (ضعيف) أحمد ٥ / ٢٢٥ ، وضعيف الجامع (٢٩٧٠) .

هريرة قال : قال رسول الله ﷺ الربا سبعون حوبا أسرها إن ينكح الرجل أمه . والحاكم وصححه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال نهى رسول الله ﷺ أن تشتري الثمرة حتى تعظم وقال إذا ظهر الزنا الربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله . وأحمد بإسناد فيه نظر : ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب والسنة العام المقحط نزل فيه غيث أم لا . وأحمد فى حديث طويل وابن ماجه مختصرا والأصبهاني رأيت ليلة أمرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فإذا أنا برعد وبروق وقواصف قال فأبيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الخببات ترى من خارج بطونهم قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء أكلة الربا . والأصبهاني عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : لما عرج بى إلى السماء نظرت فى سماء الدنيا فإذا رجال بطونهم كأمثال البيوت العظام قد مالت بطنونهم وهم متضدين على سابلة آل فرعون موقوفون على النار كل غداة وعشى يقولون ربنا لا تقم الساعة أبداً قلت يا جبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء أكلة الربا من أمتك لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، قال الأصبهاني قوله متضدون أى مطروحون أى طرح بعضهم على بعض والسابلة المارة أى يطوهم آل فرعون الذين يقرضون على النار كل غداة وعشى ، والطبرانى بسند صحيح بين يدي الساعة يظهر الزنا والربا والخمر . والطبرانى بسند لا بأس به عن القاسم بن عبد الله الوراق قال رأيت عبد الله بن أبى أوفى - رضى الله عنه - فيسوق الصبارفة فقال يا معشر الصبارفة أبشروا قالوا بشرك الله بالجنة ثم تبشرنا يا أبا محمد قال : قال رسول الله ﷺ للصبارفة أبشروا بالنار . والطبرانى إياك والذنوب التى لا تغفر الغلول فمن غل شيئا أنى به يوم القيامة وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط ثم قرأ ﷺ : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ (١) الأصبهاني يأنى أكل الربا يوم القيامة مجنوناً يتخبطه الشيطان من المس ، ثم قرأ : ﴿ لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ وابن ماجه والحاكم وصححه : « ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة » (٢) . والحاكم وصححه أيضا الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل وأبو داود وابن ماجه كلاهما عن الحسن عن أبى هريرة واختلف فى سماعه والجمهور على عدمه ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد الا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره ، وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند : « الذى نفسى بيده لبيبت أناس من أمتى على أشرب ويطر ولهو ولعب فبصبجوا فردة وخنازير باستحلالهم مختصرا والبيهقى واللفظ له يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب فبصبجون فدمسخوا فردة وخنازير وليصبيهم خسف وفذف حتى يصبح الناس فيقولون خسف الليلة بينى فلان وخسف الليلة بدار فلان وترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل

(١) آية (٢٧٥) سورة البقرة .

(٢) (صحيح) ابن ماجه (٢٢٧٩) ، والحاكم ٤ / ٣١٨ .

منها وعلى دور بشرهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القبات وأكلهم الربا وتطيعتهم الرحم . وخصلة نسبها روايه . القبات جمع فبة وهى المغيبة .

الباب السبعون

فصل حقوق العبد

هى أن تسلم عليه إذا لعينه ، ونجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وذموده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات : ونبرقسه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استصحبك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك ، ورد جميع ذلك فى أخبار وأثار .

وقد روى أنس - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر للمنهم ، وأن تدعو لمديرهم وأن تحب تائبهم ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - فى معنى قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ (١) قال يدعو صالحهم طالحهم من الخير وثبته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه .

قال النعمان بن بشير سمعت رسول الله ﷺ يقول مثل للمؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرُه بالحمى والسهر .

وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ومنها أن لا يؤذى أحداً من المسلمين بفعل ولا قول . قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٢) وقال ﷺ فى حديث طويل بأمر فيه بالفضائل فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدفت بها على نفسك ، وقال أيضا أفضل المسلمين من سلم المسلم من لسانه ويده ، وقال ﷺ أتدرون من المسلم فقالوا الله ورسوله أعلم ، قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا فمن المؤمن قال من أمته المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا فمن المهاجر ، قال من هجر السوء واجتنبه . وقال رجل يا رسول الله ما الإسلام قال أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك . وقال مجاهد يسلط على أهل النار الحرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده

(١) آية (٢٩) سورة الفتح .

(٢) (صحيح البخاري) (٦٤٨٤) .

فينادى يا فلان هل يؤذك هذا فيقول نعم فيقول هذا بما كنت تؤذى المؤمنين ، وقال ﷺ : لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين ، وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - يا رسول الله علمنى شيئا أنتفع به ، قال اعزل الأذى عن طريق المسلمين وقال ﷺ : من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيه كذب الله له به حسنة ومن كذب الله له حسنة أوجب له الجنة . وقال ﷺ لا يحل لمسلم أن يهجر أخيه بنظرة تؤذيه ، وقال ﷺ : ولا يحل لمسلم أن يروى مسلما (١) . وقال ﷺ إن الله يكره أذى المؤمنين . وقال الربيع ابن خيثم الناس رجلان مؤمن فلا تؤذيه وجاهل فلا تجاهله ، ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه فإن الله لا يحب كل مختال فخور . وقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ثم إن تفاخر عليه غيره فليتحمل قال بلله تعالى لنبه ﷺ : ﴿ خذ العفوَ وأمر بالعرفِ وأعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

وعن ابن أبى أوفى كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ، ولا يأنف ، ولا يتكبر أن يش مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بغضهم على بعض ، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . وقال ﷺ لا يدخل الجنة قتات . وقال الخليل بن أحمد من ثم لك ثم عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك ، ومنها أن لا يزيد فى الهجر لمن يعرفه على ثلاثه أيام مهما غضب عليه .

قال أبو أيوب الأنصارى قال رسول الله ﷺ : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ، وقد قال ﷺ من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة ، وقال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب بعفوك عن أخوتك وفعت ذكرك فى الدارين ، قالت عائشة - رضى الله عنها - ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله . وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزا ، وقال ﷺ ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلا بعفو إلا عزا ، وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله .

الباب الواحد والسبعون

فصل ذم اتباع الهوى وفى بيان الزهد

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (٣) الآية . . قال ابن عباس ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان والمعنى هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه

(١) (صحيح) أبو داود (٥٠٠٤) ، وصحيح الجامع (٧٦٥٨)

(٢) آية (١٩٩) سورة الأعراف . (٣) آية (٢٣) سورة الجاثية .

إليه ولا يعمل بكتاب الله فكأنه يعبد هواه . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) ولذلك استعاذ ﷺ منه بقوله اللهم إني أعوذ بك من هوى مطاع رشع متبع ، وقال : « ثلاث مهلكات هوى مطاع ورشع متبع وإعجاب المرء بنفسه » (٣) وذلك لأن كل معصية سببها هوى النفس فهو بقود إلى النار أعاذنا الله منه . قال بعض العارفين إذا بدهك أمران لا تدوى في أيهما الصواب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالقه ، وفي هذا المعنى قال الشافعي - رضى الله عنه - :

إذا حال أمرك في معنيين ** ولم تد رحيت الخطأ والصواب
فخالف هواك فلإن الهوى ** يقود النفوس إلى ما يعاب

وقال العباس إذا اشتبه عليك رأيان فدع أحبهما إليك وخذ أثقلهما عليك ، وأصله أن الأمر الخفيف يسهل عليك موقعه ويقرب موضعه وتخف مؤننه وتأتي معونته فيشره المرء إليه وتحرص النفس عليه ، والأمر الثقيل يصعب موقعه ويبعد موضعه وتبطئ معونته فتكسل النفس عنه وتكره التعب به .

روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال أقدموا هذه الأنفس فإنها طليعة تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مري . وإن الباطل خفيف ويح وترك الخطيئة أيسر من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ولذة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال لقمان لابنه أول ما أحذرک من نفسك فإن لكل نفس هوى وشهوة فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها ، فإن الشهوة كامنة في القلب كمنون البناء في الحجر إن قدح أورى وإن ترك توارى .

قال بعضهم :

إذا ما أوجب النفس في كل دعوة ** دعك إلى الأمر القبيح للحرم

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى ** إلى كل ما فيه عليك مغال

وقال غيره :

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى ** طرق الرشاد إذا اتبعت هواك

(١) آية (٤٨) سورة المائدة

(٢) آية (٢٦) سورة ص .

(٣) سبق تخريجه .

وقال :

إذا شئت اتيان المحامد كلها ** ونيل الذى ترجوه من رحمة الرب
فخالف هوى النفس المسيئة إنه ** لأعدى وأردى من هوى الحب
هما سببا حتف الهوى غير أن فى ** هوى الحب مهما عت بعد عن الذنب
وجل المعاصى فى هوى النفس فاعتمد ** خلاف الذى تهواه إن كنت ذالبا

وقال :

إنارة العقل مكوف بطرق هوى ** وعقل عاصى الهوى يزهّد تنويرا

وقال الفضل بن العباس :

لقد ترفع الأيام من كان جاهلا ** ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبیب
وقد تحمد الناس الفتى وهو مخطئ ** ويعمل فى الإحسان وهو مصیب

وقال ﷺ : خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر فقال وعزتى وجلالى لا وكبتك إلا فى أحب الخلق الى ، وخلق الحق فقال له أقبل فأقبل وقال له أدبر فأدبر فقال وعزتى وجلالى لا وكبتك إلا فى أبغض الخلق إلى .. ورواه الترمذى .

ولله در من قال :

وقد اصاب رأيه عين الصواب ** من استشار عقله فى كل باب

وقد رأى أن الهوى مهما يجب ** يدعو إلى سوء العواقب والعقاب

وأشد آخر :

إذا شئت أن تحظى وأن تبلغ المنى ** فلا تعد النفس المطيعة للهوى

وخالف بها عن مقتضى شهوانها ** وإياك أن تحفل بمن ضل أو غوى

ودعها وما تدعو إليه فإنها ** لأمار؛ بالسوء من هم أو مدى

لعلك أن تنجو من النار إنها ** لقاطعة الأعماء نزاعة الشوى

ومأثورهم الهوى مركب ذميم يسير بك فى ظلمات الفتن ومرتع وخيم بعملك فى مواطن المحن فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات والعمود فى مواطن الخطيئات ، قيل لبعضهم لو تزوجت قال لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها وأنشد .

نجرد من الدنيا فلانك إنما ** سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

لدنيا نوم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام من نظر بعين نهى حار ومن حكم على الهوى جار ومن أطل النظر لم يدرك الغاية وليس لناظر نهاية .

وقال رحمه : خير دينكم الورع وقال سيدة العمل الورع وقال كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن فقيراً تكن أشكر الناس ، وقال رحمه : من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبا له شيء من علمه (١) . قال إبراهيم بن أدهم الزهد ثلاثة مقامات فزهد فرض وهو الكف عن المنحارم ، وزهد سلامة وهو ترك الشهوات ، وزهد فضل وهو الزهد في الجدل ، وهذا تفسير حسن . قال ابن المبارك الزهد إخفاء الزهد إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه وإذا طلب الناس فلهرب منه .

وما أحسن قول القائل :

أتى وجدت فلا تظن غير ** إن التورع عند هذا الدرهم
فلذا قدرت عليه ثم تركته ** فأعلم بأن تقاك تقوى المسلم
وليس الزاهد من زهد في الدنيا وقد أعرضت عنه وإنما الزاهد من أتبلت عليه
قوى عنها وجهه وأثر الفراق منها كما قال أبو تمام .

إذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ** بمصفرها الدنيا فليس بزاهد
وقال بعض الحكماء :

تباً لطالب دنيا لا بقاء لها ** كأنما هي في تصرفها حلم
صفاؤها كدر سراؤها ضرر ** أمانها غرر أبوارها ظلم
نباها هرم راحتها سقم ** لذاتها ندم وجدانها عدم
لا يستفيد من الأنكاد صاحبها ** لو كان يملك ما قد ضمنت ارم
فخل عنها ولا تترك لزهرتها ** فإنها نعم في طبها نعم
واعمل لدار نعيم لا نقاد لها ** ولا يخاف بها موت ولا هرم

ومن حكم يحيى بن معاذ ليكن نظرك إلى الدنيا اعتباراً ، ورفضك لها اختصاراً ، وسعت
بعضاراً وطلبك الآخرة ابتداراً .

الباب الثاني والسبعون

في صفة الجنة ودرجات أهلها

إعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها وهي النار تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من إحداها استقرار لا محالة في الأخرى فاستأثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستأثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنات ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم ، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الباقوت الأحمر في خيام اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متكئين على الأرائك منصوبة على أطراف أنهاره ومطرده بالخمير والعمل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالخور العين من الخيرات الحسان كأنهن الباقوت والمرجان ، لم يطمئن أنس قبلهم ولا جان ، يمشين في دوجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألف من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تحجير فيه الأبصار متوجات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكالات فنجات عطرات أمينات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الباقوت ، بنيت وسط روضات الجنان ، قابضات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يبيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرمقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً وماء غير آسن ، أراضيها من فضة وحسابها مرجان وترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ويؤتون بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب وكوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحرمة لم يصنعه آدمي ، فيقصر في تسوية صنعه وتحسين صناعته في كف خدام يحكى ضياء وجهه الشمس في إشراقها ، ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحاة أحداثه ، فيها عجايب لم يدر هده صفتها ويوفن بأنه لا يموت أهلها ولا تحمل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنتظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتنهأ بعيش دونها ، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش . . .

... الحديثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفص من ... كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور متنعمون لهم في كل ما يشتهون هم في ... من بقاء العرش يحضرون وإلى وجه الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه ... سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ومن زوالها ...

قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : ينادى مناد يا أهل الجنة أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا ... وأن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وأن لكم أن تنعموا ... تلبسوا أبداً فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَتُودُوا أَنْ تَتَكَلَّمُ الْجَنَّةُ أَوْ تُشْمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، ... هما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرا القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقراً من قوله ... : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (٢) إلى آخر سورة الرحمن ، واقرا سورة الواقعة وغيرها من ... وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على ... جملتها وتأمل أولاً (عدد الجنان) .

قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ قال جنتان من فضة ... أنبهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنبهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ... إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول ... الطاعات كما أن أبواب النار بحسب المعاصي . قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « من ... أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها والجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من ... أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ، ومن كان من ... أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد . فقال أبو بكر ... - رضي الله عنه - : والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها قال نعم ... أ. جو أن تكون منهم » (٣) .

وعن عاصم بن ضمرة عن علي - كرم الله وجهه - أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرها لا أحفظه ثم ... : ﴿ وَسَبِّحْ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زَمْرًا ﴾ (٤) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده ... من تحت سافها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداها كما أمروا به فشريوا منها فأذهبت ... من يظنونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى فتظهرها منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلا ...

(١) سورة الأعراف .

(٢) سورة الرحمن .

(٣) صحيح البخاري (٢٨٤١ ، ٣٢١٦) ، ومسلم (١٠٢٧) .

(٤) سورة الزمر .

تغير أشعارهم بعدها أبداً ولا تشمت رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال ... لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما ... تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعد الله لك من الكرامة ... كذا ، وقال فينتقل غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الخور العين فيقول قد جاء فلان ... باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا ، فتقول أنت رأيت فيقول أنا رأيت وهو بأثرى فيستخفها الفرح ... حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزلة نظر إلى أساس بنيانه فإذا جنبد اللؤلؤ فوقه صرح ... أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا هو مثل البرق ولولا أن الله ... تعالى أقره لآلم بأن يذهب بصره ثم يطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ومارق مصفوفة ... وزرابى مبثوثة . ثم اتكا فقال الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ثم ... ينادى مناد تحبون فلا تموتون أبداً وتقيمون فلا تظعنون أبداً وتصحون فلا تمرضون أبداً .

وقال رسول الله ﷺ : أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول ... محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك .

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر ... تفضيلاً ، وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتات ظاهرة ... فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك ... أحد بطاعة الله تعالى فقد أمر الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ... رَبِّكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو ... جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك أو ضاق به صدرك وتنقص بسبب الحسد ... عيشك ، واحسن أحوالك ، أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوال يسبقونك بلطائف لا ... توازيها الدنيا بحذاقيرها .

فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ : أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم ... كما تتراءون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله ... تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا ... المرسلين وقال أيضاً إن أهل الدرجات العلا ليأمرهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من ... أفاق السماء وأن أبا بكر وعمر لمتهم ، وأنعم ، وقال جابر قال لنا رسول الله ﷺ : ألا أحدثكم ... بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأما قال : إن في الجنة غرفاً من ... أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ... مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولم هذه الغرف قال

لن أقتنى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطبق ذلك قال امتنى تطبق ذلك وسأخبركم عن ذلك . من لقي أخاه فسلم عليه فقد أقتنى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في الجماعة فقد صلى بالليل والناس نيام يعني اليهود والنصارى والمجوس . وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ ظَنِّهُ فِي جَنَاتٍ عَدْنٍ ﴾ قال قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر . في كل بيت سرير على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن في كل غداة معنى من القوة ما يأتي على ذلك أجمع .

الباب الثالث والسمين

في الصبر والرضا والقناعة

أما فضل الرضا من الآيات فقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ ظَنِّهُ فِي جَنَاتٍ عَدْنٍ وَوَضَعْنَا عَنْهُ ﴾ ومتى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْنِئُ عَلَى الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان . وفي الحديث : أن الله تعالى يتجلى للمؤمنين ، فيقول سلوني ، فيقولون رضاك ، فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل وأما رضا العبد فستذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذا نفصر أفهام الخلق عن دركه ، ومن بغوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فلما سألوا الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما أسروا بالسؤال أم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى : ﴿ وَلَدُنَا مُزِيدٌ ﴾ (١) قال بعض المفسرين فيه بآنى أهل الجنة في وقت للزبد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلاً فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ أَنفُسُ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢) والثانية السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية

(١) آية (٣٥) سورة ق .

(٢) آية (١٧) سورة السجدة .

فصلاً وهو قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (١) والثالثة يقول الله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْهُمْ ﴾ (٢) أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد .

وأما فضله من الأخبار فقد روى أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون ، فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة ، وفي خبر آخر أنه قال : حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء . وفي الخبر : طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به . وقال ﷺ : « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » (٣) . وقال تعالى : إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتبه وإن رضى اصطفا . وقال أيضاً إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من امتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب ، فيقولون ما رأينا حساباً فتقول لهم هل جزئ الصراط ، فيقولون ما رأينا صراطاً فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة من أمة من أنتم ، فيقولون من أمة محمد ﷺ ، فتقول نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ، فيقولون خصلتان كانتا فبنا فبلغنا هذه المتزلة بفضل رحمة الله ، فيقولون وما هما ، فيقولون كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة يحق لكم هذا .

وقال ﷺ : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب ففركم وإلا فلا » (٤) وفي أخبار موسى - عليه السلام - أن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ، فقال موسى - عليه السلام - إلهى قد سمعت ما قالوا : فقالوا يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أَرْضَى عنهم .

وأما فضل الصبر فقد ذكر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمراً له وجمع الصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر بطول .

أما الأخبار : فقد قال ﷺ : الصبر نصف الإيمان ، وقال ﷺ : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم ييال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن نصبروا

(١) آية (٥٨) سورة يس .

(٢) آية (٧٢) سورة التوبة .

(٣) (ضعيف) الخاف السادة ٩ / ٦٥٠ ، رضعيف الجامع (٥٦٠١) .

(٤) الخاف السادة ٩ / ٢٨٣ و ٢٩٥ .

على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا فبتكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكامل ثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ ﴾ الآية ..

وروى جابر أنه - سئل ﷺ عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة . وقال أيضا : الصبر أكثر من كنوز الجنة ^(١) . وسئل مرة ما الإيمان فقال الصبر . وهذا يشبه قوله ﷺ الحج عرفة معظم الحج عرفة ، وقال أيضا ﷺ : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ^(٢) ، وقبل أوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - تخلق بأخلاق وإن من أخلاقى أتى أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال : أؤمنون أنتم ؟ فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله ، قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء . فقال ﷺ : مؤمنون ورب الكعبة . وقال ﷺ : في الصبر على ما تكره خير كثير . وقال المسيح - عليه السلام - إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله ﷺ : لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين والأخبار في هذا لا تحصى ، وقال ﷺ : عز من فنع وذل من طمع ، وقال ﷺ : القناعة كنز لا يفنى وتقدم الكلام على القناعة مراراً .

الباب الرابع والسبعون

في فضل التوكل

فمن الآيات قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ^(٣) وأعظم بمقام موسوم بحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون بكفاية الله تعالى ملائسته ، فمن الله تعالى حسيبه وكافيه ومجبه وواعبه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب ، ومن الأخبار قوله ﷺ : فيما رواه ابن مسعود رأيت الأم في الموسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهينتهم فقبل لي أرضيت قلت نعم قليل ومع هؤلاء سبعون ألف يدخلون الجنة بغير حساب فيل من هم يا رسول الله قال الذين لا يكتنون ، ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة وقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اجعله منهم فقال آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال ﷺ سبفك بها عكاشة . وقال

(١) (موضوع) كشف الحفاء ٢ / ٢٧ .

(٢) تحاف السادة ٩ / ٦ و ٥٢٥ .

(٣) آية (١٥٩) سورة آل عمران .

ﷺ : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً . وقال ﷺ : من انقطع الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها . وقال ﷺ : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه .

ويروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربي عز وجل : قال عز وجل : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية .. وقال ﷺ : لم يتوكل من استرفى واكتوى .

وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم - عليهما السلام - وقد رمى النار بالمنجنيق لك حاجة قال أما إليك فلا فواء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ، وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام - : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيد السموات والأرض إلا جعلت لها مخرجاً . وقال سعيد بن جبير لدغتي عقرب فافست على أمي لتسرقين فتأولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَبِيبِ الَّذِي لَا يَمُوت ﴾ إلى آخرها فقال ما ينبغي للعبد بعد هذه يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته .

وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما فد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد . وقال إبراهيم بن أدهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سئل ربي من أين يطعمني . وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلاً .. نسأل الله الأدب .

الباب الخامس والسبعون

في فضل المسجد

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَغُورُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(١) وقال ﷺ : من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له فصراً في الجنة ^(٢) ، وقال ﷺ : من ألف المسجد ألف الله تعالى ، وقال ﷺ : إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس :

(١) آية (١٨) سورة التوبة .

(٢) (ضعيف) أحمد ١ / ٢٤١ ، ومجمع الزوائد ٢ / ٧ .

وقال ﷺ : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » (١) وقال ﷺ : « الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصلاه الذي فيه يقول اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد . وقال ﷺ : يأتي في آخر الزمان ناس من أمي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تحالسونهم فليس لله بهم حاجة . وقال ﷺ قال الله عز وجل في بعض الكتب إن بيوتى في أرضي المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارنى في بيته فحق على المزور أن يكرم زائره . وقال ﷺ إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، وقال سعيد بن المسيب من جلس في المسجد فلما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيرا .

ويروى في الأثر أو الخبر : الحديث في المسجد يأكل الحسنة كما تأكل البهائم الحشيش . وقال النخعي كانوا يرون أن المشى في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة . وقال أنس بن مالك من أسرج في المسجد سراجا لم تنزل الملائكة وحملة العرض يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه . وقال علي كرم الله وجهه إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم قرأ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٢) وقال ابن عباس تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخرساني ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى متنهاها من سبع أرضين وما من عبد يقدم صلى إلا تزخرت له الأرض . ويقال ما من منزل ينزل فيه قوم لا أصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم .

الباب السادس والسبعون

في الرياضة وفضل أهل الكرامة

إعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف نفسه فله أربعة طرق . . (الاول) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فبعرفة أستاذه

(١) (ضعيف) البيهقي ٣ / ٧٥ ، وضعيف الجامع (٦٢٩٧) .

(٢) آية (٢٩) سورة الدخان .

وشيوخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا عز في هذا الزمان وجوده ، (الثاني) أن يطلب صديقا بصيرا مندينا فينصبه وقيما على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وعيوبه الباطنة والظاهرة ينهيه عليه فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر - رضى الله عنه - يقول رحم الله امرءا أهدي إلى عيوبى وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال ما الذى بلغك عنى مما تكرهه فاستغنى فألح عليه فقال بلغنى أنك جمعت بين إدامين على مائدة وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال وهل بلغك غير هذا قال لا ، فقال أما هذان فقد كفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله ﷺ فى المنافقين فهل ترى على شيئا من آثار التفاف فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه - رضى الله عنه - فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل إعجاب وإعظم اتهاما لنفسه إلا أن هذا أيضا قد عز فقل فى الأصدقاء من يترك المداينة فيخبر بالعبث أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو فى أصدقاؤك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مديهن يخفى عنك بعض عيوبك ، ولهذا كان داود الطائى قد اعتزل الناس قليل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبى . فكانت شهوة ذوى الدين أن يتبهاوا لعبوبهم بتبئيه غيرهم وقد آل الأمر فى أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من يتصنعا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب للداغة فلو نبهنا منه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه مة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها وإنما نكايته على البدن ويدوم المها يوما فما دونه ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا أو الأفا من السنين ثم أنا لا نفرح بمن نبهنا عليها ولا نشغلنا بازالتها بل نشغل بمقابلة الناصح بمثل مقابلته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التى أضرمتها كثرة الذنوب . وأصل كل ذلك ضعف الإيمان فنسأل الله عز وجل أن يلهنا رشدنا ويصيرنا ويشغلنا بمداولتها ويرفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله :

الطريق (الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فإن عين السخط تبدي ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدامن يشئ عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على الستهم .

الطريق (الرابع) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيها بين الخلق فليطلب نفسه بها وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة فى

انبغ الهوى ، فما يتصف به واحد من الأفران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليبتغ نفسه ويظهرها من كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما بكرهه من غيرهم لا يستغنوا عن المؤدب .

واعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقی والتقليد لمن يستحق التقليد فإن للإيمان درجة كما أن العلم درجة ولعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الدُّنْيَا أَوْتَارًا وَالْعِلْمُ دَرَجَاتٌ ﴾ فمن صدق بأن مخالفه الشهوات هو الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا ، وإذا اطلع ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذي يقتضى الإيمان بهذا الأمر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَمَّتِ النَّفْسُ مِنَ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَلِلَّهِ هَمُّهُمْ وَلِلْغَايَةِ الْمَأْوَىٰ ﴾ وقال ﷺ : « المؤمن بين خمس شئدائد مؤمن يحسنه ومتفق ييغضه وكافر يقاتله وشيطان يضلّه ونفس تنازعه » (١) . فبين أن النفس عدو نازع يجب عليه مجاهدتها .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود - عليه السلام - يا داود حذر وأندر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة ، وقال عيسى - عليه السلام - طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لم يعود غائب لم يره . وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد : مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس . وقال ﷺ : « المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل » (٢) . وقال صفيان الثورى ما عاجلت شيئا أشد على من نفسى مرة لى ومرة على ، وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تحتهدين كائى بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين . وقال الحسن ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك . وقال يحيى بن معاذ الرازى جاهد نفسك بأسيايف الرياضة الرضاضية والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام والقمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإرادات ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات

وقال أيضا أعداء الإنسان ثلاثة دثياه وشيطانه ونفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن

الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حب شهواتها محصورا فى سجن هواها مقهورا مغلولاً زمناه فى يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد . وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم . وقال أبو يحيى الوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس فى قلبه شجر الندامات . وقال وهيب بن الورد ما زاد على الحيز فهو شهوة ، وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتها للذل .

ويرى أن امرأة العزيز قالت ليوسف - عليه السلام - بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق فى يوم موكبته وكان يركب فى زهاء اثنى عشر ألف من عظماء مملكته سبحانه من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له إن الحرص والشهرة صبرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وأن الصبر والتقوى صبرا العبيد ملوكا . فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ وَبَيْنِ وَيُصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) وقال الجنيد أرقت ليلة فقممت إلى وردى فلم أجدها الحلاوة التى كنت أجدها فأردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس فخرجت فإذا رجل يلتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى قال يا أبا القاسم إلى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد ، فقال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لى قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال : فمتى يصير داء النفس دواها فقلت إذا خالفت النفس هواها فأقبل على نفسه فقال إسمعى فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعته ثم انصرف وما عرفته . وقال يزيد الرقاشى إليكم عنى الماء البارد فى الدنيا لعل لا أحرمه فى الآخرة . وقال رجل لعمر ابن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - متى أتكلم قال إذا اشتبهت الصمت : قال متى أصمت قال إذا انتهيت الكلام . وقال على - رضى الله عنه - من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات فى الدنيا .

الباب السابع والسبعون

فى الإيمان والنفاق

إعلم أن كمال الإيمان الذى هو التصديق بوحداية الله تعالى وبما جاءت به الرسل - صلوات الله عليهم - بزيادة الأعمال . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

بالله وأن يوم الآخر والملائكة والكتب والنبين ﴿ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ﴾ الآية . . . وقد قال تعالى : ﴿ هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وقال ﴿ الإيمان عريان ولباسه التقوى . . الحديث . وقال ﴿ الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق ، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والـ بك الخفى ف قوله ﴿ أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتضمن خان وإذا خاصم فجر . وفى بعض الروايات وإذا عاهد غدر . وقال - عليه السلام - أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها . وفى الحديث الشرك أخفى فى أمتى من ديب النمل على الصفا . وقال حذيفة - رضى الله عنه - كان الرجل يتكلم الكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقا إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات .

وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يروى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبى ﷺ فكأنوا إذ ذاك يخفونهم وهم اليوم يظهرهم وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكمال وهو خفى وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه فقد قيل للحسن البصرى يقولون : إنه لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو ملك المنافقون لا ستوحشتم فى الطريق : وقال هو أو غيره لو نبئت للمنافقين أذئاب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا وسمع ابن عمر - رضى الله عنه - رجلا يتعرض للحجاج فقال أرايت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه فقال لا ، فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ﷺ من كان ذا لسانين فى الدنيا جعله الله ذا لسانين فى الآخرة . وقال أيضا ﷺ شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، وقيل للحسن إن قوما يقولون إننا لا نخاف النفاق فقال والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلى من تلال الأرض ذهابا ، وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة - رضى الله عنه - إنى أخاف أن أكون منافقا فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد آمن من النفاق وقال ابن أبى مليكة أدرت ثلاثين ومائة ، وفى رواية خمسين ومائة من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخافون النفاق .

وروى أن رسول الله ﷺ كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثر الشاء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يا رسول الله هو هذا الرجل الذى وصفناه ، فقال ﷺ أرى على وجهه سقعة من الشيطان فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم ، فقال النبى ﷺ نشدتك الله

هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ، فقال اللهم نعم ، فقال ﷺ فى دعائه اللهم إنى أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم فقبل له أتخاف يا رسول الله ، فقال وما يؤمنى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وبذا نهم من الله ما لم تكونوا تهتسبون ﴾ قيل فى التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت فى كفة السينات . وقال سرى السقطى لو أن إنسانا دخل بسنانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك يا ولى الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا فى يديها . فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفى وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر فى المنافقين . وقال أبو سليمان الدار إنى سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر يقتلى ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزيم للخلق عند خروج ووحى فكففت وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكمال وصفاته لا أصله ، فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويخلق بالكافرين ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار والثانى يفضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين .

الباب الثامن والسبعون

فى النهى عن الغيبة والنميمة

أما الغيبة فقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها بأكل لحم الميتة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَهَبْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِمَّا كَفَّرَ بِهِ ﴾ وقال - عليه السلام - كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه والغيبة تناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم . وقال أبو برزة قال - عليه السلام - لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تتأجسوا ولا تدابروا ولا يغترب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا . وعن جابر وأبى سعيد قالا قال رسول الله ﷺ : إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وأن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه . وقال أنس قال قال رسول الله ﷺ : مررت ليلة أسرى بى على أفوام بخمشون وجوههم بأظافرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم . وقال سليمان بن جابر أنبت النبى - عليه الصلاة والسلام - فقلت علمنى خيرا أنتفع به ، فقال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تصب من دلوك فى إناء المستقى وأن تلقى أخاك ييشر حسن وإن أدبر فلا تغتبه .

وقال البراء خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العوانق فى بيوتهن فقال : يا معشر من آمن

... ولم يؤمن بقلبه لا نغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته .

• قبل أوحى الله إلى موسى - عليه السلام - : من مات ثانيا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة .
• مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار . وقال أنس أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم القدر لا يفترون أحد حتى آذن له فصار الناس حتى إذا أمسوا جعل الرجل يجيء فيقول يا رسول الله طامت صائما فأذن لي لأفطر فيأذن له والربل حني جاء رجل فقال يا رسول الله فأتان من طمنا صائمين وأنهما يستحبان أن يأتينك فأذن لهما أن يفطرا فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده .
• من عنه ثم عاوده فقال إنهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحوم الناس إذهب .
• هما إن كانتا صائمتين أن يستقيتا فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاهما فقامتا كل واحدة منهما مائة من دم فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار ، وفي رواية أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا ، فقال ﷺ اتزنى بهما فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدر فقال لإحداهما قبش فقامت من فيج وهم وصديد حتى ملأت القدر وقال للأخرى قبش فقامت كذلك فقال إن هاتين صائمتا عما أحل الله لهما وأنظرتا على ما حرم الله عليهما جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تاكلان لحوم الناس .

وقال أنس خطبنا رسول الله ﷺ فذكر الربا وعظم شأنه فقال إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأرى الربا عرض الرجل المسلم .

وأما النسيئة فهي خصلة نسيئة قال الله تعالى : ﴿ هَٰذَا مَثَلٌ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ثم قال : ﴿ عَثَرَ بعد ذلك زَيْنِمْ ﴾ (٢) ، قال عبد الله بن المبارك الزينيم ولد الزنا الذي لا يكتفم الحديث ومشي بالنسيئة .
• ١٠ . أنه ولد زنا استتباطا من قوله عز وجل : ﴿ عَثَرَ بعد ذلك زَيْنِمْ ﴾ (٣) . والزينيم هو الموطأ .
• وقال تعالى : ﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمْزَةً ﴾ (٤) فيل الهمزة النمام ، وقال تعالى ﴿ حَمَلَةٌ المحط ﴾ (٥) قيل أنها كانت ثمانية حمالة للحديث ، قال تعالى : ﴿ لَخَاتَمَتُهُمَا قَلَمٌ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ مَا ﴾ (٦) قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيغان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون ، وقد قال ﷺ : لا يدخل الجنة ثمام (٧) . وفي حديث آخر لا يدخل الجنة فئات والقنات هو النمام . وقال أبو هريرة

(١) سورة الفيم . (٢) آية (١٣) سورة القلم .

(٣) الآية السابقة . (٤) آية (١) سورة الهمة .

(٥) آية (٤) سورة المد . (٦) آية (١٠) سورة التحريم .

(٧) صحيح مسلم في الإيمان (١٠٥) .

قال رسول الله ﷺ أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطنون أكفانا الذين يأنفون وبؤفون وأن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة المترفون بين الإخوان الملتصمون للبراء العثرات وقال ﷺ ألا أخبركم بشرا راكم قالوا بلى قال المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأجيبة الباغون للبراء العيب . وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ من أشاع على مسلم كلمة لبشينة بها بغير حق شاته الله بها في النار يوم القيامة .

وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ : « أبما رجل أشاع على رجل كلمة وهو برئ لبشينة بها في الدنيا كان حقا على الله أن يشينه بها يوم القيامة في النار » (١) . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : من شهد على مسلم بشهادة لبس لها بأهل فليتبوا مقعده من النار ويقال أن ثلث عذاب القبر من النسيمة ، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ إن الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعد من دخلني . فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس : لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قنات وهو النمام ولا ديوت ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول على الله إن لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به .

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط فاستقى موسى - عليه السلام - مرات . فما سقوا فأوحى الله تعالى إليه أني لا أستجيب لك ولن معك وفيكم تمام قد أصر على النسيمة ، فقال موسى يارب من هو دلتى عليه حتى أخرجه من بيتنا قال يا موسى أنهاكم عن النسيمة وأكون ثماما فتأبوا جميعا فسقوا . ويقال أنبج رجل حكيما سبعمئة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال إني جئت لك للذي أتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أنقل منها وعن الأرض وما أوسع منها وعن الصخر وما أفسى منه وعن النار وما أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن البنيم وما أذل منه فقال له الحكيم البهتان على البرئ أنقل من السموات والحق أوسع من الأرض والقلب القانع أغنى من البحر والحرص والحسد أحر من النار والحاجة إلى الغريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أفسى من الحجر والنمام إذا بان أمره أذل من لبنيم .

وما أحسن قول الشاعر :

من غم في الناس لم تؤمن عفاريه • • • على الصديق ولم تؤمن أناعبه
كالسبل بالليل لا يدري به أحد • • • من أين جاء ولا من أين بانبه
الويل للعهد منه كيف ينفضه • • • والويل للود منه كيف ينعبه

وفول الآخر :

يسمى عليك كما يسمى إليك فلا ** نأمن غوائل ذى وجهين كيد

الباب التاسع والسبعون

فى بيان عداوة الشيطان

قال ﷺ : فى القلب لسان لمة من الملك لإبعاد الخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو لإبعاد بالشر وتكليب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ الآية . . وقال الحسن إنما هما همان بجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده ، وقال جابر بن عبيدة العدوى شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجده فى صدرى من الوسوسة فقال إنما ذلك مثل البيت الذى يمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عاجلوه ولا مضوا وتركوه يعنى إن القلب الخالى عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ مَلْطَانٌ ﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك لا يدخله الشيطان وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ وهو إشارة إلى أن الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ، ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي ﷺ يا رسول الله حال الشيطان بينى وبين صلاتى وقرأتى فقال ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسنه فتعوذ بالله منه وانفل عن يشارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهب الله عني .

وفى الخبر أن للوسوء شيطانا يقال له الولهان فاستعبدوا بالله منه ، ولا يمحوا وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به لأنه إذا خطر فى القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به يجوز أيضا أن يكون مجالا للشيطان وذكر الله وهو الذى يؤمن جانيه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج الشيء إلا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبلى عن الحول والقوة وهو معنى قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتفنون الغالب عليهم ذكر الله تعالى وإنما الشيطان بطوف عليهم فى أوقات الفلوات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَدْبَسْتُمْ نَفْسًا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وقال مجاهد فى معنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ قال هو منبسط على القلب فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى

ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى : ﴿ اسْتَوْخِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَإِنَّمَا هُمْ ذِكْرُ اللَّهِ ﴾ وقال أنس قال رسول الله ﷺ : إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن هو ذكر الله تعالى خنس وإن نسى الله تعالى النقم قلبه ، وقال ابن وضاح فى حديث ذكره إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال بأبى وجهه وجه من لا يفلح وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية فى لحمه ودمه ومحبة بالقلب من جوانبه .

ولذلك قال ﷺ : إن الشيطان بجري من ابن آدم مجرى الدم فضيخوا مجاريه بالجوع وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه ، قال الله تعالى إخبارا عن إبليس : ﴿ لَا تَعْدُنْ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ثم لا تبهم من بين أيديهم وبين خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم . وقال ﷺ : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرفة فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتترك دينك ودين آبائك فعصاه وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك وسماحك فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنتكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد ، وقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

الباب الثامنون

فى بيان المحبة ومحاسبة النفس

قال سفيان المحبة اتباع رسول الله ﷺ وقال غيره دوام الذكر وقال غيره إثارة المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء فى الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب فاهل للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بمعرض فإذا زال العوض زالت المحبة ، وقال ذو النون فل لمن أظهر حب الله إحدرك أن تذلل لغبر الله . وقبل للشبلى رحمه الله صف لنا العارف والمحبة فقال العارف إن تكلم هلك والمحبة إن سكنت هلك وأنشد الشبلى حمة الله :

يا أيها السيد الكريم ** حبك بين الحشا مفيم

بارافع السنوم عن جفونى ** أنت بماء مريى عليهم

وقالت رابعة العدة به ما مراءى عد حبيبتنا ففالت خادعة لها حسنا معنا ولكن الدنيا

فطمعنا عنه ، وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه السلام - إنني إذا إطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي ، وقبل تكلم سمعته يوما في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل يثقل بمنفاره الأرض حتى سال الدم منه فمات ، وقال إبراهيم بن أدهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأنستني بذكرك وفرغتنى للتفكير في عظمك ، وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طامش والأحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش .

وأما محاسبة النفس فقد أمر الله بها بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَقَرُّوْا نَفْسًا مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ ﴾ (١) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر - رضي الله تعالى عنه - حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عافيته فإن كان رشدا فامضه وإن كان غبا فأنه عنه وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات منها ساعة يحاسب فيها نفسه قال تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ تُقْلِحُونَ ﴾ (٢) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي ﷺ إنني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا بِهِمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شركه والشريك بآن يحاسبان بعد العمل .

وروى عن عائشة - رضي الله عنها - أن أبا بكر - رضوان الله عليه - قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز على من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ، وحدث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدفة لله تعالى ندما ورجاء للمعرض مما فات ، وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقبل له يا أبا يوسف قد كان في بيتك وغلما نك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكرو . وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم

(١) آية (١٨) سورة الخشر .

(٢) آية (٣١) سورة النور .

(٣) آية (٢٠١) سورة الأعراف .

القيام على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء بعينه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك هذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء ف يرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله .

وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول ويبنى وبينه جدار وهو في الحائط عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتقين الله أو لبعذبتك . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (١) قال لا يلقى المؤمن ألا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشرتي والفاجر يعضى فدما لا يعاقب نفسه ، وقال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت حاصبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له فائدا وهذا من معاتبة النفس ، وقال ميمون بن مهران التفتي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج من سلاسلها وأغللها فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدني فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا فلت فأنت في الأمانة فاعمل . وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ انظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه فما زال يقول حتى أبكاني وحكي صاحب للأحنف بن فيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان بجيء إلى المصباح فبضع فيه إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

الباب الحادي والثمانون

في بيان تلبيس الحق بالباطل

قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار : يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الشياطين على الأبدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه إن أحسن أحدهم قال يقنبل منى وإن أساء قال يغفر لى فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم

(١) آية (٢) سورة القيامة .

وروى أن السلف كانوا يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعززون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

الباب الثالث والثمانون

في فضل صلاة الليل

أما من الآيات فتقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ (١) الآية . . . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ الآية . . . وقوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ قبل هي قيام الليل يستعان بالصبر على مجاهدة النفس .

ومن الأخبار : قوله ﷺ « يعقد الشيطان على فانية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن ترخصاً انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان (٢) . وفي الخبر أنه ذكر عند رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال ذلك رجل بال الشيطان في أذنه . وفي الخبر أن للشيطان سموطا ولعوقا وذوروا فإذا أسعط العبد ساء خلفه وإذا ألغقه ذرب لسانه بالشئ وإذا ذوره نام الليل حتى يصبح . وقال ﷺ : « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولو أن أشق على أمتي لفرضتها عليهم » (٣) . وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال : إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه ، وفي رواية يسأل الله خيرا من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة . وقال المغيرة بن شعبه قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماء فقبل له أما قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون عبدا شكورا . ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب المزيد . قال تعالى : ﴿ تَنۢنٰ شُكْرُكُمْ لِأَنۢ يُزِيدَكُمۡ ﴾ (٤) وقال ﷺ : يا أبا هريرة أنريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت نريد رضا ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بينك يكن نور بينك في السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا . وقال ﷺ : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم فإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب ومطرودة للداء عن

(١) آية (٢٠) سورة المزمل .

(٢) (صحيح) البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) .

(٣) (ضعيف) تحف السادة ١٨٥ / ٥ ، وضعيف الجامع (٣١٣٧) .

(٤) آية (٧) سورة إبراهيم .

الجسد ومنهاة عن الإثم (١) وقال ﷺ : ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه . وقال ﷺ لأبي ذر : لو أردت سفرا أعددت له عدة قال نعم قال فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبتك يا أبا ذر عما تنفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي أنت وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظائم الأمور ونصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تغولها أو كلمة شر تسكت عنها .

وروى أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ مضاجعهم وهذأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول يارب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : إذا كان ذلك فأذنوني فاتاة فاستمع فلما أصبح قال يافلان هلا سألت الله الجنة قال يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل - عليه السلام - وقال أخبر فلانا أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة . ويروى أن جبرائيل - عليه السلام - قال للنبي ﷺ : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل فأخبره النبي ﷺ بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل قال نافع كان يصلي بالليل ثم يقول يا نافع أسحرنا فأفوك لا فيقوم لصلاته ثم يقوك يا نافع أسحرنا فيقول نعم فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال علي بن أبي طالب شيع يحيى بن زكريا - عليهما السلام - ليلة من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى أوجدت دارا خيرا لك من دارى أم وجدت جوارا خيرا لك من جوارى فوعزنى وجلالى يا يحيى لو اطلعت على الفردوس إطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك إشتياقا ، ولو اطلعت إلى جهنم إطلاعه لذاب شحمك وليكيت الصديد بعد الدموع وليست الجلد بعد المسوح . وقال رسول الله ﷺ رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء وقال ﷺ : رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبت نضحت في وجهه الماء . وقال ﷺ : أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل . قبل كان الإمام البخاري - رضى الله عنه - كثيرا ما يمثل بهذين البيتين :

اغتنم في الفراغ فضل ركوع * * * فعسى أن يكون موكب بغيته

كم صحيح رأيت من غير سم * * * خرجت نفسه الصحبة فلتة

(١) (ضعيف) الترمذي (٣٥٤٩) ، وضعيف الجامع (٣٧٨٩) .

الباب الرابع والثمانون

فى عقوبة علماء الدنيا

ولعل يعلماء الدنيا علماء سوء الذين فسد بهم من العلم التعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمزلة عند أهلها قال ﷺ : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، وعنه أنه قال لا يكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا . وقال ﷺ : العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم فى القلب فذلك العلم النافع . وقال ﷺ : يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق . وقال ﷺ : لا تتعلموا العلم لنباهوا به العلماء وتمازوا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو فى النار . وقال ﷺ من كتم علما عنده ألجمه الله بلجام من نار . وقال ﷺ : لأننا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقبل وما ذلك فقال من الأئمة المضلين . وقال ﷺ : من ازداد علما ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعدا . وقال عيسى عليه السلام - إلى متى تصفون الطريق للمدجلين وأنتم مقيمون مع المتحدين . فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد لو لسعادة الأبد وإنه بالخوض فى العلم فد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة وقال عمر - رضى الله عنه - إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المناقاة العليم قالوا وكيف يكون منافقا علما قال عليهم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله لا تكون ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجزى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة - رضى الله عنه - أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة له وقبل لإبراهيم بن عيينة أى الناس أطول للماء قال فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكرك وإنما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد الرجال أربعة رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فانيعوه ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيفظوه ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسرشد فأرشدوه ورجل لا يدري ولا يدري أنه يدري فذلك جاهل فأرفضوه . وقال سفيان الثوري رحمه الله يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضل بن عياض رحمه الله إني لأرحم ثلاثة : عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا وقال الحسن عقوبة العلماء موت القلب وموت لقلب طلب الدنيا بعلم الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى * * * ومن يشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه * * * بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال ﷺ : إن العالم ليعذب عذابا يطيف به أهل النار استعظاما لشدة عذابه أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤنى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا أتبه وأنهى عن الشر وأتبه وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الْعَرْشِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) لأنهم جحدوا بعد العلم وجعل اليهود شرا من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدا ولا قالوا أنه ثالث ثلاثة إلا لأنهم أنكروا بعد المعرفة إذا قال الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وقال تعالى فى قصة بلعام بن باعوراء : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْتَلَعَ مِنْهَا قَائِمَةً الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٢) حتى قال فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات وقال عيسى عليه السلام - مثل علماء سوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء بخلص إلى الزرع .

الباب الخامس والثمانون

فى فضل حسن الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمونه لديه : ﴿ وَأَنْتَ لَقِنَى خَلْقَ عَظِيمٍ ﴾ (٣) وقالت عائشة - رضى الله عنها - كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن . وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلِينَ ﴾ ثم قال ﷺ هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال ﷺ : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٤) وقال ﷺ : أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق . وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأتاه من قبل يعنيه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين قال حسن الخلق ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين فالتفت إليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب وقيل يا رسول الله ما الشؤم قال سوء الخلق . وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصنى فقال اتق الله حيث كنت قال زدنى قال أتبع السنة الحسنة تحبها قال زدنى قال خالى الناس بخلق حسن . وسئل - عليه السلام - أى الأعمال أفضل قال خلق حسن . وقال ﷺ ما حسن الله خلق عبدا وخلفه

(٢) آية (١٧٥) سورة الأعراف .

(٤) البيهقي ١٠ / ١٩٢ .

(١) آية (١٢٥) سورة النساء

(٣) آية (٤) سورة القلم .

فيقطع النار . وقال الفضيل قيل لرسول الله ﷺ إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هي من أهل النار . وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء » (١) . ولما خلق الله الإيمان قال اللهم فوني فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال اللهم فوني فقواه بالبخل وسوء الخلق وقال ﷺ إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ألا فزينا دينكم بهما . وقال - عليه السلام - حسن الخلق خلق الله الأعظم . وقيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماننا قال أحسنهم خلقا . وقال ﷺ إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق . وقال أيضا ﷺ سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل . وعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك .

وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا . وعن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي . وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء فيقول اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال كرم المؤمن دينه وحسبه حسن خلقه ومروءته عقله . وعن أسامة بن شريك قال شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ يقولون ما خير ما أعطى العبد قال خلق حسن . وقال ﷺ إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن فلا تغفلوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله وحلم يكف به السفه أو خلق يعيش به بين الناس . وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . وقيل فيم التجميل ؟ قال في لطف الكلام وإظهار البشر والابتسام فمن لقي الناس بالإحسان وعاملهم بالأخلاق الحسان فهو الذي يخف عليهم جانبهم ويحمد إخوانه كما قال

إذا حسوبت خصال الخير أجمعها ** فضلا وعاملت كل الناس بالحسن
لم تعدم الخير من ذي العرش تحرزه ** والشكر من خلقه في السر والعلن

الباب السادس والثمانون

في الضحك والبكاء واللباس

قال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تفتخرون ﴾ أي القرآن « تعجبون » منه تكذبا « وتضحكون » منه استهزاء مع كونه من عند الله تعالى « ولا تكون » خوفاً وانزعاجاً لما فيه من الوعيد « وأنتم سامدون » لا هون غافلون عما يطلب منكم . قال لما نزلت هذه الآية فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يبتسم . وفي لفظ فما روى النبي ﷺ ضاحكا ولا مبتسما حتى ذهب من الدنيا . وعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فوقف وسلم عليهم ثم قال أكثروا ذكر هادم اللذات ثم خرج بعد ذلك مرة أخرى فإذا قوم يضحكون فقال أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . ولما أراد الخضر أن يفارق موسى عليهما السلام قال له عظمي قال يا موسى إياك واللجاجة ولا تمشي بغير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وإياك على خطيبتك . وقال ﷺ كثرة الضحك تميت القلب . وقال ﷺ من ضحك لشبابه بكى لهرمه ومن ضحك لغناه بكى لفقره ومن ضحك لحياته بكى لموته وقال ﷺ اقرأوا القرآن فإن لم تتكروا فتابوا . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلا ﴾ أي في الدنيا « وليبكوا كثيرا » في الآخرة « جزاء بما كانوا يكسبون » وقال أيضا يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار ومن مسرور ومن ورائه الموت . ومر - رضي الله عنه - بشاب يضحك فقال له يا بني هل جزت على الصراط قال لا قال هل تبين لك أنك تصير إلى الجنة قال لا قال فغيم الضحك فما روى الشاب ضاحكا بعد ذلك . وعن ابن عباس رضي الله عنهما من أذنبت ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي . ومدح الله تعالى أقواما بالبكاء فقال تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يَكُونُ ﴾ وعن الأوزاعي في قوله تعالى ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال الصغيرة التيسم والكبيرة الفقهة وقال ﷺ كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثا عينا بكت من خشية الله وعينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت في سبيل الله تعالى . ويقال ثلاثة أشياء تقسى القلب الضحك من غير عجب والأكل من غير جوع والكلام في غير حاجة وكان رسول الله ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك وكان يعجبه الثياب الخضر وكان أكثر لباسه البياض ويقول ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم . وكان له ﷺ قباء سندس فلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه وكان ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الأزار فوق ذلك إلى نصف الساق ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت أم سلمة بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود فقال كسوته فقالت ما رأيت شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده . وكان ﷺ إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس وإذا

نزع ثوبه أخرجه من مياسره وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول ما من مسلم يكسر مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله الا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واره حيا وميتا . وكانت له عبادَةٌ تفرش له حيشما تنقل تنشئ طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره .

الباب السابع والثمانون

في فضل القرآن وفضل العلم والعلماء

قال عليه السلام : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر من عظمة الله تعالى ^(١) . وقال عليه السلام : ما من شفيح أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن . وقال عليه السلام : أفضل عيادة أمتي تلاوة القرآن وقال عليه السلام : خيركم من تعلم العلم وعلمه وقال عليه السلام : إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد فليلبس رسول الله وما جلاؤها فقال تلاوة القرآن وذكر الموت ، وقال الفضيل بن عياض حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلتغو مع من يلبغو تعظيما لحق القرآن . قال أيضا من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليته ختم له بطابع الشهداء .

وأما فضل العلم والعلماء فالأحاديث الواردة في ذلك كثيرة قال عليه السلام : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشد . وقال عليه السلام : العلماء ورثة الأنبياء . ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال عليه السلام : أفضل الناس المؤمن العالم الذي إذا احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه . وقال عليه السلام : أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل . وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيا ففهم على ما جاءت به الرسل . وقال عليه السلام : « لموت قبيلة أسير من موت عالم » ^(٢) وقال عليه السلام : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ^(٣) . وقال عليه السلام : لا يشيع عالم من علم حتى يكون متساه الجنة . وقال عليه السلام : هلاك أمتي في شينين ترك العلم وجمع المال . وقال عليه السلام : كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامسة أي مبغضا فتهلك . وقال عليه السلام : آفة العلم الخيلاء . ومن أمثال الحكماء من طلب العلم للرياسة فقد عدم التوفيق والسياسة ، قال تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » وقال الشافعي - رضي الله عنه - من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه جل مقداره ومن تعلم الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه

(١) الخاف السادة ١ / ٦٣ .

(٢) (موضوع) الخاف السادة ١ / ٤١ ، وضميف الجامع (٦٤٤٧) .

ومن تعلم الغريب رق طبعه ومن لم يعز نفسه لم ينفعه علمه . وقال الحسن بن علي - رضي الله عنهما - من أكثر مجالسة العلماء أطلق عقل لسانه وفتق مزاق ذهنه وسره ما وجد من الزيادة في نفسه وكانت له ولاية لما يعلم وإفادة لما تعلم . وقال عليه السلام : إذا رد الله عبدا حظه عليه العلم . وقال عليه السلام : لا فقر أشد من الجهل .

الباب الثامن والثمانون

في فضل الصلاة والزكاة

إعلم أن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي التي أعلى الأعلام فقال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقال عليه السلام : بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . الحديث . وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال تعالى : « فويل للمصليين ^(١) الذين هم عن صلاتهم ساهون » وتقدم الكلام على ذلك مستوفى ، وقال تعالى : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشروهم بآياتهم » . ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة .

(فائدة) يستحب أن يطلب لصدقته أتقيا الفقراء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة فإن ذلك يربو به المال . قال عليه السلام : لا تأكل إلا طعام نقي ولا يأكل طعامك إلا نقي . وذلك لأن النقي يستعين به على التقوى فتكون شريكا له في طاعته باعانتك إياه . وكان بعض العلماء يؤثر بالصدقة فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له لو عمت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل فقال لا هؤلاء قوم همهم الله سبحانه فإذا طرقتهم فافقه تشتت همه أحدهم فلا أرد همه واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطي ألفا من همته الدنيا فذكر هذا الكلام الجنيد فاستحسنه وقال هذا أولى من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بشرك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال اجعله بضاعتك ولا ترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك وكان هذا الرجل يقل لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يتاعونه وكان ابن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم فقيل له لو عمت فقال إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل وأن يخص ذوي العاهات لا سيما ذوي الأرحام والأقارب فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم ما لا يخص من الأجر كما مر في بابها وأن يخرج الصدقة سرا ليسلم من شوم الرياء ومن اذلال المعطى في الملا . قال عليه السلام : « صدقة السر تطفي غضب الرب » ^(١) . وذكر

(١) (صحيح) المعجم الصغير ٢ / ٩٦ ، وصحيح الجامع (٣٧٥٩) .

في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شحاله ما أعطت يمينه نعم إن كان في أظهر الصدقة خير كان كان يقنّدي به غيره فلا أنس إن سلم من الرياء وتجنب الامتنان كما قال تعالى : ﴿ لَا تَبْتَغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (١) فأنفة المعروف المنّ يبل يؤثر كتمانها ويستعمل نسيانها كما يجب على من صنع له معروف نشره ويتعين عليه شكره كما في الحديث لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

وما أحسن قول القائل :

يد المعروف غنم حيث كانت * * * تحملها كفور من شكور
ففى شكر الشكور لها جزاء * * * وعند الله ما كفر الكفور

الباب التاسع والثمانون

في بر الوالدين وحقوق الأولاد

لا يخفى أنه إذا تأكد من حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال ﷺ : « لن يجزى ولد والد له حتى يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه » (٢) . وقد قال ﷺ : بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله . وقد قال ﷺ : « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحدا فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحدا فواحد وإن ظلما وإن ظلما » (٣) . وقال ﷺ : أن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم . وقال ﷺ : بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أذنك فأذنك .

ويروى : أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام - يا موسى إنه من بر والديه وعنى كتيبه بارا ومن برنى وعنى والديه كتيبه عاقا . وقيل لما دخل يعقوب على يوسف - عليهما السلام - لم يقم له أبوحى الله إليه أتعظم أن تقوم لأبيك وعزتي وجلالى لا أخرجت من صلبك نيبا . وقال ﷺ : ما سمى أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانتا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء . وقال مالك بن ربيعة بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شيء

(١) سورة البقرة (٢٦٤) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) ضعيف (تحف السادة ٦ / ٣١٤ ، وضعيف الجامع (٥٤٢٧) .

أبرهما به بعد وفاتهما قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإتفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما . وقال ﷺ : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب وقال ﷺ : بر الوالدة على الولد على ضعفان . وقال ﷺ : دعوة الوالدة أسرع إجابة قيل يا رسول الله ولم ذلك قال هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط وسأله رجل فقال يا رسول الله من أبر فقال بر والدك فقال ليس له والدان فقال بر ولدك كما أن لو والدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق . وقال ﷺ : رحم الله والدا أعان ولده على بره أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال ﷺ : ساووا بين أولادكم فى العطية وقد قيل ولدك ربحانك تشمها سبعا وخادمك سبعا ثم هو عدوك أو شريكك . وقال أنس - رضى الله عنه - قال النبى ﷺ : الغلام يعنى عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ تسع سنين غزل فراشه فإذا بلغ عشرة سنين ضرب على الصلاة فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة . قال ﷺ : من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه . وقال - عليه السلام - كل غلام رهين أو رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه وقال قتادة إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على نافوخ الصبي حتى يسيل منه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده فقال هل دعوت عليه قال نعم قال أنت أفسدته ويستحب الفرق بالولد . رأى الأقرع بن حابس النبى ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحد منهم فقال - عليه السلام - إن من لا يرحم لا يرحم . وقالت عائشة - رضى الله عنها - قال لى رسول الله ﷺ يوما اغسل وجه أسامة فجعلت اغسله وأنا أنفة فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قبله ثم قال قد أحسن بنا إذ لم تكن له جارية . وتعثر الحسن والنبي ﷺ على منبره فنزل فحملة وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . وقال عبد الله بن شداد بينما رسول الله ﷺ بالناس لما جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر فلما قضى صلاته قالوا قد أطلت السجود يا رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد حدث أمر فقال أن ابني قد أرتحلنى فكثرت أن أعجله حتى يقضى حاجته . وفى ذلك فوائد أحداها الغرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا وفيه الرفق بالولد والبر وتعليم لأمة . وقال ﷺ : « ريع الولد من ريع الجنة » (١) . وقال يزيد ابن معاوية أرسل أبى إلى الأخنف بن قيس فلما وصل إليه قال له يا أبا بدر ما نقول فى الولد قال يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسماة ظلية وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم وإن غضبوا فأرضهم بمنحوك ودهم ويحبوك

(١) (ضعيف) (تحف السادة ٦ / ٣٢٠ ، وضعيف الجامع (٣١٤٥) .

جهدهم ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا فيملوا حياتك ويدوا وفانك ويكرهوا قربك فقال له معاوية الله أنت يا أحف لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا وغظا على يزيد فلما خرج الأحف من عنده رضى عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب فأرسل يزيد إلى الأحف بمائة ألف درهم ومائة ثوب ففاسمه إياها على الشطر .

الباب التاسعون

فى حقوق الجوار والأحسن للمساكين

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي ﷺ : « الجيران ثلاثة جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك » (١) فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار . وقد قال ﷺ أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما . وقال النبي ﷺ مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . وقال ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . وقال ﷺ : لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائفه وقال ﷺ أول خصمين يوم القيامة جاران . وقال عليه السلام : إذا أنت رميت كلب جارك فقد أذيت .

ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود - رضى الله عنه - فقال له إن لى جارا يؤذنى ويشتمنى ويضيق على فقال اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . وقبل لرسول الله ﷺ إن فلانة نصوم النهار وتقوم الليل ونؤذى جيرانها فقال ﷺ هي فى النار وجاء رجلا إليه - عليه السلام - بشكو جاره فقال له النبي ﷺ إصبر ثم قال له فى الثالثة والرابعة أطرح متاعك فى الطريق فال فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون لعنه الله فجاء جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود .

وروى الزهرى أن رجلا أتى النبي - عليه الصلاة والسلام - فجعل يشكو جاره فأمر النبي ﷺ أن ينادى على باب المسجد ألا إن أربعين دارا جار فال الزهرى أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأوما إلى أربع جهات . وقال - عليه السلام - البمن والشؤم فى المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلفها ، وشؤمها غلاء مهرها

وعسر نكاحها وسوء خلقها ، ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله ، وشؤمه ضيقه وسوء جوار أهله ، ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعوبته وسوء خلقه .

واعلم أنه ليس حق الجوار كفى الأذى فقط بل احتمال الأذى أيضا فإن الجار إذا كف آذاه فليس فى ذلك فضاء حق ولا يكفى احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة فيقول يارب سل هذا لم تمنعنى معروفه وسد بابى دونى وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره فقيل له لو اقتنيت هرا فقال أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسى .

وجملة حق الجار أن يبدأ بالسلام ولا بطيل معه الكلام ولا يكثر عليه الشؤال ويعوده فى المرض ويعزيه فى المصيبة ويقوم معه فى العزاء ويهتبه فى الفرح ويظهر الشركة فى السرور معه ويصنف عن زلانه ولا ينطلع من السطح إلى عوراته ولا يضيق طريقه فى وضع الجذع على جداره ولا يصب الماء فى ميزابه ولا يطرح التراب فى فئانه ولا يضيق طريقه إلى الدار ولا ينبعه النظر فيما يحمله إلى داره ويستتر ما يتكشف له من عوراته ويتعش من صرخته إذا نابتة نابتة ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ولا يسمع عليه كلاما ويغض بصره عن حرمة ولا يديم النظر إلى خادمته ويتلطف بولده فى كلمته ويرشده إلى ما يجبهله من أمر دينه ودنياه هذا إلى جملة الحقوق التى لعامة المسلمين . وقد قال ﷺ أندرون ما حق الجار إن استعان بك أعتة وإن استنصرك نصرتة وإن استقرضك أقرضته وإن افتقر عدت عليه وإن مرض عدته وإن مات تبع جنازته وإن أصابه خير هنأته وإن أصابه مصيبة عزيتة ولا تسنطل عليه يالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذنه وإذا اشترت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك فيغيظ بها ولده ولا تؤذنه بقنار فدرك إلا أن تغرف له منها ثم قال أندرون ما حق الجار والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله . .

هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ . قال مجاهد كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت الشاة فايدا بجارنا اليهودى حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول فى هذا فقال إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشبنا أنه سيورثه . وقال هشام كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك . وقال أبو ذر - رضى الله عنه - أوصانى خليلى ﷺ وقال إذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك فاغرف لهم منها .

(١) (ضعيف) الخلية ٥ / ٢٠٧ ، وضعيف الجامع (٢٦٧٤) .

الباب الواحد والتسعون

في عقوبة شارب الخمر

فد أنزل الله في الخمر ثلاث آيات الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (١) الآية . . فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر - رضى الله عنه - فأخذ بلحى أمير وشج بها رأس عبد الرحمن ابن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر فبلغ رسول الله ﷺ فخرج مغضبا يجرد رداءه فرفع شيئا كان في يده فضربه به فقال أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ (٢) الآية . . فقال عمر - رضى الله عنه - انتهينا انتهينا .

ومن الأخبار المتفق على تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن مخمر» (٣) وقوله ﷺ أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال ، وقوله ﷺ ما من قوم اجتمعوا على مسكر في الدنيا إلا جمعهم الله في النار فيقبل بعضهم على بعض يتلأومون بقول أحدهم للأخر يا فلان لا جزاك الله عني خبيرا فانت أوردتني هذا المورد ليقول له الآخر مثل ذلك .

وعنه ﷺ أنه قال من شرب الخمر في الدنيا سفاه الله من سم الأساود شربة ينساقط منها لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها فإذا شربها ينساقط لحمه وجلده ويتأذى به أهل النار إلا أن شاربها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها شركاء في إثمها لا يقبل الله منهم صلاة ولا صوما ولا حجا حتى يتوبوا فإن ماتوا قبل التوبة كان حقا على الله أن يسفيهم بكل جرعة شربوها في الدنيا من صديد جهنم وأن كل مسكر حرام وكل خمر حرام .

ذكر ابن أبي الدنيا أنه مر بسكران وهو يبول في يده ويغسل به يده كهيئة المتوضا ويقول الحمد لله الذي جعل الإسلام نورا والماء طهورا .

وعن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في حرارتك فقال ما أنا بأخذ جهلى يبدى فأدخله في جوفى ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسى سفيهم .

(١) آية (٢١٩) سورة البقرة .

(٢) آية (٤٣) سورة النساء .

(٣) آية (٩١) سورة المائدة .

(٤) (صحيح) ابن ماجه (٣٣٧٦) ، وصحيح الجامع (٧٦٧٣) .

وروى البيهقي عن ابن عمر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال اجتنبوا أم الخبائث فإنه كان رجل من كان فيكم يتعبد ويمتزل الناس فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما أن تدعوك لشهادة فدخل فطفت كلما دخل بابا أغلقته دونه حتى إذا أقضى إلى امرأة وضيت جالسة وعندها غلام رباطية فيها خمر فقالت أنا لم ندعك لشهادة ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام أو تقع على أو تشرب كأسا من الخمر فإن أبيت صحت بك وفضحتك فلما رأى أنه لا بد له من ذلك قال اسقنى كأسا من الخمر فسقته قال زيدنى فلم يزل حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان في الخمر في صدر رجل أبدا ليوشكن أحدهما يخرج صاحبه .

وروى أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن آدم لما أميط إلى الأرض قالت الملائكة أى رب: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَلِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة فتنظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت قال فامبطا إلى الأرض فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءها فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشرار قال لا والله لا نشرك بالله أبدا . فذهبت عنهما ثم رجعت إليهما ومعهما صبي تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي فقالا لا والله . فقالت حتى تشربا هذه الخمرة فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أنافا قالت المرأة والله ما تركتما من شيء أبيتما على إلا فعلتما حين سكرتما ، فخبيرا عند ذلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا .

وروى عن أم سلمة - رضى الله عنهما - قالت اشتكت بنت لى فنبذت لها في كوز فدخل على رسول الله ﷺ وهو يغلى قال ما هذا يا أم سلمة فذكرت له أنى أداوى به ابنتى فقال ﷺ إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حرم عليها . وروى أن الله تعالى لما حرم الخمر سلب منها المنافع .

الباب الثاني والتسعون

في معراج النبى - صلى الله عليه وسلم -

روى البخارى عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا إذا أتانى آت فقد قال وسمعت يقول فشق ما بين هذه إلى هذه فقلت للجارود وهو إلى جنبى ما يعنى به قال من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبى ثم أنيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فمسل قلبى ثم حشى (ثم أعبد) ثم

المسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فينبجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم وقال ﷺ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه نبى عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وهو عند الله يوم الميزد كذلك تسميه الملائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة . وفي الخبر أن الله عز وجل في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار .

وفي حديث أنس - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال : « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام » (١) وقال ﷺ : إن الجحيم تسمر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسمر فيه . وقال كعب إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر . ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضا في يوم الجمعة فتقول سلام سلام يوم صالح . وقال ﷺ من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفاه فتنة القبر .

الباب الرابع والتسعون

في حق الزوجة على الزوج

حقوق الزوجات على الأزواج كثيرة منها حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحما لقصور عقولهن ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) وقال في تعظيم حقهن : ﴿ وَأَخْذُنَّ مِنْكُمْ مِثْقَالَ غَلِيظَةٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ وَالصَّاحِبُ بِالْجَنِّبِ ﴾ (٤) فيل هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه جعل يقول الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن ما لا يطيقون الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم يعني أسراء أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . وقال - عليه السلام - من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ومن صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثل ثواب أسية امرأة فرعون .

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعته الكلام ونهجره الواحدة منهن يوما إلى

الليل . وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال اتراجعيني بالكساء فقالت إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك فقال عمر خابت حفصة وخسرت إن راجعته ثم قال حفصة لا تغتري بابتة ابن أبي نحافة فإنها حب رسول الله ﷺ وخوفها من المراجعة .

وروي أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزجرنها أمها فقال - عليه الصلاة والسلام - دعيتها فإنهن أكثر من ذلك وجري بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر - رضي الله عنه - حكما واستشهده فقال لها رسول الله ﷺ تكلمين أو انكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال يا عدوة نفسها أو يقول غير الحق فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره فقال له النبي ﷺ لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده أنت الذي تزعم أنك نبي الله فنبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلما وكرما وكان يقول إني لأعرف غضبك من رضاك فقالت وكيف تعرفه قال إذا رضيت قلت لا وإله محمد وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم قالت صدقت إنما أهرج اسمك . ويقال إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - وكان يقول لها كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أنني لا أطلقك وكان يقول لنسائه لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها .

وقال أنس - رضي الله عنه - كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان ومنها أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة فهي التي تطيب قلوب النساء وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق حتى روي أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوما وسبقها في بعض الأيام فقال - عليه السلام - هذه بذك .

وفي الخبر أنه كان ﷺ من أفكه الناس مع نسائه . وقالت عائشة - رضي الله عنها - سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء فقال لي رسول الله ﷺ أتجيبين أن ترى لعبهم قالت قلت نعم فأرسل إليهم نجاهوا وقال رسول الله ﷺ بين البابين فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذفني على يده وجعلوا يلعبون وانظر رجلا رسول الله ﷺ يقول حسبك وأقول أسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال يا عائشة حسبك فقلت نعم فأشار إليهم فانصرفوا فقال رسول الله ﷺ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وأطفهم بأهله . وقال - عليه السلام - خيركم خيركم لنسائه وإنما خيركم لنسائي .

وقال عمر - رضي الله عنه - مع خشونته ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فإذا انعموا ما عنده وجد رجلا . وقال لقمان - رحمه الله - ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي وإذا كان في القوم وجد رجلا .

(١) (موضوع) الحاكم ٥٩ / ٢ ، وضعيف الجامع (٥٤٩) .

(٢) آية (١٩) سورة النساء .

(٣) آية (٢١) سورة النساء .

(٤) آية (٣٦) سورة النساء .

وفى تفسير الخبير المروى أن الله ينفذ الجعظرى الجواظ قيل هو الشديد على أهله المتكبر فى نفسه وهو أحد ما قيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ عتل ﴾ قيل العتل هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال - عليه السلام - لجابر هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك .

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت والله لقد كان ضحوكا إذا وليج ، سكيفا إذا خرج ، أكلا ما وجد ، غير مسائل عما فقد ، ومنها أن لا يتبسط فى الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيئته عندها بل يراعى الاعتدال فيه فلا بدع الهيبة والانقباض مهما ورأى منكراً ولا يفتج باب المساعدة على المنكرات البتة .

قال الحسن والله ما أصبح وجل يطيع امرأته فيما نهوى إلا كبه الله فى النار وقال عمر - رضى الله عنه - خالفوا النساء فإن خلفن البركة وقد قيل شاوروهن وخالفوهن . وقد قال - عليه السلام - تعس عبد الزوجة وإنما قال ذلك لأنه أطاعها هواها فهو عبدها وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال : ﴿ وَأَمْرُهُمْ قَلِيلٌ يُغَيِّرُ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ (١) إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيلاً فقال تعالى : ﴿ وَاللَّيْثُ سَبْطٌ لَّنَا الْبَابُ ﴾ (٢) .

قال الشافعى - رضى الله عنه - ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك المرأة والخادم والنبتى . وأراد به إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك يلينك وفظاظتك برفقك .

الباب الخامس والتسعون

فى حق الزوج على الزوجة

والقول الشافى فيه أن التكاح نوع رق فهى رقيقة فعلها طاعة الزوج مطلقاً فى كل ما طلبت منها فى نفسها عما لا معصية فيه .

وقد ورد فى تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة قال ﷺ : « إيماء امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » (٣) . وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها فى الأسفل فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن فى النزول إلى أبيها فقال ﷺ : أطيعى زوجك فماتت فاستأمرته فقال أطيعى زوجك فدفن أبوها فأرسل رسول الله ﷺ إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها . وقال ﷺ : إذا صلت المرأة خمسها

(١) آية (١١٩) سورة النساء .

(٢) آية (٢٥) سورة يوسف .

(٣) (ضعيف) ابن ماجه (١٨٥٤) ، وضعيف الجامع (٢٢٢٧) .

وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها . فأضاف الزوج إلى مباني الإسلام .

وذكر رسول الله ﷺ النسياء فقال حاملات والدايت مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما باتن إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة وقال ﷺ : اطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء فقلن لم يا رسول الله قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير يعنى الزوج المعاشر . وفى خبر آخر اطلعت فى الجنة فإذا أقل أهلها النساء فقلن أين النساء قال شغلن الأحمران الذهب والزعفران . يعنى الحلى ومصبغات الثياب . وقالت عائشة - رضى الله عنها - أتت فتاة إلى النبى ﷺ فقالت يا رسول الله إني فتاة أخطب فأكره التزويج فما حق الزوج على المرأة قال لو تكمن من فوقه إلى قدمه صديد فلحسته ما أدبت شكره قالت فلا أتزوج قال بلا تزوجى فإنه خير .

وقال ابن عباس أنت امرأة من خنعم إلى رسول الله ﷺ فقالت إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج قال إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهى على ظهر بعير لا تمتعه ومن حقه أن لا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه فإن فعلت ذلك كان الرزء عليها والأجر له ومن حقه أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه فإن فعلت جاءت وعطشت ولم يتقبل منها وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب . وقال ﷺ : لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها . وقال ﷺ : قرب من تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى قعر بيتها وإن صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى صحن دارها وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها . والمخدع بيت فى بيت . وذلك للستر . ولذلك قال - عليه السلام - المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وقال أيضاً للمرأة عشر عورات . فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة وأهمها أمران أحدهما الصيانة والستر والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً ، وهكذا كانت عادة النساء فى السلف كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو إيتني إياك وكسب الحرام فإنما نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف على السفر فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة فقالت زوجى منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقاً ولئى رب رزاق يذهب الأكال ويغنى الرزاق .

ومن الواجبات عليها أن لا تغرط فى ماله بل تحفظه عليه قال رسول الله ﷺ : لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فسادة فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الرزق .

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء

بنت خارجه الفزاري قالت لا يتبها عند التزويج إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فرائس لا تعرفينه وفريق لم تألفيه فكوني له أرضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له أمة يكن لك عبدا ولا تلحقى به فبقلاك ولا تباعدى عنه فينساك إن دنا منك فأفريق منه وإن نأى فأبعدى عنه واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك إلا طيبا ولا يسمع إلا حسنا ولا ينظر إلا جميلا .

- خذى العفو مني تستدعى مدنى ** ولا تنظني في سورتي حين أغضب
- ولا تنقريني نقر الدف مرة ** فلأنك لا ندبين كيف المغيب
- ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ** ويأبك قلبي والقلوب تقلب
- فلأني رأيت الحب في القلب والأذى ** إذا اجتمعما لم يلبث الحب يذهب

الباب السادس والتسعون

في فضل الجهاد

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج وقال آخر لا أبالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر للجهاد فضل مما قلت - فزجرهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيه فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل : ﴿ اجْعَلْتُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ الْغَيْرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

وعن عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - قال قعدنا نقرا من أصحاب رسول الله ﷺ : فخرج علينا فقرا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كثير مفتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) إلى آخرها . . فقراها علينا رسول الله ﷺ .

(١) آية (١٩) سورة التوبة .

(٢) آية (٢-١) سورة الصف .

وروى أن رجلا قال يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد قال لا أجده ثم قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ونصوم ولا تنظر فقال ومن يستطيع ذلك .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال قال مر رجل من أصحاب النبي ﷺ بشعب فيه عينه من ماء عذبة فقال لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ولن أفعل حتى أستاذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلته في بيته سبعين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة أغزوا في سبيل الله تعالى من قاتل في سبيل الله تعالى فوق ناقة وجبت له الجنة فإذا كان الصحابي الجليل لم يأذن له رسول الله ﷺ في العزلة مع اجتهاده في الطاعات وتعاطيه من الطيبات بل أرشده ﷺ إلى الجهاد فكيف يليق بنا تركه مع قلة طاعاتنا وكثرة سيئاتنا وتعاطينا ما جهل حله من الأقوات وفساد العزائم والنيات . وقال رسول الله ﷺ إن مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد : وقال رسول الله ﷺ : من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا وجبت له الجنة فعجب لهذا أبو سعيد الخدري فقال أعدنا على يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها للمجد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله قال الجهاد في سبيل الله (١).

الباب السابع والتسعون

في مكر الشيطان

قال رجل للحسن يا أبا سعيد أبنام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسرحتنا فإذا لا خلاص للمؤمن منه نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوته قال ﷺ إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره . وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول . وقال عيسى بن الحجاج قال لي شيطاني دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل المصفور قلت ولم ذاك تذييني بذكر الله تعالى . فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعنى الأبواب الظاهرة والطرق الخفية التي تنفضى إلى المعاصي الظاهرة وإنما يتعشرون في طرفه الغامضة فإنهم لا يهدون إليها فيحرسونها لأن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة وباب الملاذبة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا

(١) (صحيح) مسلم (١٨٨٤) .

يعين بصيرة وظلوع شمس مشرقة والعين البصيرة وهنا هي القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وستة رسوله ﷺ فيما يهتدى به إلى غوامض طرقه وإلا فطرقه كثيرة وغامضة .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن شماله ثم قال هذه سبيل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم نلا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ . وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذى يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصى الظاهرة فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذى لا يخفى إلا أن يضطر الأدمى إلى سلوكه وذلك كما روى عن النبى ﷺ أنه قال كان راهب فى بنى إسرائيل فعمد الشيطان إلى جارية فخنقتها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها إليه فأبى أن يقبلها فلم يزوالا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقارنتها ولم يزل به حتى واقمها فحملت منه فومسوس إليه وقال الآن تفتضح يأتبك أهلها فأقتلها فإن سألك فقل ماتت فقتلها ودفنها فأتى الشيطان أهلها فومسوس إليهم وألقى فى قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذى خنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها فأطعننى تنج وأخلصك منهم قال بماذا قال أسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان إني برى منك . فهو الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ كَمَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ .

وروى أن إبليس سأل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - ما قولك فيمن خلقتى كما اختار واستعملتني فيما اختار وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار أعدل في ذلك أم جار ؟ فنظر فى كلامه ثم قال يا هذا إن كان خلقتك لما تريد أنت فقد ظلمك وإن كان خلقتك لما يريد هو فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فاضمحل إلى أن صلو لا شيء ثم قال والله يا شافعى لقد أخرجت بمسألتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الرندقة .

وروى أيضا أن إبليس لعنه الله تمثل لعيسى ابن مريم - عليهما السلام - فقال له قل لا إله إلا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك أى لأن له تلييسات فى الخير كما أن له تلييسات فى الشر تنهاى وبها بهلك العباد والزهاد والأغنياء وأصناف الخلق إلا من حفظه الله ، اللهم احفظنا من مكايده حتى نلقاك مهتدين .

الباب الثامن والتسعون

فى بيان السماع

حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه . وقال الشافعى - رحمه الله - فى كتاب آداب القضاء أن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفیه ترد شهادته . وقال القاضى أبو طالب استماعه من المرأة التى ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعى - رحمه الله - بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعى - رضى الله عنه - صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه ترد شهادته . وقال وحكى عن الشافعى أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا عن القرآن . وقال الشافعى - رحمه الله - ويكره من جهة الخبر اللعب بالفرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهى ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل ما يلعب به الناس لأن اللعب ليس من صفة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك - رحمه الله - فقد نهى عن الغناء وقال إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان له ردها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده وأما أبو حنيفة - رضى الله عنه - فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك سائر أهل الكوفة سفيان الثورى وحماة وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضى أبو الطيب الطبرى .

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع عن جماعة فقال سمع من الصحابة عبد الله ابن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم . وقال قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى بإحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة وهى الأيام المحدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال وكان لعتاء جاريان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما . قال وفيل لأبى الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيح وسرى السقطى وذو النون يستمعون فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازته وسعه من هو خير منى فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكر اللهو واللعب مع السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة حسن الوجه مع الضباقة وحسن القول مع الديانة وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت فى بعض الكتب

هذا محكيا بعينه عن الحارث للحاسبي وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره .

قال وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيها سماع وحكى غير واحد أنه قال اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر بن داود وابن مجاهد في نظرهم فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي فقال أبو القاسم ابن بنت منيع أما أحمد فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحُبَازة فقال مجاهد لابن داود دعني أنت من أبيك وقال لا بن بنت منيع دعني أنت من جلك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهر حرام فقال ابن داود لا قال فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده قال لا قال فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أبحرم عليه قال أنا لم أفر لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين .

قال وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكربه وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكربه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال رأيت أبا العباس الخضر - عليه السلام - فقلت له ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا فقال هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء .

وحكى عن مشاد الدينوري أنه قال رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا فقال ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن .

وحكى عن ظاهر بن بلال الهمداني الوراق وكان من أهل العلم أنه قال كنت معتكفا في جامع جدة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون فأنكرت ذلك بقلبي وقلت في بيت من بيوت الله يقولون الشعر قال فرأيت النبي ﷺ تلك الليلة وهو جالس في ذلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالراجل بذلك فقلت في نفسي ما كان ينبغي لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله ﷺ يستمع وأبو بكر يقول فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال هذا حق أو قال حق من حق أنا أشك فيه . وقال الجنيد تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين وعند السماع فإنهم يسمعون بوجود ويشهدون حقا .

وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع فقليل له أيؤتى به يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك فقال لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه باللفو وقال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِالْفُحْرِ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) وهذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالشبهة وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة .

الباب التاسع والتسعون

في النهي عن البدعة واتباع الهوى

قال ﷺ إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار وقال ﷺ من أحدث في أمر ديننا هذا ما ليس منه فهو رد ، وقال ﷺ عليكم بسنة وسمت الخلفاء الراشدين من بعدى فعلم من هذه الأحاديث أن كل ما خالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة فهو بدعة مردودة . وقال ﷺ : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة (٢) ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » (٣) .

وقال قتادة - رضى الله عنه - في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (٣) الآية . . . إعلموا أن السبيل واحد جماعة الهدى ومصيره الجنة وأن إبليس استبدع سبلا متفرقة جماعها الضلالة مصيرها إلى النار .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال خط لنا رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال هذه سبيل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ هذه الآية . وعن ابن عباس هذه السبل الضلالات .

وقال ابن عطية هذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل العمق في الجدل والخوض في الكلام وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد . وقال ﷺ من رغب عن سنتي فليس مني . وقال ﷺ « ما من أمة ابتدعت بعد نبيها في دينها بدعة إلا أضاعت مثلها من السنة » (٤) وقال ﷺ أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل

(١) آية (٢٢٥) سورة البقرة .

(٢) (صحيح) أحمد ٤ / ٣٦١ ، وصحيح الجامع (٣٦٠٥) .

(٣) آية (١٥٣) سورة الأنعام .

(٤) (ضعيف) الطبراني ١٨ / ٩٩ ، وضعيف الجامع (٥١٥٥) .

محدثنة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار وإنما أخشى عليكم شهوات الغنى في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى ، إياكم والمحدثات فإن كل محدثة ضلالة ، وقال ﷺ : « إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته » (١) . وقال ﷺ لا يقبل الله لصاحب البدعة صوما ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين لقد تركنكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك لكل عمرة شرة ولكل شرة فترة فمن كانت شرته إلى ستنى فقد اعتدى ومن كانت شرته إلى غير ذلك فقد هلك إنى أخاف على أمتى من ثلاث من زلة عالم وهوى متبع وحكم جائر . رواه الترمذى وحسنه في مواضع وصححه في أخرى . والشره بكسر الشين وفتح الراء مشددة النشاط والهمة .

فصل في النهى عن آلة اللهوم

روى البخارى أنه ﷺ قال من قال لصاحبه تعالى أقامرك فليصدق . وروى مسلم وأبو داود وابن ماجه : « من لعب بنرد أو نردشين فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه » (٢) .

وروى أحمد وغيره أنه ﷺ قال : « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم يصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى أى فلا تقبل له صلاة كما صرح به رواية أخرى .

وأخرج البيهقى عن يحيى بن كثير قال : « مر رسول الله ﷺ على قوم يلعبون بالنرد فقال : قلوب ، لاهية وأيد عاملة والسنة لاغية » (٣) .

وأخرج الديلمى أنه ﷺ قال : اذا مررت بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزام والشطرنج والنرد وما كان من هذه أى وما شابه ذلك من كل لهو محرم فلا تسلموا عليهم وأن سلموا عليكم فلا تردوا عليهم . وقال ﷺ ثلاث من الميسر : القمار والضرب بالكماط والصغير بالحمام .

ومر على - رضى الله عنه - يقوم يلعبون الشطرنج فقال ما هذا التماثيل التى أنتم لها عاكفون لأن بمس أحدكم جمرا حتى يطفأ خيرا له من أن يمسه ثم قال والله لغير هذا خلقتكم . وقال أيضا - رضى الله عنه - صاحب الشطرنج أكثر الناس كذبا يقول أحدهم قتلتما وما قتل مات وما مات . وقال أبو موسى الأشعرى - رضى الله عنه - لا يلعب بالشطرنج إلا خاطى .

واعلم أن الملاهى إما حرام كمرد وطنبور ومعرقة وطبل ومزمار وما إلى الهى بصوت مطرب إذ

(٢) (صحيح) مسلم (٢٢٦٠) .

(١) الملل المتناهية ١ / ١٣٨ .

(٣) البيهقى ١٠ / ٢١٦ .

انفرد ، أو مكروه وهو ما يزيد به الغناء طربا ولم يطرب منفردا كالصنح والفصب فيكره مع الغناء لا وحده ، أو مباح وهو ما خرج عن آلة الطرب إلى إنذار كالبوب وطبل الحرب أو لمجموعة وإعلان كالدق فى النكاح .

الباب المائة

فى فضائل رجب

رجب مشتق من الترجيب وهو التعظيم ويقال له الأصب لأن الرحمة تصب فيه على التائبين وتفيض أنواع القبول على العاملين ، ويقال له الأصم لأنه لم يسمع فيه حسن قتال وقيل رجب اسم نهر فى الجنة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج لا يشرب منه إلا من صام شهر رجب قال ﷺ رجب شهر الله وشعبان شهرى ورمضان شهر أمتى . وقال أهل الإشارة رجب ثلاثة أحرف راه وجيم وباء فالراء رحمة الله والجيم جرم العبد وجنايته والباء بر الله كأن الله تعالى يقول أجعل جرم عبدى بين رحمتى وبرى .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قال ﷺ من صام السابع والعشرين من رجب كتب له صيام سنتين شهرا . وقال ﷺ ألا أن رجبا شهر الله الأصم فمن صام من رجب إيمانا واحتسابا استوجب رضوان الله الأكبر .

وقيل زين الله الشهور بأربعة ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ورجب وواحد فرد وهو شهر رجب .

وحكى أن امرأة فى بيت المقدس كانت تقرأ كل يوم من رجب قل هو الله أحد اثنتى عشرة ألف مرة وكانت تلبس الصوف فى شهر رجب فمرضت وأوصت ابنها أن يدفن معها صوفها فلما ماتت كفنها فى ثياب مرتفعة فرأها فى منامه تقول له أنا عنك غير راضية لأنك لم تعمل بوصيتى فاتبه فزعا وأخذ صوفها ليدفنه معها فنش قبرها فلم يجدها فيه فتحير فسمع نداء أما علمت أن من أطاعنا فى رجب لا نتركه فردا وحيدا .

وروى إذا كان ثلث الليل من أول جمعة من رجب لا يبقى ملك إلا ويستغفر لصوام رجب . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من صام ثلاثة أيام من شهر حرام كتب له ثواب عبادة تسعمائة سنة . قال أنس - رضى الله عنه - صمت أذنأى أن لم أكن سمعته من رسول الله ﷺ .

الأشهر الحرم أربعة وخيار الملائكة أربعة وأفضل الكتب المنزلة أربعة وأعضاء الوضوء أربعة وأفضل الناس - حاتم كلمات أربعة سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وعماد الحساب أربعة - أحاد وعشرات ومئات وألوف والأوقات أربعة الساعة واليوم والشهر والسنة وفصول السنة أربعة ربيع وصيف وخريف وشتاء والطبائع أربعة حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة وسلطان البدن أربعة صفراء وسوداء ودم وبلغم والخلفاء الراشدون أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - رضوان الله عليهم أجمعين - .

روى الديلمي عن عائشة - رضى الله عنها - قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول يسبح الله الخير في أربع ليالي سحا ليلة الأضحى وليلة الفطر وليلة النصف من شعبان وأول ليلة من رجب . وروى الديلمي أيضا بسنده عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال خمس ليال لا ترد فيها دعوة أول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان وليلة الجمعة وليلتنا العبيدين .

الباب الأول بعد المائة

في فضل شعبان المبارك

سمى شعبان لأنه يتشعب منه خير كثير مشتق من الشعب بكسر الشين وهو طريق الجبل فهو طريق الخير .

روى عن أبي أمامة الباهلي - رضى الله عنه - قال كان رسول الله ﷺ يقول : « إذا دخل شعبان فظهروا أنفسكم وأحسنوا نيتكم فيه وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وكان أكثر صيامه في شعبان » (١) .

وفي النسائي من حديث أمامة - رضى الله عنه - قلت يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان قال : ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان وهو شهر ترفع فيه الأعمار، لرب العالمين فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم وفي الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت ما رأيت رسول الله ﷺ استعمل صيام شهر قط إلا رمضان وما رأيته في شهر أكثر منه صيام من شعبان . وفي رواية كان يصوم شعبان كله . ولمسلم كان يصوم شعبان إلا قليلا فهذه الرواية مفسرة للأولى فالمراد بأكمله أغلبه قيل أن للملائكة في السماء ليلى عيد كما أن للمسلمين في الأرض من يومى عيد فعيد الملائكة ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان وليلة القدر وعيد المؤمنين يوم الأضحى فلذا سميت ليلة نصف شعبان ليلة عيد الملائكة . وذكر

السبكي في تفسيره أنها تكفر ذنوب السنة ، وليلة الجمعة تكفر ذنوب الأسبوع وليلة القدر تكفر ذنوب العمر أى إحياء هذه الليالي سبب لتكفير الذنوب وتسمى ليلة التكفير أيضا لذلك وليلة الحياة ، لما روى المنذرى مرفوعا من أحبا ليلى العبد وليلة النصف من شعبان لم يميت قلبه يوم تموت القلوب . وتسمى ليلة الشفاعة لما روى أنه ﷺ سأل الله تعالى ليلة الثالث عشر الشفاعة في أمته فأعطاه الثلث وسأله ليلة الرابع عشر فأعطاه الثلثين وسأله ليلة الخامس عشر فأعطاه الجميع إلا من شرد على الله شراد البعير يعنى من فر من الله وتباعد عنه بالإصرار على المعصية . وتسمى ليلة المغفرة أيضا لما روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : أن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان إلى عباده فيغفر لأهل الأرض الا رجلين مشرك أو مشاحن وتسمى ليلة العتق لما روى ابن إسحق عن أنس بن مالك بعثني رسول الله ﷺ إلى منزل عائشة - رضى الله عنها - فني حاجة فقلت لها أسرعى فإني تركت النبي ﷺ يحدثهم عن ليلة النصف من شعبان فقالت يا أنس إجلس حتى أحدثك بحديث ليلة النصف من شعبان . تلك الليلة كانت ليلى من رسول الله ﷺ فجاها ودخل معى في لحافى فانتبهت من الليل فلم أجده فقلت لعله ذهب إلى جاريته القبطية فخرجت فمررت في المسجد فوقعت رجلى عليه وهو يقول سجد لك سوادى وخيالى وأمن بك فزادى وهذه يدى وما جنيت بها على نفسى يا عظيمى يرجى لكل عظيم إغفر الذنب العظيم ، سجد وجهى للذى خلقه وصووه وشق بصره ، ثم رفع رأسه فقال اللهم ارزقنى قلبا تقيا نقياً من الشرك برياً لا كافراً ولا شقياً ، ثم عاد ساجدا فسمعتة يقول أعوذ برضاك من سخطك ويعفوك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، أفول كما قال أخى داود أعفر وجهى فى التراب لسيدى وحق لوجهى يا سيدى أن يعفر ثم رفع رأسه فقلت بأبى أنت وأمى أنت فى واد وأنا فى واد فقال يا حميراء أما تعلمين أن هذه الليلة ليلة النصف من شعبان إن لله عز وجل فى هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب إلا ستة : لا مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا مصر على الزنا ، ولا مصارم ، ولا مضرب ، ولا قتات . وفى رواية مصور يدل مضرب ، وتسمى ليلة القسمة والتقدير لما روى عطاء ابن يسار إذا كانت ليلة النصف من شعبان نسخ لملك الموت كل من يموت من شعبان إلى شعبان وأن العبد ليغفر الغرس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وأن اسمه قد نسخ فى الموتى وما ينتظر به ملك الموت إلا أن يؤمر به فيقبضه .

الباب الثاني بعد المائة

في فضل رمضان العظيم

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَجِبْ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا تَجِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (١) عن سعيد بن جبير - رضى الله عنه - كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام . وقال جماعة من أهل العلم كان واجبا على النصارى فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد وكان يشق عليهم في أسفارهم وبعض معاشهم فاجتمع وأى كبرائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه في الربيع وزاد فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا ثم أن ملكا لهم اشتكى فجعل الله عليه أن يرى من وجهه وأن يزيد فيه أسبوعا فلما مات ذلك وليهم ملك آخر فقال أتموه خمسين يوما ثم أصابتهم موتان وهو موت البهائم فقال زيدوا صياكم فزادوا عشرا قيل وعشرا بعد . وقيل ما من أمة إلا وفرض عليهم صيام رمضان إلا أنهم ضلوا عنه .

قال البخارى والصحيح أن رمضان اسم للشهر من الرمضاء وهي الحجاوة للحماة لأنهم كانوا يصومون في الحر الشديد لأن العرب لما أرادت أن تضع أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور كان في شدة الحر . وقيل سمي بذلك لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها . وفرض في السنة الثانية من الهجرة وهو معلوم من الدين بالضرورة يكفر بجاحد وجوبه . وروى في فضله أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ إذا كان أول ليلة من رمضان فتحت أبواب الجنان كلها فلم يغلق منها باب في الشهر كله . وأمر الله تعالى مناديا ينادى يا طالب الخير أقبل ويا باغى الشر أقصر ثم يقول هل من مستغفر فيغفر له ، هل من سائل فيعطى سؤله ، هل من تائب فيتاب عليه ، فلم يزل كذلك إلى انفجاء الصبح ولله كل ليلة عند الفطر ألف عتق من التاؤد استوجبوا العذاب .

وعن سلمان الفارسي - رضى الله عنه - قال خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم فيه ليلة القدر خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا ، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة وهو شهر المواساة ، وهو شهر يزداد فيه رزق المؤمن ، من فطر فيه صائما كان له عتق رقبة ومغفرة لذنوبه ، قلنا يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم قال يعطى الله هذا الثواب من يفطر صائما مذقة لبن أو شربة ماء أو تمر أو شمع صائم كان له مغفرة لذنوبه وسقاه ربه من حوضى شربة لا يظلم

(١) آية (١٨٣) سورة البقرة .

بعدها أبدا وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار ، ومن خفف عن مملوكه فيه أعتقه الله من النار فاستكثروا فيه من أربيع خصال : خصلتين ترضون بهما ربكم وخصلتين لا غنى لکم عنهما أما الخصلتان اللتان لا غنى لکم عنهما تسألون وبكم الجنة وتعودون به من النار ، ومنها قوله ﷺ من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقوله ﷺ كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به . وناهيك بعبادة أضافها البارى تبارك وتعالى لنفسه ومنها قوله ﷺ أعطيت أمتى خمس خصال في شهر رمضان لم تعطهن أمة قبلها خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، وتصفد فيه مردة الشياطين ، ويزين الله تعالى كل يوم الجنة ويقول يوشك عبادى الصالحون أن يكف عنهم السوء والأذى ، ويغفر لهم آخر ليلة منه ، قيل يا رسول الله أى ليلة القدر قال لا ولكن العامل يوقى أجره إذا قضى عمله .

الباب الثالث بعد المائة

في فضل ليلة القدر

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال ذكر لرسول الله ﷺ وجل من بنى إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر فعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى ذلك لأمت فقال يا رب جعلت أمتى أقصر الأمم أعمارا وأقلها أعمالا فأعطاء الله تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر مدة حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله له ولأمة إلى يوم القيامة . فهى من خصائص هذه الأمة ، ويقال اسم ذلك الرجل شمعون غزا العدو ألف شهر لم يجف لبد فرمه وقهر الكفار لما أعطى من القوة والجسارة فضاعت قلوبهم منه فبعثوا رسلا إلى امرأته وضمعوا لها طستا من ذهب مملوءة ذهباً إن هى قيدته حتى يجسوه فى بيت لهم ويستريحوا منه فلما نام بالليل أوثقت بحبل من ليف فلما انتبه حرك أعضاءه فقطع الحبل قطعاً وسألها لم صنعت ذلك فقالت أجرب قوتك فلما أخبر الكفار بذلك بعثوا لها سلسلة ففعلت مثل ما فعلت فقطعها فجاء إبليس إلى الكفار وأرشدهم إلى أن تسأل المرأة زوجها أى شيء لا تقوى على فكه وقطعه فأرسلوا إليه فسألته فقال ذوابتي وكان له ثمانية ذواب طويلة تجر على الأرض فلما نام فيدت رجله بأربعة يديه بأربعة فجاء الكفار وأخذوه وذهبوا به إلى بيت مذهبهم مقدار أربعمائة ذراع علوه ومات اتساعه له عمود واحد فقطعوا أذنيه وشفته وكانوا كلهم مجتمعين لديه فسأل الله تعالى أن يقوى على فك وثاقه وعلى أن يجر العمود ويهدمه عليهم من نجاته منهم فقواه الله فتحرك فانفك وثاقه وحرك العمود فوقع عليهم السقف فأهلكهم الله جميعا ونجا منهم ، فلما سمع أصحاب رسوا

الله ﷺ ذلك الحبر قالوا يا رسول الله هل ندرك ثوابه فقال لا أدري ثم سأله فاعطاه كما تقدم ليلة القدر ، وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ إذا كان ليلة القدر نزل جبريل - عليه السلام - في كبكة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى . قال أبو هريرة - رضي الله عنه - الملائكة تنزل ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى فتفتح أبواب السماء للتزل كما ورد فتسطع الأنوار ويحصل تجل عظيم وينكشف فيها الملكوت والناس في ذلك متفاوتون فمنهم من يكشف له عن ملكوت السموات والأرض فتكشف له الحجب عن السموات فيشاهد فيها الملائكة على صورها ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد وذاكر وشاكر ومسبح ومهلل ومنهم من يكشف له عن الجنة بما فيها من دورها وقصورها وحورها وانهارها وأشجارها وأثمارها ويشاهد عرش الرحمن وهو سقفيها ويشاهد منازل الأنبياء والأولياء والشهداء والصدّيقين ويهبطهم في هذا الملكوت ويتنزه في ذلك الرحمت ويشاركهم ويشاهد دركاتهم ومنازل الكفار إلى غير ذلك ومنهم من تتكشف حجبته عن جمال الله فلا يشاهد إلا إياه . وعن عمر عنه عليه - الصلاة والسلام - من أحيا ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان إلى الصبح فهو أحب إلى من قيام ليالي شهر رمضان كلها ، فقالت فاطمة يا أبت ما تصنع الضعفاء من الرجال والنساء ممن لا يقدر على القيام قال لا يضعون الوسائد فيتكون عليها ويقعدون ساعة من ساعات تلك الليلة ويدعون الله - عز وجل - إلا كان ذلك أحب إلى من قيام أمتي جميعا شهر رمضان . وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت قال رسول الله ﷺ من أحيا ليلة القدر وصلى فيها ركعتين واستغفر فيها غفر الله له وخافض في رحمة الله ومسحه جبريل بجناحه ومن مسحه جبريل بجناحه دخل الجنة .

الباب الرابع بعد المائة

في فضل العيد

سمى هذا اليوم الذي هو أول شوال واليوم الذي هو العاشر من ذي الحجة عبدا لأن المؤمنين عادوا فيهما من طاعة الله تعالى التي هي أداء فريضة صيام رمضان والحج إلى طاعة رسوله ﷺ التي هي صيام ست من شوال والتأهب لزيارته ﷺ ولتكرار ذلك كل عام ، ولكن عوائد الله تعالى فيه بالإحسان ولعود السرور بعوده وأول عيد صلاه رسول الله ﷺ عيد الفطر في السنة الثانية من الهجرة ولم يتركها فهي سنة مؤكدة . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : « زينوا أعيادكم بالتكبير » (١) . قال ﷺ : من قال سبحان الله وبحمده يوم العبد ثلثمائة مرة وأهداها

(١) (ضعيف) المعجم الصغير ١ / ٢١٥ ، وضعيف الجامع (٣١٨٢) .

لأموات المسلمين دخل في كل قبر ألف نور ويجعل الله تعالى في قبره إذا مات ألف نور . وعن وهب بن منبه - رضي الله عنه - أن إبليس يرن في كل عيد فنجتمع إليه الأبالسة فيقولون يا سيدنا م غضبك فيقول إن الله تعالى غفر لأمة محمد ﷺ في هذا اليوم فعليكم أن تشغلوهم باللذات والشهوات . وعن وهب أيضا أن الله تعالى خلق يوم عيد الفطر وغرس شجرة طوبى يوم عيد الفطر . واصطفى جبريل للروح يوم عيد الفطر وتاب على مسخرة فرعون يوم عيد الفطر وقال النبي ﷺ : « من قام ليلة العيد محسبا لم يمته قلبه يوم تموت القلوب » (١) .

حكى أن عمر رأى ولدا له يوم عيد وعليه قميص خلق فبكى فقال ما يبكيك فقال له يا بني أخشى أن ينكسر قلبك في يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق فقال إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه أو عني أمه وأباه وإنني لأرجو أن يكون الله راضيا عني برضائك فبكى عمر وضمه إليه ودعا له - رضي الله عنهما - .

وما أحسن قول القائل :

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابس * * * فلت خلعة ساق عبده الجرع
فقر وصبر ثوبان بينهما * * * فلب يزي ربه الأعياد والجمعا
العيد لي مسأتم إن غبت يا أملي * * * والعيد أن كنت لي مرأى ومستمعا

وورد إذا كان غداة عيد الفطر بعث الله الملائكة فيهبطون إلى الأرض ويقومون على السكك فينادون بصوت يسمعه جميع خلق الله إلا الإنس والجن يقولون يا أمة محمد أخرجوا إلى رب كريم يعطي العطاء الجزيل ويغفر الذنب العظيم فإذا برزوا إلى مصلاهم قال الله للملائكة ما جزاء الأجير إذا عمل فيقولون جزاؤه أن يوفى أجره فيقول سبحانه أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم رضائي ومغفرتي .

الباب الخامس بعد المائة

في فضل عشر ذي الحجة

روى ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أن النبي ﷺ قال : ما من أيام العمل فيها أحب إلى الله من هذه الأيام يعني أيام العشر قالوا ولا الجهاد في سبيل الله تعالى قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء ، وعن جابر بن عبد الله قال :

(١) (ضعيف) ابن ماجه (١٧٨٢) ، وضعيف الجامع (٥٧٤٢) .

قال رسول الله ﷺ ما من أيام أحب إلى الله وأنضل من أيام العشر قبل ولا مثلهن في سبيل الله ، قال ولا مثلهن في سبيل الله وعن عائشة - رضي الله عنها - أن شابا كان صاحب سماع وكان إذا أهل ملاك ذى الحجة أصبح صائمه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال ما يحملك على صيام هذه الأيام قال بابي أنت وأمي يا رسول الله إنها أيام المشعر وأيام الحج عسى الله أن بشركني في دعائهم . قال فإن لك بكل يوم تصومه عدل مائة رقبة ومائة بدنة ومائة فرس تحمل عليها في سبيل الله فإذا كان يوم التروية فلك فيها عدل ألف رقبة وألف بدنة وألف فرس تحمل عليها في سبيل الله فإذا كان يوم عرفة فلك فيها عدل ألفي رقبة وألفي بدنة وألفي فرس تحمل عليها في سبيل الله تعالى ، وقال ﷺ يعدل صوم يوم عرفة بصوم ستين ويعدل صوم عاشوراء بصوم سنة وقال أهل التفسير في قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ ﴾ (١) الآية . . إنها العشر الأولى من ذى الحجة ، وعن ابن مسعود - رضي الله عنها - أن الله اختار من الأيام أربعة ومن الشهور أربعة ومن النساء أربعة يسبقون إلى الجنة وأربعة اشتاقت إليهم الجنة أما الأيام فأولها يوم الجمعة فيها ساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله تعالى شيئا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وثانيها يوم عرفة فإذا كان يوم عرفة يباهي الله تعالى ملائكته فيقول يا ملائكتي انظروا إلى عبادي جاءوا شعثا غبرا قد أنفقوا الأموال وأتعبوا الأبدان أشهدوا أنني غفرت لهم ، وثالثها يوم النحر فإذا كان يوم النحر وقرب العيد قربانه فأول قطرة قطرت من القربان تكون كفارة لكل ذنب عمله العبد ، ورابعها يوم الفطر فإذا صاموا شهر رمضان وخرجوا إلى عيدهم يقول الله تبارك وتعالى للملائكة إن كل عامل يطلب أجره وعبادي صاموا شهرهم وخرجوا من عيدهم يطلبون أجرهم أشهدكم أنني قد غفرت لهم . وينادي المنادي يا أمة محمد إرجعوا فقد بدلت سيئاتكم حسنات . وأما الشهور فرجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . وأما النساء فمرم بنت عمران وخديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الإيمان بالله وسوله وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون وفاطمة بنت محمد سيدة نساء الجنة . وأما السابقون فللكل قوم فسيدنا محمد ﷺ سابق العرب وسلمان سابق الفرس وصهيب سابق الروم ويلا ل سابق الحبشة . وأما الأربعة الذين اشتاقت لهم الجنة فعلى بن أبي طالب وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود . وعنه ﷺ من صام يوم التروية أعطاه الله ثوابا مثل ثواب عيسى - عليه السلام - وعن النبي ﷺ إذا كان يوم عرفة نشر الله رحمته فليس أكثر من يوم عتقائه ومن سأل الله تعالى في يوم عرفة حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فضاها له ، وصوم يوم عرفة يكفر سنة ماضية وسنة مستقبلية (٢) . والحكمة في ذلك والله أعلم أنه بين عيدين وهما يوم سرور المؤمنين ولا سرور

(١) آية (١٤٢) سورة الأعراف .

(٢) صحيح مسلم (١١٦٢) .

أعظم من غفران ذنوبهم ، ويوم عاشوراء بعد العيدين فهو كفارة سنة واحدة ولأنه لموسى - عليه السلام - ويوم عرفة لنبينا ﷺ وكرامته تتضاعف على غيره ﷺ .

الباب السادس بعد المائة

في فضل عاشوراء

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال قدم النبي ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسألهم عن ذلك فقالوا إن هذا اليوم أظهر فيه موسى وبنى إسرائيل على قوم فرعون فنحن نصومه تعظيما له فقال النبي ﷺ نحن أولى بموسى منكم فأمر بصومه وقد ورد في فضل عاشوراء آثار كثيرة منها أنه تيب على آدم فيه وكان خلقه فيه وفيه أدخل الجنة وفيه خلق العرش والكرسي والسموات والشمس والقمر والنجوم وولد إبراهيم الخليل فيه وكانت لجاته من النار فيه وكذلك نجاة موسى ومن معه وإغراق فرعون ومن معه وفيه ولد عيسى وفيه رفع إلى السماء وفيه رفع إدريس مكانا عليا وفيه استوت سفينة نوح على الجودي وأعطى فيه سليمان الملك العظيم وأخرج يونس من بطن الحوت ورد بصقر يعقوب عليه . وأخرج يوسف من الجب وكشف خسر أيوب وأول مطر نزل من السماء إلى الأرض كان يوم عاشوراء وكان صومه معروفا بين الأمم حتى قيل بأنه فرض قبل رمضان ثم نسخ به وصام ﷺ قبل الهجرة ، ولما دخل المدينة أكد طلبه حتى قال ﷺ في آخر عمره الشريف إن عشت إلى فابل لأصوم من التاسع والعاشر فانتقل إلى الرفيق الأعلى من عامه ولم يصم غير العاشر لكنه رغب فيه وفي صوم التاسع والحادي عشر بقوله ﷺ صوموا قبله يوماً وبعده يوماً خالفوا سنة اليهود . أي حيث أفردوه بالصوم . وروى البيهقي في شعب الإيمان من وسع على عياله وأهله في يوم عاشوراء وسع الله عليه في مائتي سنة وفي رواية منكره للطبراني الصدقة فيه بدرهم بسبعمائة ألف درهم وأما حديث من اكتحل يومه لم يرم ذلك العام ومن أغتسل فيه لم يمرض فموضوع ، وقد صرح الحاكم بأن الاكتحال يومه بدعة ، وقال ابن القيم حديث الاكتحال وطبخ الحبوب والأدهان والتطيب يوم عاشوراء من وضع الكلابيين .

واعلم أن ما أصيب به الحسين - رضي الله عنه - يوم عاشوراء إنما هو الشهادة الدالة على مزيد رفعة ودرجته عند الله وإخافته بدرجات أهل بيته الطاهرين فمن ذكر ذلك اليوم مصابه فلا ينبغي أن يشغل إلا بالاسترجاع امتثالاً للأمر وإحرازاً لما ربه تعالى عليه بقوله : ﴿ أَوَلَيْكَ عِثْمٌ صُلَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةً وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُتَعِدُونَ ﴾ (١) وإياه ثم إياه أن يشغل ببدع الرافضة ونحوهم من

(١) آية (١٥٧) سورة البقرة .

الندب والنباح والحزن إذ ليس ذلك من أخلاق المؤمنين والالكان يوم وفاة جده ﷺ أولى بذلك وأحرى وحبينا الله تعالى وحده ونعم الوكيل .

الباب السابع بعد المائة

في فضل ضيافة الفقراء

قال ﷺ : « لا تكلفوا للضيف فتبتغوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله » (١) وقال ﷺ : « لا خير فيمن لا يضيف » (٢) . ومر رسول الله ﷺ برجل له ابل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويهاة فذهبته فقال ﷺ : انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل . وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ أنه نزل به ﷺ ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من الدقيق إلى رجب فقال اليهودي والله لا أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني لأدبته فاذهب بدري وارهنه عنده ، وكان إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه وسلامه - إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتبس من يتغذى معه وكان يكتي أبا الضيفان ولصديق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا فلا تنقضي ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع أنه لم يخل ليلة عن ضيف . ومثل رسول الله ﷺ ما الإيمان فقال إطعم الطعام وبذل السلام وقال ﷺ في الكفارات والدرجات إطعام الطعام وطيب الكلام . وقال أنس رضي الله عنه كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى .

وما أحسن قول القائل :

لم لا أحسنب الضيف أو * * ارتاح من طرب إليه

والضيف يأكل رزقه * * عندى ويشكرنى عليه

ومن كلام الحكماء لا تتم الصنيعة إلا بطلاقة الوجه وحسن الحديث ولطف اللقاء وقال آخر :

أصاحك ضيفى قبل إنزل رحله * * ويغصب عندى والمحل جديب

وما الخصب للأضياف في كثرة القرى * * ولكنما وجه الكريم خصب

(١) تحف السادة ٥ / ٢٣٨ .

(٢) (صحيح) أحمد ٤ / ١٥٥ ، وصحيح الجامع (٧٤٩٢) .

فينبغى للداعي أن يعمد بدعوته الأنقياء دون الفساق قال ﷺ : « أكل طعامك الأبرار في دعائه لبعض من دعا له . وقال ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » (١) ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال ﷺ : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء » (٢) وينبغى أن لا يهمل أقرابه في ضيافته فإن إهمالهم إجحاش وقطع رحم وكذلك يرعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إجحاشا لقلوب الباقيين وينبغى أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان وأتسنى بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين وينبغى أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة أو يتأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب ، وينبغى أن لا يدعو إلا من يحب إجابته . قال سفيان من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطبة فإن أجاب الدعوة فعليه خطبتان لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقى إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق وقال رجل خياط لابن المبارك أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة قال لا ، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة أنفسهم وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة ، وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع . قال ﷺ : لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت وللإجابة خمسة آداب مذكورة في إحياء علوم الدين وغيره .

الباب الثامن بعد المائة

في الكلام على الجنائز والتعزير

إعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه له وتذكير لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتهم إلا قسوة لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم قبل حساباتهم وانقرض ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون قبل حساباتهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا فإنه محمول عليها على القرب ولعله في غد أو بعد غد . ويروى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه كان إذا رأى جنازة قال أمضوا فإننا على الأثر . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال أغدوا فإننا رانحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعل به وما هو صائر

(١) تحف السادة ٤ / ١٢٨ .

(٢) (صحيح) البخاري (٥١٧٧) .

إليه ، ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر غيبي حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا .

وقال الأعمش كنا نشهد الجنازة فلا ندري من نعزي لحزن الجميع . وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنازة فلا ندري إلا منفعة باكية فهكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلى ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حصل عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسبنا الله تعالى واليوم الآخر والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا ، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنازة بكائهم على الميت ولو عقلوا البكاء على أنفسهم لا على الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو تترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم إنه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ومرارة الموت وقد ذاق وخوف الخاتمة وقد آمن . وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جبرير وهو يعلى على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة : فقال :

تسرونا الجنائز مقبلات ** ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلثة لمغار ذئب ** فلما غاب عادت رائعات

فمن آداب حضور الجنازة التفكير والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرت آدابه وسنته في فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فإن الخاتمة خطيرة لا تدري حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وفف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك وبالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا .

ويحكى أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم نجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم بدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأه كالماتر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ونعجب الناس من

صلاة الزاهد عليه فقال قيل لي في المنام إنزل إلى موضع كذا ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليها فإنه مغفور له فزاد نعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كذب كانت سيرة ، قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظري هل تعرفين بيته شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء كان إذا أفاق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشغل بالفسق ، والثاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد النفقة لهم ، والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يا رب أي زاوية من زوايا جهنم نريد أن تملأها بهذا الخبيث يعني نفسه . فانتصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره قال الضحاك قال رجل يا رسول الله من أزهدهم الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وأثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أباهم وعد نفسه من أهل القبور .

وقيل لعلى - كرم الله وجهه - ما شأنك جاورت المقبرة قال إنني أجدهم خبير جيران إنني أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة . وكان عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحينه فستل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد (١) . وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقبل له هذا شيء لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحييت أن تغرب إلى الله بهما . وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فنقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لي .

وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع في قبري .

الباب التاسع بعد المائة

في التخييف من عذاب جهنم

أخرج البخاري كان أكثر دعاء النبي ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وأبو يعلى أنه ﷺ خطب فقال لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار ثم بكى حتى جرى أو بل دموعه جانبى لحيته ثم قال والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشتبم على الصعبد ولحشيتهم على رؤوسكم التراب . والطبراني في الأوسط جاء جبري إلى النبي ﷺ في حين

غير حبه الذي كان يأتيه فيه فقام إليه رسول الله ﷺ فقال يا جبريل مالي أراك متغير اللون فقال ما جئت حتى أمر الله عز وجل بمنافع النار فقال رسول الله ﷺ يا جبريل صف لي النار أو انعت لي جهنم فقال جبريل إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوفد عليها ألف عام حتى أبيضت ثم أمر فأوفد عليها ألف عام حتى أحمرت ثم أوفد عليها ألف عام حتى أسودت فهي سوداء مظلمة لا بصر فيها ولا يطفأ لهيبها والذي بعثك بالحق نبيا لو أن قدر ثقب إبرة ففتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعا من حره والذي بعثك بالحق لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلهم جميعا من فيج وجهه ومن تنز ريحه والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلل سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه وضعت على جبال الدنيا لأرقت وما تفاربت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى فقال رسول الله ﷺ حسبي يا جبريل لا تصدع قلبي فأمرت قال فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به فقال وما لي لا أبكي وأنا أحق بالبكاء لعلى أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها وما أدرى لعلى إيتلى بما ابتلى به إبليس فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى إيتلى بما ابتلى به هاروت وماروت قال فبكي رسول الله ﷺ وبكى جبريل فما زالا يبكيان حتى نوديا أن يا جبريل وما محمد إن الله تعالى قد أمكنكما أن تعصيا فارتفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون فقال أنضحكون ووراءكم جهنم فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما أسغنم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله عز وجل فنودي يا محمد لا تقنط عبادي إنما بعثك مشرا ولم أبعثك مبشرا فقال ﷺ سددوا وقاربوا .

وروي أنه ﷺ قال لجبريل مالي لا أرى ميكائيل ضاحكا قط قال ما ضحك ميكائيل منذ خلفت النار ، وابن ماجه والحاكم وصححه أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ولولا أنها اطفت بالماء مرتين لما انتفعتم بها وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها . والبيهقي أن عمر - رضي الله عنه - قرأ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (١) قال يا كعب أخبرني بتفسيرها فإن صدقت صدقتك وأن كذبت وددت عليك فقال إن جلد ابن آدم يحرق في ساعة أو في يوم ستة آلاف مرة قال صدقت . والبيهقي أن الحسن البصري قال في الآية ناكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا . ومسلم يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصنع في النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط فيقول ما رأيت خيرا قط . ويؤتى بأبأس أهل الدنيا فيغمس في الجنة غمس ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط . وروي ابن ماجه يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يصير في وجوههم كهينة الأخدود لو

(١) الآية (٥٦) سورة النساء .

أرسلت فيها السفن لجرت . وأبو يعلى يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتيابكوا فإن أهل النار يكون في النار حتى نسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فيسيل معنى الدم فتفرح العيون .

الباب العاشر بعد المائة

في الميزان والصراف

أخرج أبو داود عن الحسن عن عائشة أنها بكت فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك قالت ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهلكم يوم القيامة ، فقال ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أبخف ميزانه أم بثقل ، وعند نظائر الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ، وعند الصراف إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يعلم أيجوز أم لا ، والترمذي عن أنس - رضي الله عنه - قال سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال أنا فاعل إن شاء الله تعالى قلت فأين أطلبك قال أول ما تطلبنى على الصراف قلت فإن لم ألقك على الصراف قال فاطلبنى عند الميزان قلت فإن لم ألقك عند الميزان قال فاطلبنى عند الخوض فإني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن .

وروي الحاكم بوضع الميزان يوم القيامة فلو وزنت أو وضعت فيه السموات والأرض لو وضعت فتقول الملائكة يا رب لمن وزن هذا ، فيقول الله تعالى لمن شئت من خلقي فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ويوضع الصراف مثل حد موسى فتقول الملائكة من يجوز على هذا فيقول من شئت من خلقي فيقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك . وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال بوضع الصراف على سواء جهنم مثل حد السيف المرفف مدحضة مزلة عليه كلاليب من نار يختطف بها فتمسك يهوى فيها ومصروع ومنهم من يمر كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كالريح فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كجري الفرس ثم كسعى الرجل ثم كرمل الرجل ثم كمشي الرجل ثم يكون آخرهم إنسانا رجل فد لوحنه النار ولقى فيها شرا ثم أدخله الله الجنة بفضلهم وكرمه ورحمته فيقال له غن وسل فيقول أي رب أنهرأ مني وأنت وب العزة فيقال له غن وسل حتى إذا انقطعت به الأماني قال لك ما سألت ومثله معه . وروي مسلم عن أم مبشر الأنصارية - رضي الله عنها - أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد من أصحاب الشجرة الذين يابعوا تحنها قالت بلى يا رسول الله فأنهرها فقالت حفصة - رضي الله عنها - وإن منكم إلا واردها فقال النبي ﷺ فد قال الله تعالى :

﴿ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ آمَنُوا وَتَنذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءٌ﴾ (١) وروى أحمد أن جماعة اختلفوا في ورود فقال بعضهم لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم يدخلونها جميعا ثم ينجي الله الذين اتقوا فسال بعضهم جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - فقال تردونها جميعا ثم أهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال صمت إن لم أكن سمعت رسول الله يقول الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى أن النار أو قال لجهنم ضجيجا من بردهم : ﴿ثُمَّ تُنَجِّي الَّذِينَ آمَنُوا وَتَنذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاءٌ﴾ وروى الحاكم يرد الناس النار ثم يصعدون عنها بأعمالهم أولهم كلمح البرق ثم كلمح الريح ثم كحضرة الفرس ثم كالراكب في رحله ثم كشده الرجل ثم كمشيه .

الباب الحادي عشر بعد المائة

في وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن مسعود - رضى الله عنه - دخلنا على رسول الله ﷺ بيت أمنا عائشة - رضى الله عنها - حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ، ثم قال مرحبا بكم حياكم الله أو أكرم الله فعزكم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إني لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل والتقلب إلى الله وإلى سدة المتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فافروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (٢).

وورى أنه ﷺ قال لجبريل - عليه السلام - عند موته من لأمى بعدى ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لا أخذه في أمته ، ويشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا وسبدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأم حتى يدخلها أمته ، فقال الآن قرأت عيني وقالت عائشة - رضى الله عنها - أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعاهم وأوصى بالانصار لا تزيد على هينتها التي هي عليها اليوم وأن الانصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم بمعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم ثم قال أن عبدا خيرا بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فيكي أبو بكر - رضى الله عنه - وظن أنه يريد نفسه فقال النبي ﷺ على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب والشوارع في المسجد ، وإلا باب أبى بكر فإني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصحبة من أبى بكر قالت عائشة - رضى الله عنها - فقبض ﷺ في بيته وفي يومى وبين مسحى ونحرى وجمع الله

(١) آية (٧٢) سورة مريم

(٢) الحلية ٤ / ١٩٨ .

بين ريقى وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فحمل ينظر إليه فمرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له أخذه لك فأوما برأسه أى نعم فتاولته إياه فادخله في فيه فاشتد عليه فقلت أئنه لك فأوما برأسه أى نعم فليتته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذا والله لا يختارنا .

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس - رضى الله عنه - على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على - رضى الله عنه - فأعلمه بمثله ، فميد يده وقال ها فتناولوه فقال ما تقولون قالوا نقول نخشى أن نموت ونصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فسار رسول الله ﷺ متوكئا على على والفضل ، والعباس أمامه ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وماتفكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنمى إليكم أنفسكم هل خلد نبي قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ألا إني لا حق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين فيمن بعث خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله - عز وجل - قال : ﴿وَالْفَصْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١) إلى آخرها . وأن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالانصار خيرا ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ، ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ألا وإن موعدكم الخوض حوضى أعرض عما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماؤه أشد بياضا من اللبن والبن من الزبد وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظما أبدا حصباؤه اللؤلؤ ويطحائه المسك ، من حرمه في الموقف غذا حرم الخير كله ، ألا فمن أحب أن يرد على غذا فليكشف لسانه ويده إلا بما يتبغى . فقال العباس يا نبي الله أوص بقرش فقال إنما أوصى بهذا الأمر قرشا والناس تبع لقرش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل قرش بالناس خيرا يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسمة فإذا بر الناس برهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ الْظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢) وروى ابن مسعود -

(١) آية (١٢٩) سورة الأنعام .

(٢) آية (١-٣) سورة الأنعام .

رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال لأبي بكر - رضى الله عنه - سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتدلى فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدره المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنأ ، فقال يا نبي الله من بلى غسلك ، قال رجال من أهل بيني الإدنى فالأدنى قال فقيم نكفك قال ثيابي هذه وفي حلة بمانبة وفي بياض مصر ، فقال كيف الصلاة عليك منا ويكتنا ويكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسلكموني وكفتموني وضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلى على الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي يَصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ (١) ثم بأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها - صلى الله عليهم أجمعين - ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم الأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم ويرونكم قوموا فادعوا عني إلى من بعدى . وقالت عائشة - رضى الله عنها - فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوادثهم مستبشرين وأدخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم تكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك إذ قال رسول الله ﷺ أخرجني عن هذا الملك يستأذن على فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجرى فجلس وتنجبت في جانب البيت فنأحى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجرى وقال للنسوة أدخلن ، فقلت ما هذا بحس جبريل - عليه السلام - فقال رسول الله ﷺ أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله - عز وجل - أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن فإن لم تأذن لي أرجع وأن أذن لي دخلت وأمرني أن لا أفيضك حتى تأمرني فماذا أمرك ، أكفف عني حتى يأبئني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة - رضى الله عنها - فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصاخرة ما نحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال إن الله - عز وجل - بفرأ عليك السلام ويقول كيف تحمدك وهو أعلم بالذى تحمد منك ولكن أراد أن يزينك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال أجدني وجعا فقال أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال يا جبريل أن ملك الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشناق ألم يعلمك الذى يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن

ربك متم شرفك وهو إليك مشناق قال فلا نبرح إذا حتى بجىء وأذن للنساء فقال يا فاطمة ادنى فأكبت عليه فتأجأها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى منى رأسك فأكبت عليه فتأجأها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام فكان الذى رأينا منها عجبا فسلأناها بعد ذلك فقالت أخبرنى وقال إنى مبت البوم فبكيت ثم قال إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أول أهلى وأن يجعلك معى فضحكت وأذنت ابنيها منه فشمهما ، فقالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن له فقال الملك ما نأمرنا يا محمد قال ألحقنى برى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشناق ولم يتردد على أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بأذن غيبك ولكن ساعتك أمامك وخرج . قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما نزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الأرض حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقعى لا والذى بعث محمد بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما نسمع من حديثه ووجدنا وأشفنا ، قالت فقمعت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدرة وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شىء أطيب منه فكتكت أفول له إذا أفاق بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح ، فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شذفيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعدنا وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى بعثته إلى أبى فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجىء أحد وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل وجعل إذا غمى عليه قال بل الرفيق الأعلى كان الأخيرة نعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة .

قالت عائشة رضى الله عنها مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين ، قالت فاطمة رضى الله عنها ما لقيت من يوم اثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة ، أو قالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات رسول الله ﷺ وفيه قتل على وفيه قتل أبى فما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضى الله عنها لما مات رسول الله ﷺ افتحم الناس حتى ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبى فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلائوا الكلام بغبر بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وافعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن اخرس ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس فإن الله - عز وجل - أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبى بكر حتى جاء العباس فقال والله الذى لا إله الا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت ولقد قال وهو

بين أظهركم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿١﴾ وبلغ أبا بكر الخير وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله لبذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله ﷺ ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ ﴾ (٢) الآية . فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ .

وفي رواية أن أبا بكر - رضي الله عنه - لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهلان وعصمه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عيه فكشف عن وجهه فقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعمت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجئنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنقلنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالان لا يرحان اللهم فأبلغه عنا . اذكرنا يا محمد - صلى الله عليك - عند ربك ولنكن من بالك فلولاً ما خلقت من السكينة لم يقم أحد لما خلقت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا وليكن هذا آخر ما أقدرنا الله عليه واجذب قلوبنا إليه ليكون لنا برسول الله أسوة حسنة وأرجو من الله أن يبدل السيئة بالحسنة وأن يلحقنا بنبينا ﷺ على الإيمان إنه أكرم مسؤول وأعز مأمول والحمد لله رب العالمين .

يقول مصححه الخائف وعيد ربه الراجي منه الوعد طه بن عبد الرؤوف سعد :

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات ونشهد إلا إله إلا الله شهادة تثقل بارئنا بها لنا ميزان الحسنات وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته واتبع سبيل المؤمنين .

أما بعد : فقد تم هذا الكتاب الشريف وذلك الصرح الفخم المتيف أرجو من الله أن يتوب ويغفر لكل من ساعد في نشر هذا الكتاب ولكل من قرأه أو سمعه واجعلنا من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه واجعلنا من الذين يقولون فيفعلون ويفعلون فيخلصون ويخلصون فيقبلون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(١) آية (٣١ - ٣٠) سورة الزمر . (٢) آية (١٤٤) سورة آل عمران .

ترجمة حياة الإمام الغزالي

- ٥ في بيان الخوف
- ٧٠ في الخوف من الله تعالى
- ١٠ في الصبر والمرض
- ١٢ في الرياضة والشهوة النفسانية
- ١٥ في غلبة النفس وعداوة الشيطان
- ١٦ في الغفلة
- ١٩ نسيان الله تعالى والفسق والتفارق
- ٢١ التوبة
- ٢٤ في المحبة
- ٢٦ في العشق
- ٢٩ في طاعة الله ومحبة ومجبة رسول الله ﷺ
- ٣٤ في ذكر إبليس وعذابه
- ٣٦ في الأمانة
- ٣٨ في إتمام الصلاة بالخضوع والخشوع
- ٤١ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٤٤ في عداوة الشيطان
- ٥٢ في بيان الأمانة والتوبة
- ٥٧ في فضل الترحم
- ٥٩ في بيان الخشوع في الصلاة
- ٦٢ في بيان الغيبة والنميمة

- ١٦٦ في بيان الزكاة
- ٦٦ في بيان الزنا
- ٦٧ في صلة الرحم وحقوق الوالدين
- ٧٢ في بر الوالدين
- ٧٦ في الزكاة والبخل
- ٧٨ في طول الأمل
- ٧٩ في ملازمة الطاعة وترك الحرام
- ٨٤ بيان ذكر الموت
- ٨٨ في ذكر السموات والأجناس المختلفة
- ٨٩ في بيان الكرسي والعرش وبيان الملائكة والأرزاق والترك
- ٩١ في ترك الدنيا وذمها
- ١٠٢ في ذم الدنيا
- ١٠٦ في فضل القناعة
- ١١٠ في فضل الفقراء
- ١١٥ في اتخاذ ولي من دون الله وفي بيان العرصات
- ١١٧ في النفخ والفرع والحشر من المقابر
- ١٢٠ في بيان القضاء بين الخلائق
- ١٢٢ في بيان ذم المال
- ١٢٥ في الأعمال والميزان وعذاب النار
- ١٣١ في فضل الطاعة
- ١٣٣ في الشكر

- ١٣٥ في بيان ذم الكبر
- ١٣٩ في التفكير في الإيماام وغيرها
- ١٤١ في بيان شدة الموت
- ١٤٤ في بيان الفير وسؤاله
- ١٤٧ في بيان علم اليقين وعين اليقين والسؤال يوم العرض
- ١٤٨ في فضل ذكر الله تعالى
- ١٥١ في فضل الصلوات
- ١٥٢ بيان عقوبة تارك الصلاة
- ١٦١ في بيان عرصات جهنم وعذابها
- ١٦٣ في بيان عذاب جهنم أيضاً
- ١٦٦ في بيان فضل الخوف من الذنب
- ١٦٨ في بيان فضل التوبة
- ١٧٢ في بيان النهي عن الظلم
- ١٧٤ في النهي عن ظلم اليتيم
- ١٧٥ في بيان ذم الكبر
- ١٧٧ في فضل التواضع والقناعة
- ١٧٩ في بيان غرور الدنيا
- ١٨١ في بيان ذم الدنيا والتحذير منها
- ١٨٥ في فضل الصدقة
- ١٨٧ في قضاء حاجة أخيه المسلم
- ١٨٨ في فضل الوضوء

.....	في فضل الصلوات	١٩٢
.....	في بيان أحوال القيامة	١٩٣
.....	في صفة جهنم والميزان	١٩٥
.....	في بيان ذم الكبير والعجب	١٩٦
.....	في الإحسان إلى اليتيم واجتناب الظلم	١٩٨
.....	في تحريم أكل الحرام	٢٠٠
.....	في النهي عن الربا	٢٠٢
.....	حقوق العبد	٢٠٣
.....	في ذم اتباع الهوى وفي بيان الزهد	٢٠٧
.....	في صفة الجنة ومراتب أهلها	٢١٠
.....	في الصبر والرضا والقناعة	٢١٢
.....	في فضل التوكل	٢١٣
.....	في فضل المسجد	٢١٤
.....	في الرياضة وفضل أهل الكرامة	٢١٧
.....	في الإيمان والتفاني	٢١٩
.....	في النهي عن الغيبة والنميمة	٢٢٢
.....	في بيان عداوة الشيطان	٢٢٣
.....	في بيان المحبة ومحاسبة النفس	٢٢٥
.....	في بيان تلييس الحق بالباطل	٢٢٧
.....	في فضل صلاة الجماعة	٢٢٨
.....	في فضل صلاة الليل	

.....	في عقوبة علماء الدنيا	٢٣٠
.....	في فضل حسن الخلق	٢٣١
.....	في الضحك والبكاء واللباس	٢٣٣
.....	في فضل القرآن وفضل العلم والعلماء	٢٣٤
.....	في فضل الصلاة والزكاة	٢٣٥
.....	في بر الوالدين وحقوق الأولاد	٢٣٦
.....	في حقوق الجوار والإحسان للمساكين	٢٣٨
.....	عقوبة شارب الخمر	٢٤٠
.....	في معراج النبي ﷺ	٢٤١
.....	فضل الجمعة	٢٤٣
.....	في حق الزوجة على الزوج	٢٤٤
.....	في حق الزوج على الزوجة	٢٤٦
.....	في فضل الجهاد	٢٤٨
.....	في مكر الشيطان	٢٤٩
.....	في بيان السماع	٢٥١
.....	في النهي عن البدعة وإتباع الهوى	٢٥٣
.....	فصل في النهي عن آلة اللهم	٢٥٤
.....	في فضل رجب	٢٥٥
.....	في فضل شعبان المبارك	٢٥٦
.....	في فضل رمضان المعظم	٢٥٨
.....	في فضل ليلة القدر	٢٥٩
.....	في فضل العيد	٢٦٠
.....	في فضل عشر ذي الحجة	٢٦١
.....	في فضل عاشوراء	٢٦٣
.....	في فضل ضيافة الفقراء	٢٦٤
.....	في الكلام على الحنازة والقبر	٢٦٥
.....	في النخوف من عذاب جهنم	٢٦٧
.....	في الميزان والصراط	٢٦٩
.....	في وفاة النبي ﷺ	٢٧٠
.....	القهرس	٢٧٩